المعرفة 135

العدد ١٣٥ جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ يولية ٢٠٠٦م

تفهم طفولتك تتخلص من مخاوفك

استخدام المسرح في تعليم القراءة

كيف نشتري السماء ودفء الأرض؟!

الإشراف التربوي

لغز «ابن عجلان»

الصحراء.. الأرض بلا «مكياج»



حبر سائل يتدفق لآخر قطرة

خال من الزايلين والتليونين



الضغاط

Pentel®

ثقافات .. الصحراء

أجل هكذا أود أن تفهم، لأنه إذا كانت الثقافة - في أحد تعريفاتها على الأقل - مجموع المعارف والرؤى والمواقف التي يحصل عليها الإنسان ويطورها، فإن لدينا أكثر من ثقافة تتصل بذلك التكوين الجغرافي الهائل والغامض الذي يحيط بنا ونمتزج فيه. لدينا ثقافة البدوي الذي يتخذ من الصحراء سكناً فيحتاج في سكنه إلى معرفة ما حوله: أسماء النباتات، وأوصاف الحيوانات، واحتمالات المطر، ومواقع النجوم، إلى غير ذلك. الثقافة هي المخزون الذي يعتمد عليه بقاؤه، والذي يتفاعل معه لينتج رؤى ومواقف تختزل ذلك المخزون وتحفظه في قصائد وأمثال وحكايات.

هذه ثقافة صحراء، وإلى جانبها تنهض ثقافة أخرى، ربما تكون أكثر تركيباً أو تعقيداً، ثقافة تتصل بتلك لكنها تختلف عنها اختلافاً بيناً. تلك هي ثقافة معظمنا، نحن القاطنين على أطراف الصحراء، في المدن الاسمنتية المسفلتة، ذات التقنية الحديثة والأفكار المغايرة لأفكار البدوي. ثقافتنا ثقافة صحراء بقدر ما نستمدها من موروثنا وبقدر ما نستمدها من علاقة محدودة بالصحراء، علاقة تحكمها علاقة أوثق بالمدينة إذ نهرب منها أحياناً لنستمد هوية ومعنى من ذلك الكيان الأكثر ثباتاً وديمومة وعمقاً تاريخياً. لكن لأننا لا نستطيع العودة إلى الصحراء فإننا نكتفي بتلك الثقافة التي نشكلها عن بعد، ثقافة صحراء تتشكل في المدينة وتتراءى في قصائد وقصص وأفكار عبر عنها مبدعون كثيرون في مشهدنا المعاصر.

سعد البازعي

د. سعد البازعي
أكاديمي وناقد أدبي



مجلة شهرية تصدر عن

وزارة التربية والتعليم

المملكة العربية السعودية

تأسست عام ١٣٧٩ هـ في عهد وزير المعارف صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز

وأعيد إصدارها عام ١٤١٧ هـ في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز

العدد (١٣٥) ـ جمادى الآخرة ١٤٢٧ هـ ـ يولية ٢٠٠٦ م

المشرف العام

عبدالله بن صالح العبيد

وزير التربية والتعليم

رئيس التحرير

عبدالعزيز بن جارالله الجارالله

نائب رئيس التحرير

سلطان بن عبدالعزيز المهنا

مدير التحرير

خالد بن عبدالله الباتلي

مديرة التحرير «لشؤون تعليم البنات»

فاطمة بنت فيصل العتيبي

سكرتير التحرير

عبدالوهاب بن يوسف المكينزي

الإخراج الفني

ينال رياض إسحق

إدارة النشر



ردمد: ٦٢٠٠-١٣١٩

البند الأول: المواد المنشورة في هذه المجلة لا تعبر بالضرورة عن رأي وزارة التربية والتعليم.

البند الثاني: تبويب الموضوعات والمقالات في هذه المجلة يخضع لاعتبارات فنية.

بسم الله الرحمن الرحيم

«السعودية.. أجمل صيفية» شعار جميل رفعته الهيئة العليا للسياحة. فالمقارنات التي عقدت في السنوات الأخيرة بين سياحتي الداخل والخارج رجحت السياحة الأولى من حيث التكلفة والأمن والمردود المالي للمواطن في الأجل القريب والبعيد. إلا أن قضاء الإجازة فن لا يجيده البعض فهو يبدأ بالتخطيط المبكر ولا يكفي الاعتماد فيه على مبدأ التخطيط اللحظي المباشر طلبًا لإجازة سعيدة! والسعادة هنا تعني الفائدة وليس ابتكار أشكال جديدة للتمطي وابتداع ألحان أطول للشخير وتكرار رحلات العام الماضي. فالمدن لدينا مكتظة بما يمكن تسميته تجاوزًا بالسياحة العلمية. حيث تنتشر دورات إدارية وحاسوبية ولتعليم اللغة الإنجليزية.. وحلقات للقرآن الكريم، وكذا مراكز صيفية بدأت تتحرر من وقارها غير المبرر. وهي فرص ثمينة للطلاب الذين يبنون أنفسهم بناء قويًا للمستقبل وأيضًا للمعلمين الذين يطورون أنفسهم للتناغم مع القادم المتغير. الإجازة لا تعني - بالضرورة - السفر الجسماني فقط. بل الانتقال والتطوير الذهني. وإذا ما فهم العاجزون عن السفر. لسبب من الأسباب. هذه القاعدة فإنهم سيقضون إجازة فائقة النكهة وعميقة النتائج... فالإجازة يمكن قضاؤها بالاستثمار والاستقرار وليس فقط بـ«الاستقرار». وكل عام وأعداد الراسبين أقل، وكل عام وأنتم بخير. المعرفة

المراسلات

باسم: رئيس التحرير

ص.ب ٢٢٠٠٠٧- الرياض ١١٣٢١

هاتف: ٤٠ ٤٠ ٤١٩ فاكس: ٤٧ ٤٧ ٤١٩

فاكس مجاني: ٢٢٧٧ ١٢٤ ٨٠٠

Letters should be sent to
Editor-in-chief
P.O.Box: 7 Riyadh 11321
Tel: 419 40 40 Fax: 419 47 47
Free Fax: 800 124 2277
info@almarefah.com

الأسعار

السعودية ١٠ريالات، الإمارات ١٠ دراهم.

الكويت ٨٠٠ فلس، قطر ١٠ ريالات.

البحرين ١٠٠٠فلس، سلطنة عمان ١٠٠٠بيسة.

اليمن ١٢٥ ريالاً، سوريا ٦٥ ليرة.

الأردن ١,٢٥ دينار، لبنان ٣٠٠٠ ليرة.

مصر ٥ جنيهات،السودان ١٥٠ دينارًا.

المغرب ١٥ درهمًا.

الاشتراكات

سعر الاشتراك داخل السعودية للأفراد (١٠٠) ريال وللمؤسسات (٢٠٠) ريال.

سعر الاشتراك للدول العربية ٥٠ دولارًا شاملاً أجرة البريد.

سعر الاشتراك للدول الأخرى ٦٠دولارًا شاملاً أجرة البريد.

للاشتراك

الرياض:4197333 . فاكس: 4197696

فاكس مجاني: 8001242277

Subscriptions@rawnaa.com

للإعلان

الرياض:4197333 . فاكس: 4197696

Advertising@rawnaa.com

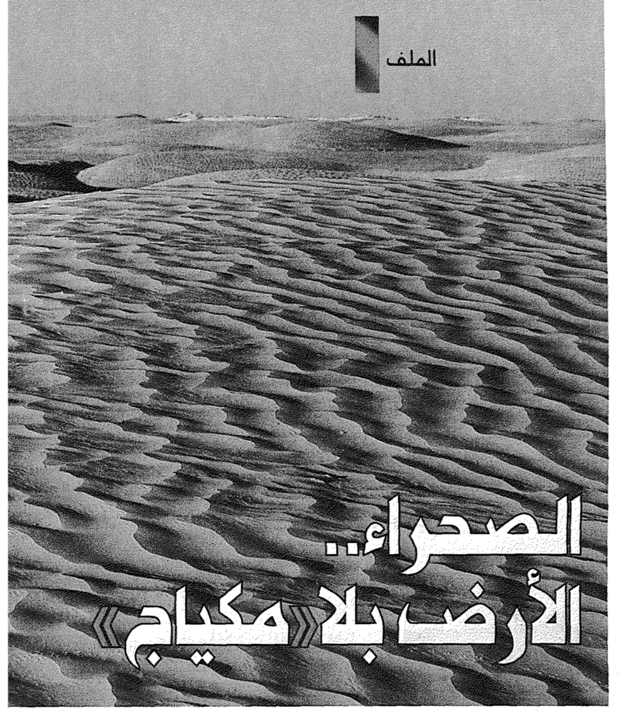
روناء للإعلان والتسويق

ص . ب 26450 الرياض 11486

التوزيع

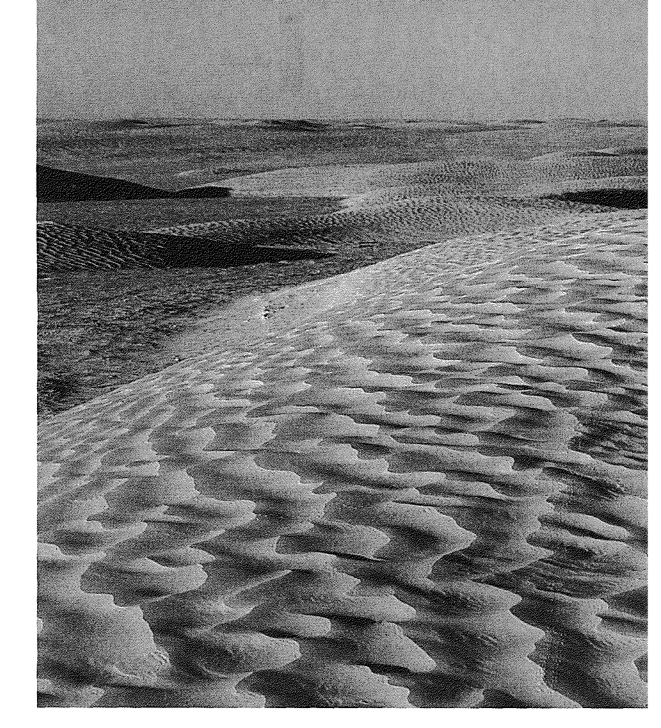
الوطنية للتوزيع





الصحراء.. الأرض بلا «مكياج»

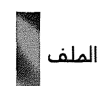
لا تستطيع أن تستخرج بثور المدينة ونفاقها إلا في مكان واحد هو الصحراء. كما أنه باستطاعتك في هذا المكان الحر أن تقيم محاكمة عادلة لشخوص مدينتك المقطبة وسياراتها المتدافعة على غير هدى ومكاييجها المترهلة على مر العصور وغنجها المتكلف المكرور في قضية سرقة هدوئك واتزانك وتخريب أمنك العصبي. ففي الصحراء كل شيء حقيقي وصادق. الشمس والقمر والأرض والشجر وأنت. أصوات الطيور لا مراء فيها ، لا ثرثرة حبلى بصدأ الوقت. فالصحراء لغة مستقيمة ومباشرة مع النفس مهما لطختك هالات الادعاء بأنك قريب من أمانيك التي تصنعها في خيال المدينة. الأفق هنا واسع فتتوسع عيناك به حتى كأنك كائن كبير الحجم والمهابة أكبر من مجرد بيوت أسمنتية مبطنة بـ«الرخام»، وخطواتك حرة طليقة كأنفاسك أو كصحراء، وروحك شفافة رفرافة لخالقها فلا وقت للرياء أو مجال للنفاق. تستطيع أن «تهيجن» وتغني ويكون صوتك هو نفسه طروبًا بعيدًا عن مقاييس اللحن المبتدعة، وتستطيع أيضًا أن تحاكم مديرك الذي أرسى مناقصات الصيانة على شركة زوجته لعدة سنوات، رغم أنه يلومك كل صباح على تأخيرك عن العمل، ويصرخ في وجهك يوميًا بأنه لن يرضى بالتسيب في إدارته وأنه سيحارب الفساد حتى آخر لحظة من عمره. وتستطيع أن تكشف أن صديقك خدعك، وأن زوجتك ربة منزل فقط، وأن ما تملكه من مال قليل أو كثير لا



يعرف ماذا تريد، وأن قائمة الأسماء في جهاز جوالك كذبة كبرى تتشكل بأسماء مختلفة. كما أنك تستطيع أن توقد لك وللجمال نارًا في الصحراء من أوراق التعاميم والأنظمة واللوائح التي لا يحترمها إلا البسطاء ومواطنو الدخل المحدود، ثم تضحك وتبصق بملء شدقيك. وتستطيع أيضًا أن تحاكم نفسك التي فرطت بقيمها أو ببعضها رشوة لمدينة خائبة خربة.

والصحراء «أم الأرض» تعلمك في مدرستها القاسية حينًا الصبر والجلد وسرعة التصرف، ثم تبتسم لك بملء صدرها وهوائها حين تتجاوز عقباتها الذكية لأنك تجاوزت حيلاً طبيعية لا اصطناع فيها بفضل فطرتك وقدراتك المجردة من كل إضافة إلا ما تتفضل به هذه الأم عليك من النجوم والأغصان والعيدان والحجر، ثم رويدًا رويدًا تجد نفسك قويًا جسورًا، فأعصى شيء في المدينة أهون شيء في الصحراء.

الصحراء «أم الأرض».. نعم فكلما كبرت الأرض وضاقت بما رحبت جاءت باكية مكدودة إلى حضن أمها تشكي لها همها و«ضيقها» وصلف ظرفها، فتهديها كيمياء النقاء والصفاء والبترول والطب البديل لعلها تبني مستقبلاً أفضل وتعالج داءاتها الحاضرة وتصبح أرضًا حقيقية كـ«صحراء»، فالابن مهما كبر وطال وعرض وعمق يظل صغيرًا أمام «الأم». المعرفة



منها الحارة والمعتدلة والجليدية

الصحراء..

علي الأحمدي * - المدينة المنورة

* الإدارة العامة للتربية والتعليم .

تغطي الصحراء أكثر من ربع مساحة سطح القشرة الأرضية، وتشغل مساحة تقدر بـ ٤٥,٥ مليون كيلومتر مربع، وتكون في معظمها على هيئة صحاري جافة أو شبه جافة أو صحاري باردة. وتتجمع معظم هذه الصحاري في المناطق شبه الاستوائية بين خطوط العرض من ٣٠ شمالاً إلى ٣٠ جنوبًا. والصحراء من التضاريس الجغرافية الموجودة في كل قارات الأرض، وهي موجودة أيضًا على كواكب أخرى؛ فقد شاهد العالم أجمع صحراء المريخ الحمراء اللون في الصور التي التقطتها المركبات الفضائية فايكنج ومارينر، وهناك اعتقاد قوي بوجود الصحارى الجليدية على كوكبي أورانوس ونبتون البعيدين عن الشمس وعن كوكبنا الأرضي.

لم ترد لفظة «صحراء» في القرآن الكريم، غير أنها وردت بضع مرات في الحديث الشريف، ومن ذلك ما ورد في مسند الإمام أحمد: أن أبا هريرة كان حريصًا على أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء لا يسأله عنها غيره فقال: يا رسول الله، ما أول ما رأيت في أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا وقال: لقد سألت أبا هريرة، إني لفي صحراء ابن عشر سنين وأشهر.... الحديث.

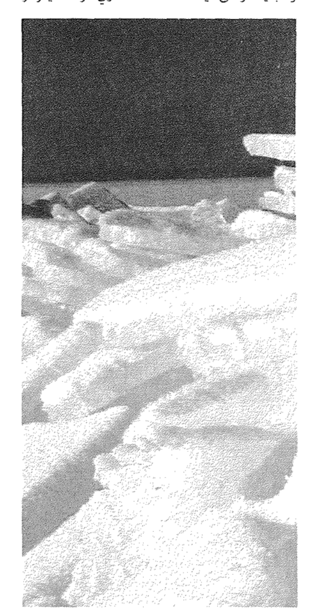
وقد وضع العرب للصحراء نحوًا من أربعين اسمًا لكن العرب ميّزوا بين أنواع كثيرة من الصحاري، واستعمل العرب في أشعارهم ألفاظ «صحراء»، «قفر»، «بيداء»، «فيافي»، «مفازة». والصَّحْراء اسم مشتق من الفعل صَحَرَ، يقال صَحَرَ الطعامَ: طبخه. وصَحَرَت الشمسُ فلانًا: آلمت دماغَه. وصَحِرَ صَحَرًا، وصُحْرَةً: أشربَ لونُه حمرة خفيفة. فهو أصحرُ، وهي صحراءُ. أَصْحَرَ القومُ: برزوا في الصَّحراء. وأَصْحَرَ المكانُ: اتَّسَعَ. وأَصْحَرَ الأمرَ، وبالأمر: أظهره. والصَّحْرَاءُ: هي أرض فضاء واسعة فقيرة الماء. وتجمع صَحَارَى و صَحَارٍ وصَحَارِيّ وصَحْراوَات.

وتدخل الصحاري في العرف الجغرافي تحت ما يطلق عليها أسم الأقاليم الجافة، وتعرف بأنها المناطق التي تتميز بندرة الماء، والجفاف (ندرة الأمطار)، وقلة الغطاء النباتي أو انعدامه كما أنها تعاني عجزًا في التوازن المائي (المفقود أكبر من الوارد إليها). كما تعرف الصحراء بأنها أراض جافة رملية أو هي جزء عقيم أو قاحل من الأرض Barren tract of land. وقد عرفها معجم المصطلحات الجغرافية بأنها «المنطقة التي تكون الهواطل فيها ضئيلة جدًا، تخلو من المجاري المائية الدائمة ،شبه قاحلة، شبه جرداء، تغطيها سهب متفاوتة الكثافة، فقر حيواني ونباتي، الحياه الموجودة فيها تكون متكيفة ومتأقلمة مع ظروفها الصعبة».

ولا يختلف التعريف الجيولوجي كثيرًا عن التعاريف السابقة، فالصحراء منطقة يبلغ معدل سقوط الأمطار عليها ٢٥ سنتيمترًا أو أقل سنويًا وبالتالي تكون خالية من الحياة النباتية، بحيث لا تسمح بوجود عدد ملموس من السكان. وهي بقاع مغطاة برواسب قارية من الرمل والحصى كما في صحراء الربع الخالي على هيئة كثبان رملية، أو يغطيها الجليد الجاف والركامات الجليدية كما في الصحاري القطبية.

نشأة الصحراء

يقدّر عمر الأرض حسب تقديرات علم الجيولوجيا بـ ٤,٥ بلايين سنة - والله أعلم -. شهد سطح الأرض خلالها تغيرات وتبدلات عديدة على مدار ملايين السنين. حتى أخذت الأرض شكلها ووضعها الحالي المعروف في دهر الحياة الحديثة منذ ٦٥ مليون سنة تقريبًا. وبالأخص في العصر الجيولوجي المسمى «بالعصر الرباعي» الذي نحن فيه الآن. وقد بدأ منذ مليوني سنة. حيث يعتقد أن معظم الصحاري المعروفة اليوم أخذت شكلها النهائي خلال هذا العصر نتيجة عمليات جيولوجية متنوعة كالتعرية والتجوية والترسيب وبفعل عوامل متعددة أبرزها الرياح ودرجة الحرارة والرطوبة والجليد. ولكن كيف نشأت الصحاري؟ ولماذا يتركز



وجودها في المناطق الواقعة بين خطي العرض ٣٠ شمالاً و٣٠ جنوبًا بالذات؟

يعتقد علماء الجغرافيا والمناخ ارتباط تكوّن حزام الصحاري العالمي بحركة الهواء الذي يندفع من خط الاستواء باتجاه القطبين. حيث تصل منطقة خط الاستواء كمية كبيرة من أشعة الشمس طيلة أيام السنة، لذلك فإن الهواء في هذه المنطقة يسخن فيرتفع إلى أعلى في الجو. عندما يرتفع الهواء إلى أعلى يبرد فتتجمع الأبخرة التي تحتوي عليها لتكوّن الغيوم. تنزل هذه الغيوم أمطارًا غزيرة في منطقة خط الاستواء. (لذلك فلا عجب أن المنطقة غنية بالغابات والنباتات الكثيفة). بعد أن يتخلص الهواء من حمولته من البخار تتجه حركته نحو القطبين.

وفي منطقة خط عرض ٢٥ درجة - وبسبب حركة دوران الأرض، يبدأ الهواء بالهبوط باتجاه الأرض. في طريق هبوطه ينضغط الهواء ويسخن - مما يحول دون تكوّن الغيوم. لذلك ففي هذه المنطقة من الكرة الأرضية من طرفي خط الاستواء تتكون مناطق جافة تعرف بالصحاري.

السمات والخصائص العامة للصحراء

تتفق آراء المتخصصين والباحثين الذين تناولوا دراسة الصحاري على أن هذه المناطق تتميز بخصائص وسمات معينة منها :

- قلة الرطوبة وندرتها.
- ارتفاع درجة الحرارة (كما في الصحاري الحارة كصحراء الربع الخالي) أو الانخفاض الشديد في درجة الحرارة (كما في الصحاري الجليدية كصحراء انتاركتيكا القطبية).
- قلة الأمطار.
- ندرة الغطاء النباتي وانعدامه أحيانًا.
- قلة الكائنات الحية الحيوانية وندرتها.
- معظم المناطق الصحراوية تتميز بأنها ذات تصريف مائي داخلي وذلك يعني أن المياه فيها تتسرب إلى جوفها ونادرًا ما تصل إلى البحار المفتوحة عبر المجاري المائية (السيول).
- سطحها يتميز بوجود الرمال إضافة إلى الحصى والصخور الرسوبية أحيانًا كما في الصحاري الحارة، أما في الصحاري القطبية فالصفائح والركام الجليدي يغطي السطح.

أنواع الصحاري

تنتشر الصحاري في جميع قارات العالم، حيث تتشابه في خصائصها العامة من حيث الجفاف وقلة الغطاء النباتي وندرة الكائنات الحية الحيوانية، إلا أن ذلك لا يمنع من وجود اختلافات بينها في التضاريس ودرجات الحرارة.

ومن هنا فقد وضعت عدة تصنيفات للصحاري من قبل العلماء الذين تناولوا هذه المناطق بالدراسة، إلا أن أشهر هذه التصنيفات هو التصنيف الذي بني على أساس درجة الحرارة، وقسمت بموجبه الصحاري إلى ثلاثة أصناف[1]:

- الصحارى الحارة/ وهي الصحارى التي يزيد فيها متوسط درجات الحرارة على (١٨درجة)، حيث تتميز صحارى هذا النوع بأنها الأكثر جفافًا في العالم، وتقل فيها الأمطار التي تسقط بصورة فجائية، والغطاء النباتي يكون قليلاً أو معدومًا أحيانًا، وترتفع درجات الحرارة في هذا النوع لتصل إلى ٨٠ درجة كما في الصحراء الكبرى في إفريقيا.

ومن الأمثلة على هذا النوع إضافة إلى الصحراء الكبرى، صحاري شبه الجزيرة العربية والصحراء الرملية العظمى الأسترالية وصحراء المكسيك.

- الصحارى المعتدلة/وهي الصحاري التي يقل فيها متوسط درجات عن (١٨ درجة) ، وتسقط الأمطار هنا بمتوسط أقل من ٢٥٠ ملم، ويتميز المناخ هنا بالبرودة في فصل الشتاء وقد يتساقط الثلج، أما في الصيف فتصل درجات الحرارة إلى مستويات عالية، ومعدل الرطوبة يتراوح بين ٥٪ و٣٠٪. ومن الأمثلة على هذا النوع من الصحاري صحراء بتاغونيا في أمريكا الجنوبية وصحراء كازاخستان وصحراء جوبي في منغوليا .

- الصحارى الباردة (الجليدية)/ وهي الصحاري التي يغطيها الجليد وتنخفض فيها درجات الحرارة إلى مستويات قياسية قد تصل إلى (-٨٨ درجة) تحت الصفر كما سجل ذلك في القطب الجنوبي سنة ١٩٦٠م، وتتميز هذه الصحاري بالجفاف حيث تكون الرطوبة محتبسة في التراكمات والصفائح الجليدية، ونادرًا ما يحدث ذوبان للجليد. ومن الأمثلة على هذا النوع من الصحاري صحراء انتاركتيكا في القطب الجنوبي وصحراء جرينلند والصحاري الباردة في ألسكا.

> صحراء إنتاركتيكا هي صحراء جليدية، تصل مساحتها إلى ١٤ مليون كم مربع، يوجد فيها ٩٠٪ من الجليد الذي يغطي قشرة كوكب الأرض، متوسط سمك الجليد فيها يصل إلى ٢ كلم

أشهر الصحارى في العالم:

الصحراء الكبرى:

الصحراء الكبرى هي صحراء تحتل الجزء الأكبر من شمال إفريقيا، وهي أكبر الصحارى الحارة في العالم بمساحة تفوق الـ ٩ ملايين كم مربع، وهي منطقة قاحلة مقفرة تغطي جزءًا كبيرًا من وسط إفريقيا وشمالها، وتكاد تمثل حاجزًا طبيعيًا بين شمال إفريقيا ووسطها، وتمتد الصحراء الكبرى من الغرب إلى الشرق أي من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر، على طول ٣٠٠٠ كلم، ومن الشمال إلى الجنوب أي من البحر الأبيض المتوسط إلى بداية المناطق الاستوائية ، على طول ١٥٠٠ كلم [2].

الصحارى الأسترالية

تغطي الصحارى مساحة كبيرة من سطح أستراليا تصل إلى ٧,١ ملايين كم ٢ أي ٥٤٪ من مساحة هذه القارة، وتمتد بين درجتي عرض ٢٠ درجة و٣٠ درجة جنوبًا ويصل ارتفاعها ما بين ٢٠٠متر إلى ٦٠٠متر، وتعرف بالصحارى الحمراء لوجود أكاسيد الحديد فيها، مناخها جاف قاري، وأمطارها قليلة، ومعدل درجات الحرارة صيفًا يبلغ ٢٨ درجة إلى ٣٠ درجة، وفي الشتاء يتراوح بين ١٢ درجة ـ ١٤ درجة، ومن الأمثلة عليها صحراء جيبسون وصحراء الرمال العظيمة وصحراء فيكتوريا [3] .

صحراء إنتاركتيكا:

وهي صحراء جليدية، تصل مساحتها إلى ١٤ مليون كم مربع. يوجد فيها ٩٠٪ من الجليد الذي يغطي قشرة كوكب الأرض، متوسط سمك الجليد فيها يصل إلى ٢ كلم، ويقدر حجم هذا لجليد الذي يغطيها بـ ٣٣ مليون كم مكعب من الجليد. يتميز سطحها بوجود التراكمات الجليدية والأودية الثلجية ووجود الكثبان الجليدية. مناخها جاف، ونسبة الرطوبة فيها تبلغ أقل من ٠,١٪، معدل تساقط الثلوج سنويا أقل من ٧٠ ملم [٤].

صحارى المملكة العربية السعودية

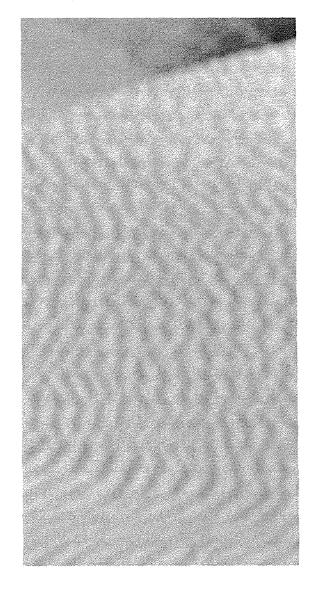
إلى حدّ كبير يمكن القول إن أكثر من نصف مساحة المملكة العربيّة السّعوديّة هي صحراء مغطاة بالكثبان الرملية، بينما باقي المناطق عبارة عن أموّاج واسعة من الرّمل. وتبلغ مساحة هذه المناطق المغطاة بالرمل ٧٧٥٠٠٠ كم مربع من شبه الجزيرة العربية تقريبًا. ويوجد في المملكة ثلاث صحارٍ كبيرة: النفوذ في الشّمال، الربع الخالي في الجنوب وصحراء الدهناء الضّيّقة التي تصل النفوذ بالربع الخالي في الشّرق.

صحراء الربع الخالي:

أول رحلة موثقة لرحالة غربي إلى الربع الخالي كانت تلك التي قام بها برتمار ثوماس عام ١٩٣١م وسانت جون فيليب (عبدالله فيلبي) عام ١٩٣٢م. وجاءت تسميتها بهذا الاسم كترجمة لما ورد في كتابات الغربيين الذين زاروا هذه الصحراء وأطلقوا عليها اسم (The Empty Quarter) لأنها تشغل ربع مساحة شبه الجزيرة العربية تقريبًا ولخلوها من أسباب الحياة.

الربع الخالي يعتبر من أكبر صحارى العالم مساحته حوالي ٦٥٠,٠٠٠ كيلومتر مربع (حوالي ٢٥٠,٠٠٠ ميل مربع). وهي أكبر صحراء رملية في العالم، تحتل الثلث الجنوبي من شبه الجزيرة العربية، متضمنة جنوب السعودية ومناطق من عُمان والإمارات العربية المتحدة واليمن. وهي أكبر صحاري الجزيرة العربية تمتد في مناطق جنوب شرق السعودية. تعد مساحات كبيرة منها غير مستكشفة بعد، وغير مأهولة، يصل طول الصحراء إلى ١٠٠٠ كم وعرضها إلى ٥٠٠ كم. حتى البدو لا يمرون سوى بأطرافها. في الصيف تتراوح درجات الحرارة فيها من أقل من درجة التجمد ليلاً وأكثر من ٦٠ درجة مئوية ظهرًا، وتوجد فيها كثبان رملية أعلى من برج إيفل - أكثر من ٣٣٠ م - ويمكن أن تعد الصحراء ذات الظروف المناخية الأصعب في العالم، فالظروف البيئية في هذه الصحراء شديدة الصعوبة للغاية [٥].

ولكن، ومثل كل مكان آخر على وجه الأرض تقريبًا، تجد الحياة طريقها في هذه المناطق. فالعنكبوتيات والقوارض والحياة النباتية يمكن العثور عليها في أرجاء الربع الخالي. وكمنطقة مناخية، يقع الربع الخالي ضمن الصحراء العربية القاحلة ومناطق الشجيرات. وجيولوجيا، يعتبر الربع الخالي من أكثر مناطق العالم غنى بالنفط، حيث يوجد مخزون هائل من النفط تم اكتشافه



تحت الرمال مثل حقل شيبة الذي تم افتتاحه رسميًا عام ١٩٩٩م وهو موقع إنتاج رئيسي للنفط العربي الخفيف في المملكة العربية السعودية. وكذلك حقل الغوار أكبر حقل نفط في العالم على اليابسة، يمتد ليصل جنوبه الأجزاء الشمالية من الربع الخالي.

وقد شهدت هذه الصحراء هذا العام خلال شهر فبراير ٢٠٠٦م (محرم ١٤٢٧هـ)، سبقًا علميًا فريدًا تمثل في الرحلة العلمية الاستكشافية الأولى من نوعها، والتي وافق عليها المقام السامي، وشارك فيها أكثر من ٥٠ عالمًا وخبيرًا من عدة دول، وهدفت هذه الرحلة التي جاءت باقتراح من هيئة المساحة الجيولوجية السعودية إلى جمع المعلومات الأولية عن الربع الخالي. وقد خرجت هذه الرحلة بنتائج تعد فتحًا علميًا ربما سيغير من الصورة التي تكونت عن هذه الصحراء في الماضي باعتبار أنها منطقة قاحلة خالية من أسباب الحياة، حيث كشفت الرحلة عن وجود بحيرات وموارد مائية، وواحات نخيل، وأعشاب ونباتات متنوعة بعضها غير معروف حتى الآن. كما عثر على بقايا نيزك وأحافير لحيوانات بحرية إلى غير ذلك من الحقائق التي ستؤدي ولاشك إلى إعادة التفكير في هذه المنطقة الثرية وكيفية التعامل معها في المستقبل[٦].

صحراء النفود

وهي عبارة عن صحراء رملية تمتد ما بين الشرق والغرب لمسافة ٦٠٠كلم، وامتدادها من الشمال إلى الجنوب يبلغ ٢٥٠كلم. تتميز صحراء النفود بالكثبان الرّملية المتشابهة، تتراوح معظمها في الارتفاع بين ٦ و ١٥ مترًا (٢٠ و ٥٠ قدمًا)، وقد يصل بعضها إلى ارتفاع ١٠٠ متر. وتقدر مساحتها بأكثر من ٦٥٠٠٠ كم مربع. رمالها تتميز باللون الأحمر في الشمال واللون الرمادي في أطرافها الجنوبية والغربية[٧].

صحراء الدهناء

عبارة عن حزام كثبان رملية وهضاب عالية تمتدّ في جنوب النفود، تفصل نجد والأحساء. الدهناء التي تختلف في العرض من ٢٤ إلى ٨٠ كيلومتر (١٥ إلى ٥٠ ميلاً)، توصّل مناطق الصحراء الشّماليّة بالربع الخالي في الجنوب. كثبانها متشابهة لكن متقطعة، حوافها ``رملية تحاذي الحافّة الغربيّة لنجد، وهي همزة وصل بين النفود والربع الخالي.

إلى حدّ كبير يمكن القول إن أكثر من نصف مساحة المملكة العربيَة السّعوديّة هي صحراء مغطاة بالكثبان الرملية . بينما باقي المناطق عبارة عن أمواج واسعة من الرّمل

رمالها حمراء اللون بسبب وجود أكاسيد الحديد الهيماتيتي[٨].

الحياة النباتية والحيوانية في صحاري المملكة:

بالرغم من ظروف المناخ القاسية في صحاري المملكة العربية السعودية حيث الجفاف الشديد وارتفاع درجات الحرارة. إلا أن ذلك لم يمنع من وجود الحياة فيها. فالأمطار الموسمية المفاجئة تترك آثارها على هذه المناطق، وتحولها من صورة إلى صورة أخرى لا يمكن تصديقها. حيث يؤدي هطول الأمطار على هذه المناطق إلى نمو غطاء نباتي يشتمل على أنواع من النباتات الحولية الصغيرة مثل الخزامى والأقحوان والكحله والنصي والقصبا وغيرها. ومن الشجيرات التي تنمو في هذه الصحاري الحرمل والعبل والعوسج والشبرق والرمث والغضا والشيح.

كما أن هذه الصحاري تتميز بأنواع من الكائنات الحيوانية كالقطط البرية والقنافذ والثعالب والأرانب البرية والجرابيع. كما توجد آثار لبعض الثدييات والطيور المهددة بالانقراض مثل غزال الريم والمها العربي (الوضيحي) والنعام والحبارى، إضافة إلى وجود أنواع مختلفة من الحشرات والعناكب والعقارب التي تأقلمت للعيش في هذه الظروف القاسية.

المشكلات التي تواجه الصحراء

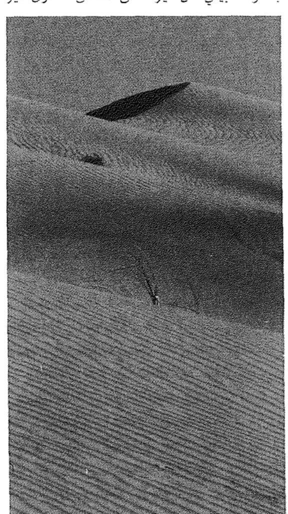
- التصحر: وهي إحدى المشكلات التي تعانيها البيئات التي تحيط بها الصحارى، ويعرف بأنه تحول جغرافي في سطح الأرض يتخذ اشكالاً مختلفة تؤدي جميعًا إلى انخفاض أو تدهور إنتاجية الأرض في النظم البيئية المختلفة وتعود أسبابه إلى

ظروف مناخية وظروف بشرية[٩]. وأعراضه تتمثل في انخفاض منسوب المياه الجوفية، تملح التربة، انجراف التربة ، جدب الأراضي الزراعية نقص المياه السطحية [١٠].

- زحف الكثبان الرملية: حيث تهدد الرمال الزاحفة التي تحركها الرياح من هذه الصحاري، المناطق السكنية المأهولة والمناطق الزراعية القريبة منها مؤدية إلى طمرها والتأثير على نمط الحياة فيها.

- ندرة المياه: حيث تتميز الصحاري بقلة المياه فيها وندرة الأمطار، مما يؤثر على سكان هذه المناطق من البدو وغيرهم. الأمر الذي يتطلب توفير طرق وأساليب تساعد على توفير المياه الصالحة في هذه المناطق.

- التلوث البيئي: بالرغم من أن معظم الصحاري في العالم تعد مناطق غير مأهولة بالسكان، ولم تتأثر بالتلوث البيئي مثل غيرها من المناطق الأخرى غير



الصحراوية، إلا أن يد التلوث طالت بشكل أو بآخر أجزاء من هذه المناطق في العالم، ويكفي كمثال على ذلك التجارب النووية التي تجريها الدول النووية كما يحدث ذلك في صحراء نيفادا وأريزونا في أمريكا.

كما أن ظاهرة الاحتباس الحراري الناجمة عن التلوث الهوائي وانبعاث الغازات قد طالت مناطق كثيرة في العالم منها الصحاري القطبية مؤدية إلى تقلص الجليد، وتناقص أعداد الكائنات الحية التي تعيش هناك [١١].

مستقبل الصحراء في المملكة العربية السعودية:

يمكن القول إن النظرة إلى الصحراء قد تغيرت خاصة في الخمسين سنة الماضية، فقد أدى التقدم العلمي والتقني الذي شهده العالم في القرن العشرين واستمر مع بداية هذا القرن، إلى ابتكار طرق وأساليب مكنت الإنسان من الدخول إلى هذا العالم وسبر أغواره، لا بل ومحاولة التعايش معه والاستفادة منه، ويظهر ذلك من خلال عدد من الأمثلة ومن ذلك:

مشروع تطوير حقل الشيبه في صحراء الربع الخالي: حيث يرجع اكتشاف النفط في هذا الحقل إلى أكثر من ثلاثين عامًا من قبل شركة أرامكو السعودية، إلا أن وجود هذا الحقل في صحراء الربع الخالي ذات الظروف القاسية جدًا، جعل التفكير في استغلاله في ذلك الوقت أمرًا مستحيلاً[١٢].

إلا أن الوضع قد تغير خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة وشهد عقد التسعينيات من القرن العشرين افتتاح مشروعات تطوير هذا الحقل التي اشتملت إضافة إلى المجمع النفطي، إنشاء مطار ومرافق صحية وسكنية بتلك المنطقة النفطية مما يعني قيام مدينة في قلب هذه الصحراء.

السياحة الصحراوية: تعد الصحارى مناطق جذب واهتمام لدى الكثير من الشعوب، خاصة في هذا الوقت الذي زاد فيه الاهتمام بالسياحة على المستوى العالمي باعتبارها مصدر دخل اقتصادي، ونافذة إعلامية يمكن من خلالها إبراز تاريخ هذه المناطق وجغرافيتها والتعريف بحضارتها لدى الآخرين.

وقد اهتمت العديد من الدول التي تملك مناطق

صحراوية. بالسياحة في هذه المناطق. وولد نتيجة ذلك مصطلح جديد في قاموس السياحة العالمية سمي «السياحة الصحراوية» وقد خطت الكثير من الدول العربية خطوات جيدة في هذا المجال كما فعلت بلدان المغرب العربي تونس وليبيا والجزائر. وحذت دولة الأمارات العربية المتحدة نفس الخطوات من خلال إنشاء بنى تحتية ومرافق في المناطق الصحراوية وتنظيم رحلات إلى هذه المناطق و إقامة مهرجانات تعرّف بهذه المناطق وتاريخها وحضارتها.

ونحن في المملكة العربية السعودية مطالبون بتفعيل هذا الجانب «السياحة الصحراوية» خاصة أن المملكة تملك ثلاث صحارٍ كبرى (الربع الخالي والنفوذ والدهناء) ذات التاريخ العريق المرتبط بالجزيرة العربية مهد الجنس العربي الذي استوطن هذه المناطق وترك فيها حضارة جديرة بالاكتشاف من قبل العرب وغيرهم ممن يهتمون بهذا الجانب، خاصة في ضوء ما كشفت عنة الرحلة الاستكشافية الدولية التي نظمت للربع الخالي خلال شهر فبراير ٢٠٠٦م بمشاركة أكثر من ٥٠ عالمًا وخبيرًا من جنسيات مختلفة وقد كشفت هذه الرحلة لنا عن معلومات وحقائق جديدة عن هذه المنطقة، وخرجت الرحلة بعدد من التوصيات من أبرزها توصية حول تعزيز مفهوم (السياحة الصحراوية) والمساهمة في نشرها من خلال دراسة مكونات الربع الخالي وطرق الاستفادة منها، إلى جانب تأكيد أهمية نشر الوعي البيئي من خلال دراسة الربع الخالي، وكذلك التعريف بمكونات ومكنونات هذا الجزء الكبير من بلادنا من خلال ما تم جمعه من معلومات، إلى جانب التوصية بالقيام بالمزيد من الدراسات والأبحاث الميدانية في صحراء الربع الخالي، ودراسة المزيد من الظواهر المميزة فيه والمحافظة عليها واستثمارها كموقع سقوط النيزك والكهوف والآثار التي مر عليها الفريق وغيرها من الاستكشافات[١٣].

لقد آن الأوان لتغيير النظرة السلبية والصورة القاتمة السوداوية عن الصحراء باعتبار أنها مناطق عقيمة قاحلة، غير مفيدة لا تستحق الاهتمام والعناية فللصحراء[١٤] على الإنسان فضل لا ينكر خاصة في الجزيرة العربية في توجيه حياته وفكره وسلوكه، تركت أثرًا لا تمحوه الأيام من ذاكرة إنسان الجزيرة العربية، في تكوين حياته، وبناء مجده وحضارته، فهو ابن الصحراء تقلب في رحمها، وانطلق منها في تشييد حضارة العالم وإضافة لبنات أساسية في صرح شموخها وعطائها وتوجهها. أكسبته قسوة الصحراء قوة، وبعثت فيه عزمًا لا يلين، ومنحته الذهن الثاقب والذكاء المتوقد، وخلعت عليه في اتساعها، وانداح جنباتها برود السماحة والكرم والخلق الرضي، فكان ذلك الإنسان الذي ينسب إلى الصحراء في تألقه وتفرده وامتيازه ورضاه. ■

المراجع:

١/ محمد محمدين وحسن أحمد (١٩٨٥م). الأقاليم الجافة دراسة جغرافية في السمات والأنماط. دار العلوم للطباعة والنشر. ص٢٤. ٢٩.

٢/ مصطفى أعشي. نماذج من التواصل الحضاري بين شمال إفريقيا والصحراء الكبرى خلال عصور ما قبل التاريخ. معهد الدراسات الإفريقية جامعة محمد الخامس/ الرباط.

٣/ محمد محمدين وحسن أحمد (١٩٨٥م). مرجع سابق، ص٢١٦.

٤/ محمد محمدين وحسن أحمد (١٩٨٥م). مرجع سابق، ص٢٢٥.

٥/ الموسوعة الحرة «ويكبيديا». http://ar.wikipedia.org

٦/ جريدة الرياض. الخميس ١٦ صفر ١٤٢٧هـ - ١٦ مارس ٢٠٠٦م. العدد ١٣٧٧٩

٧/ محمد محمدين وحسن أحمد (١٩٨٥م). مرجع سابق، ص١٦٠.

٨/ محمد محمدين وحسن أحمد (١٩٨٥م). مرجع سابق، ص١٦١.

٩/ مجدي عيسى. مشكلة التصحر في العالم العربي. مجلة الخفجي. العدد الثالث، ١٤٢٠هـ. شركة الزيت العربية: الخفجي، ص٢.

١٠/ عبدالله الوليعي (١٩٩٦م). المحّميات الطبيعية في المملكة العربية السعودية. ط١، الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها: الرياض، ص٥٣.

١١/ فين مونتين. النذر البيئوية: لا مجال للهرب. الثقافة العالمية. عدد١٢٣. سبتمبر ٢٠٠٥م. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب: الكويت، ص٨٢-١٠١.

١٢/ محمد الفقي. مشروعات طموحة لتطوير حقل الشيبة في الربع الخالي. مجلة القافلة، عدد ٦، مجلد ٤٦ - أكتوبر: ١٩٩٧م، الظهران. ص٤.

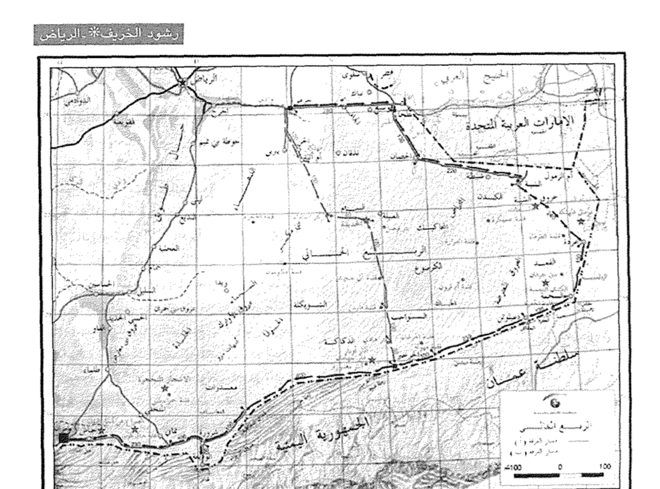
١٣/ جريدة الرياض. الخميس ١٦ صفر ١٤٢٧هـ - ١٦ مارس ٢٠٠٦م. العدد ١٣٧٧٩

١٤/ حمد بن ناصر الدخيّل. أثر الصحراء في نشأة الشعر العربي وتطوره حتى نهاية العصر العباسي الثاني. كلية اللغة العربية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

مشاهدات مثيرة في

الربع الخالي.. الغالي

رشود الخريف* - الرياض



*أستاذ جغرافية السكان – جامعة الملك سعود

كل مكان على وجه الأرض يتميز بجمال خاص وسمات ساحرة. فالصحراء ساحرة بهدوئها، ورمالها الذهبية، واتساع أراضيها، ونقاء نسيمها، وصفاء سمائها المتلئة بالنجوم. وصحراء الربع الخالي لها طعم خاص، كما يقال! فهي تتفوق بسحرها، وجمالها، واتساعها، وغموضها، وصعوبة مسالكها، وخطورة السفر بها. ولا بد أن تشعر بأن الربع الخالي رمال لا تنتهي! لا يعكر هدوء الليل بها إلا همس الرمال العازفة عندما تتناقلها الرياح في دوامة متحركة. وربما تكون محظوظًا لتعثر على قطع صغيرة من الصخور الرملية الملتحمة بعضها ببعض، وقد أحكم الخالق صنعها من خلال الرياح، يطلق عليها اسم «وردة الصحراء». والربع الخالي ليس خاليًا في الواقع، لذلك يحلو للبعض أن يسميه «الربع الغالي»، لأنه يتميز بجغرافية طبيعية وبشرية فريدة، ويحتوي على ثروات نفطية ضخمة، وتسكنه قبائل عربية كثيرة من أبرزها قبيلة آل مرة.

لقد شرفت بأن أكون ضمن الرحلة الاستكشافية العلمية للربع الخالي التي نظمتها هيئة المساحة الجيولوجية السعودية. فلها أقدم الشكر الجزيل والتقدير العميق على إتاحة الفرصة لي بالمشاركة في الرحلة المفيدة التي شارك فيها العديد من العلماء من داخل المملكة وخارجها. فهذه مبادرة علمية مفيدة عسى الجامعات السعودية العريقة تحذو حذوها وتقوم برحلات مماثلة للربع الخالي وغيره من مناطق المملكة التي هي بحاجة إلى مزيد من الدراسة والبحث في كافة التخصصات من الجيولوجيا والآثار والحياة الفطرية إلى الإنسان وحياته عاداته وتقاليده وأنشطته. فعلى مؤسساتنا الأكاديمية واجب تجاه كل رقعة من مملكتنا الغالية ينبغي أن تؤدى.

وفي هذه المقالة المختصرة، سأحاول استعراض مصادر المعلومات عن الربع الخالي، ثم تقديم موجز لبعض المشاهدات المتعلقة بالجغرافيا الطبيعية، وبعد ذلك سأركز على الإنسان في الربع الخالي، وأختتم بإبراز بعض المقترحات والآراء التي تمخضت من خلال الرحلة إلى منطقة الربع الخالي. وتحسن الإشارة إلى أن هذه المقالة عبارة عن انطباعات عامة ومشاهدات أولية، ولا أدعي فيها جديدًا عما هو موجود في بعض الكتب والدراسات العلمية التي تناولت الربع الخالي.

من أين المعلومات عن الربع الخالي؟

أود أن أشير قبل الحديث عن مشاهداتي إلى أن مصادر المعلومات عن الربع الخالي تكاد تنحصر في المصادر التالية:

- كتابات الرحالة الغربيين، مثل: برترام توماس الذي اخترق الربع الخالي في ١٩٣١م، وعبد الله فيلبي الذي قام برحلته المعروفة في عام ١٩٣٢م، وثيسيجر (أو مبارك بن لندن، كما يسمى) الذي قام برحلته في عام ١٩٤٥م وغيرهم. وتمثلت كتاباتهم في مشاهدات عامة وشاملة تناولت الجيولوجيا والجيموفولوجيا، والحياة النباتية، والحياة الحيوانية، والإنسان. ويعود لهم الفضل في تسجيل المشاهدات الأولى التي أصبحت مصدرًا

أوليًا لدراسات الربع الخالي.

. شركة أرامكو التي قامت بإجراء دراسات علمية كثيرة ركزت على الجيولوجيا المتعلقة بالبترول والمياه، وأسهمت في رسم الخرائط.

. وزارة الزراعة والمياه (سابقًا) ركزت في دراساتها ومسوحها الميدانية على الأحواض المائية وخصائص المياه في مناطق متعددة من الربع الخالي.

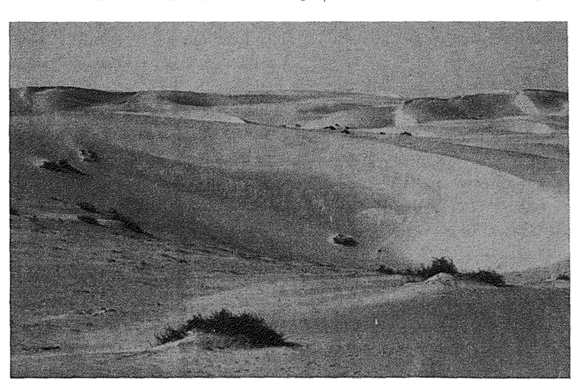
. الهيئة الوطنية للحياة الفطرية وإنمائها التي اهتمت بالحياة النباتية والحيوانية.

. كتابات الجغرافيين أمثال الشيخ حمد الجاسر، وعبدالله الوليعي، وعبد الرحمن الشريف. وعبدالله الغنيم، وعبدالله الشايع وغيرهم. وتجدر الإشارة إلى أنني لا أعلم بوجود جهة اهتمت بدراسات الإنسان في الربع الخالي، خاصة في منطقة ثرية بتراث البادية! والإنسان -كما يقال - هو محور اهتمام العلوم وهدف التنمية.

جغرافية الربع الخالي

على خلاف ما يعتقد، فإن اسم الربع الخالي قديم نسبيًا، ولا تعود التسمية إلى كتابات الرحالة الغربيين - كما يعتقد البعض. فعلى الرغم من أن هذه التسمية لم ترد في كتابات الجغرافيين الأقدمين مثل الأصطخري وابن حوقل والمقدسي، فإن اسم الربع الخالي ورد في كتابات شهاب الدين أحمد بن ماجد (٨٩٠هـ) - كما يشير إلى ذلك عبدالله الغنيم. وتجدر الإشارة إلى أن الربع الخالي يعرف بأسماء كثيرة تطلق على بعض أجزائه في القديم ومن قبل أبناء البادية في الوقت الحاضر. فعلى سبيل المثال، يسمى الجزء الشمالي الغربي «رمل يبرين» نسبة إلى واحة يبرين، ويطلق اسم «البوح» و«السنام» على بعض الأجزاء في وسطه، واسم «الدكاكة» على الجزء الجنوبي الواقع شمال الخرخير، و«الأحقاف» على الجزء الواقع شمال هضبة حضرموت، وكذلك «رملة يام» على الجزء الجنوبي الغربي، و«عروق بني معارض» و«الرميلة» على الجزء الغربي، وهكذا. وهذا في الواقع ما أكده بعض الذين قابلتهم من أبناء الربع الخالي خلال الرحلة. ولكن لا بد من القول أنه لا توجد حدود واضحة بين كل مكان من هذه الأماكن والآخر، بل تختلف المسميات وقد تتداخل جغرافيًا في بعض الأحيان.

والربع الخالي هو جزء كبير من مملكتنا الشاسعة وتتقاسمه منطقتان إداريتان، هما: المنطقة الشرقية ونجران. ولا يقتصر امتداد



الربع الخالي الشاسع على المملكة بل تقع بعض أجزائه في كل من الإمارات العربية المتحدة، وسلطنة عمان، واليمن. ويعد أكبر صحراء رملية متصلة في العالم، إذ تصل مساحته نحو ٦٤٠ ألف كم٢. ويسود المناخ القاري في معظم المناطق الصحراوية الداخلية في شبه الجزيرة العربية، ومنها الربع الخالي، إذ يتسم بالتطرف الحراري أو ارتفاع المدى الحراري وتباين درجات الحرارة بين ساعات اليوم الواحد (الليل والنهار) أو بين الفصول (الشتاء والصيف). وعلى الرغم من ندرة بيانات المناخ عن الربع الخالي، فإنه يعد من أقل مناطق المملكة من حيث كميات الأمطار الساقطة. وهذا يجعل بعض أجزائه قاحلة جدًا، وتكاد تخلو من الحياتين النباتية أو الحيوانية، خاصة في سنوات القحط. وتجدر الإشارة إلى أن تصنيف المناطق الصحراوية يعتمد على كمية الأمطار بدرجة رئيسة. فالمناطق التي تقل كميات الأمطار الساقطة بها عن ٢٥٠ ملم سنويًا، يقال إنها «صحراء». وفي الربع الخالي لا يسقط من الأمطار حتى نصف هذه الكمية.

أشكال الرمال والكثبان

تتكون طبوغرافية الربع الخالي في معظمها من بحر من الرمال. ففي بعض المناطق الجغرافية خارج الربع الخالي يمكن أن يقال إنها عبارة عن كثبان رملية وغيرها من مظاهر السطح كالجبال والأودية والسهول والفياض وغيرها. ولكن في الربع الخالي لا يوجد غير رمال ورمال.. ورمال لا تنقطع على مد البصر، ولكنها تتلوى وتتنوع وتتلون بألوان مختلفة من مكان إلى آخر. فمنها الهلالية والطولية والنجمية والمعقدة والمتشابكة، بعضها ثابت نسبيًا وبعضها متحرك. ويتأثر تشكيلها – بشكل عام – باتجاهات الرياح أو الرياح السائدة. ولا شك أن هذا التنوع في أشكالها وألوانها يضفي جمالاً ساحرًا لصحراء الربع الخالي، وربما ألغازًا محيرة تجعل الإنسان يفكر في قدرة الله سبحانه وتعالى وبديع صنعه. فهناك أنواع وأشكال متعددة يمكن رؤيتها وتمييزها بسهولة. كما أن ألوان الكثبان تتغير من منطقة إلى أخرى تبعًا لطبيعة الصخور المكونة لها. وفي الحقيقة، يمكن للقارئ الاطلاع عليها والتعرف على بعض أشكالها من خلال الصور الفضائية التي يوفرها موقع «جوجل إيرث» (Google Earth). ومن أبرز أشكال الرمال في الربع الخالي ما يلي:

ومن أكثر الأمور إثارة سماع أفراد قبيلة المهرة يتحدثون بلغتهم المحلية التي لا يمكن لأحد فهمها أو فك رموزها إلا من يتقن هذه اللغة ويعرف أصولها

- الكثبان الهلالية المرتفعة، وتقع في الجزء الشمال الشرقي من الربع الخالي. وتتميز عروق الشيبة بارتفاع شاهق مقارنة بالرمال التي مررنا بها، إذ يقدر ارتفاعها نحو ٣٠٠ متر فوق سطح الأرض.
- الكثبان النجمية التي تأخذ شكل النجمة وتقع – في الغالب – في الجزء المتاخم للحدود مع سلطنة عمان.
- الكثبان الطولية، ويطلق عليها «العروق» أو «حبال الرمل»، وتقع في النصف الغربي من الربع الخالي، وتمتد لعشرات الكيلومترات، ويمكن الاطلاع على أشكالها من خلال مرئيات الأقمار الصناعية المتوافرة على شبكة العنكبوتية (internet)، كما ذكر آنفًا.
- الدكاك أو الدكاكة، وهو نوع من الرمال تقع في جنوب الربع الخالي إلى الشمال من الخرخير. وهي عبارة عن رمال مستقرة تنتشر بها النباتات، وتتميز بتلبد الرمل وتماسكه، لذلك لا تبدو صعبة الاختراق بوسائل النقل التقليدية (الجمال) أو الحديثة (السيارات).

السباخ والمياه الفوارة

وقفنا على بعض السباخ الكثيرة التي يزخر بها الجزء الشرقي من الربع الخالي، ومن أبرزها

سبخة الحمر (وبها أخفض نقطة عن مستوى سطح البحر في الجزيرة العربية، إذ تقدر بنحو ٢٥ مترًا تحت مستوى سطح البحر)، وسبخة مطي، وسبخة أم السميم وغيرها. ويعزى وجود هذه السباخ الكثيرة في شرقي الربع الخالي إلى ارتفاع مستوى المياه الجوفية. وتمتد هذه السباخ عشرات الكيلومترات في بعض الأحيان. فعلى سبيل المثال، تمتد سبخة مطي أكثر من ٣٠ كيلومترًا. وتعد سبخة «أم السميم» أكبر السبخات الداخلية في الجزيرة العربية ويبلغ طولها نحو ١٠٠ كم.

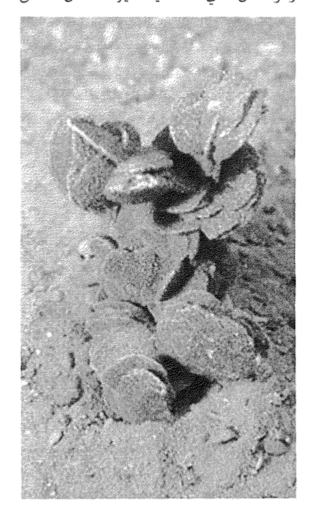
قد تكون وفرة المياه في الصحراء أمرًا مستغربًا للقارئ! نعم لأن الصحراء تعني ندرة الأمطار وقلة المياه! ولكن هذا هو الواقع. فقد لاحظنا وفرة المياه في الربع الخالي بكميات كبيرة، وخاصة في الجزء الشرقي منه، إذ توجد على مقربة من السطح بعدة أمتار. وفي حالات معينة، تتدفق المياه في بعض المناطق على سطح الأرض دون استخدام مضخات، بل تنطلق في الهواء لعدة أمتار بشكل فوار، مثل بئر المهولة بالقرب من الخرخير وكذلك في «أم الحيش» (أو عين حميدان)، ومركز ذعبلوتن. ومعظم هذه الأماكن عبارة عن آبار حفرتها شركة أرامكو أثناء نشاط التنقيب في الربع الخالي وتركت بعض الآبار تتدفق. وقد سمعت في وسائل الإعلام مؤخرًا أن وزارة المياه تعتزم الاستفادة منها. وعلى الرغم من وفرة المياه في الجزء الشرقي على وجه الخصوص، إلا أن معظمها غير صالح للشرب لارتفاع نسبة الملح به من جهة، ووجود بعض المواد الكيمائية الأخرى كالكبريت وغيره من جهة أخرى. ولكنها في بعض المواقع تكون المياه قابلة للشرب من قبل الحيوانات كالجمال وغيرها، أو حتى الإنسان عند الحاجة القصوى. وإلى جانب الآبار الارتوازية، توجد بعض آبار مياه صالحة للشرب يطلق عليها «قلمة» أو «بئر» حفرت من قبل بدو الربع الخالي، مثل قلمة آل حجيش، وبئر هادي.

سهول حصوية منكشفة

يلاحظ وجود سهول حصوية منكشفة كثيرة، خاصة في الجزء الأوسط والغربي من الربع الخالي، مما يؤيد ما كتب عن وجود أنهار منحدرة من الغرب إلى الشرق قبل تكون رمال الربع الخالي، خاصة أن بها بعض فتات صخور الدرع العربي، مثل ما ينكشف بوضوح في منطقة تقع إلى جنوب شرق يبرين على مسافة ١٠٠ كم تقريبًا.

«وبار» ما بين الحقيقة والأساطير

لقد وقفنا على موقع سقوط النيزك في وسط الربع الخالي. ويطلق عليه «الحديدة» لوجود قطعة النيزك المتكونة من معدن الحديد في معظمها. وفي هذا المكان تظهر على سطح الأرض بقايا الحديد والرمل المنصهر نتيجة حرارة النيزك الشديدة عند سقوطه. ولكن الفوهة التي أشار إليها «فيلبي» لم تكن موجودة بسبب الرمال المتحركة. وتشير الدراسات إلى أن هذا النيزك سقط على الأرض منذ ٣٠٠ سنة تقريبًا. وحول هذا المكان المسمى بـ«وبار»، كثرت القصص والأساطير التي هي إلى الخيال أقرب. فكان يعتقد أن «وبار» وهو المكان الذي سقط فيه النيزك، مكان مساكن



قوم عاد، الذين أدى غضب الله عليهم أن دمر مدينتهم بقلاعها وحصونها، ولم يبق منهم إلا آثار مساكنهم، كما ورد في القرآن الكريم (سورة الفجر). وتتمادى الأساطير – كما يذكر الشائع في كتابه الجديد (في أرض البخور واللبان) بالنص:لعل أقرب الأمثلة على ما حيك حول ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ التي تحولت إلى جنة دفنتها الرمال بناها «شداد بن عاد» من الذهب والفضة وفرش أرضها بالدر والياقوت والكافور!! ويشير الغنيم – أيضًا –إلى جانب آخر من الأساطير التي تقول: «بأن أرض وبار ... كانت أكثر الأرضين خيرًا وأكثرها ضياعًا وأكثرها مياهاً وشجرًا وتمرًا، فكثرت بها القبائل حتى شحنت بها أرضهم وعظمت أموالهم، فأشروا وبطروا وطغوا، وكانوا قومًا جبابرة ذوي أجسام فلم يعرفوا حق نعم الله عليهم.. إلى آخر الأسطورة. وزعم علماء العرب أن الله تعالى لما أهلك عادًا وثمود أسكن الجن في منازلهم وهي أرض وبار، فحمتها من كل من يريدها، وأنها أخصب بلاد الله وأكثرها شجرًا ونخلاً وخيرًا وأعذبها عنبًا وتمرًا وموزًا فإن دنا رجل منها عامدًا أو غالطًا حثوا عليه التراب وإن أبى إلا الدخول خَبَّلوه، وربما قتلوه.» وأقول: لا بد أن «فيلبي» كان يعتقد بوجود مساكن عاد وآثارهم. لذلك كان يحلم باكتشاف هذه المدينة خلال رحلته إلى الربع الخالي. وللدلالة على ذلك يذكر في كتابه عن الربع الخالي:«سيطرت علي خلال خمسة عشر عامًا فكرة واحدة، وطموح واحد، أو بالأحرى هاجس واحد، سعيت إلى تحقيقه دون هوادة وبكل إخلاص وعناد وتفان». ويقصد رحلته إلى الربع الخالي. ولعله من المناسب الإشارة إلى الإصرار والفضول العلمي غير العادي لدى كثير من الرحالة الغربيين. وعلى أية حال، عندما وصل فيلبي إلى «وبار» بمساعدة أبناء البادية، كتب يقول:«وصلت قمة الحيد وفي تلك اللحظة فهمت جيدًا أسطورة «وبار». فقد كنت أنظر من تحتي ليس إلى خرائب بل إلى فوهة... وكانت هناك فوهتان امتلأتا إلى نصفيهما بالرمال الزاحفة... ولم أدر ماذا أفعل: هل أبكي أم أضحك ... (أمام) المنظر الذي بدد أحلام السنين!».

لاحظنا وفرة المياه في الربع الخالي بكميات كبيرة ، وخاصة في الجزء الشرقي منه ، إذ توجد على مقربة من السطح بعدة أمتار . وفي حالات معينة ، تتدفق المياه في بعض المناطق على سطح الأرض دون استخدام مضخات ، بل تنطلق في الهواء لعدة أمتار بشكل فوار

حقول الذهب الأسود

تنام رمال الربع الخالي على ثروات طبيعية ضخمة، بعضها مكتشف ومعروف والبعض الآخر في الطريق إلى الاكتشاف. ومن أبرز الثروات النفطية، يقع حقل الشيبة في وسط عروق الشيبة في الجهة الشمالية الشرقية من الربع الخالي. وهو من الحقول المهمة لأنه يحتوي على بلايين البراميل من الزيت العربي الخفيف جدًا ذي الخصائص الممتازة. فعلى الرغم من اكتشاف هذا الحقل منذ ١٩٦٨م إلا أن تطويره لم يبدأ إلا في عام ١٩٩٥م وذلك للعوائق الجغرافية والمناخية المحيطة به. إلى جانب حقل الشيبة، يقع الطرف الجنوبي لحقل الغوار، أكبر حقل بترولي في العالم، في شمال الربع الخالي، وبالتحديد في منطقة يبرين.

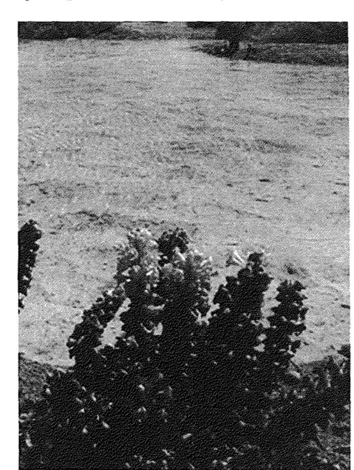
الإنسان في الربع الخالي

لا شك أن دراسات الإنسان في الربع الخالي نادرة وتكاد تنحصر في مشاهدات الرحالة الأجانب وبعض الكتابات الأخرى هنا وهناك، مما يتطلب اهتمامًا بهذا الحقل من الدراسات البشرية. وعلى أية حال ينقسم السكان في الربع الخالي إلى قسمين:

ـ المستقرون وشبه المستقرين في المدن والهجر، وهم يمثلون الأغلبية. فقد كانت أضواء

المدن جاذبة، وإغراؤها قويًا، بحيث جذب معظم سكان الصحراء للاستقرار في المدن والهجر، إما طلبًا للعمل والدخل المستقر الدائم، أو طمعًا في الخدمات التعليمية والصحية لأبنائهم. فمن الملاحظ انكماش نمط البداوة وتقلصه خلال العقدين أو الثلاثة الماضية في المملكة بوجه عام وفي الربع الخالي على وجه الخصوص. ولكن هناك فئات من سكان البادية يستقرون بعض الوقت في المدن والقرى، وعندما يأتي الربيع ينتقلون إلى الصحراء بماشيتهم سعيًا وراء الكلأ. أما قسم آخر منهم فيفضل أن تستقر الأسرة (الزوجة والأبناء) في المراكز العمرانية لتلقي تعليمهم، في حين يتنقل الأب (رب الأسرة) بين مكان استقرار أسرتهم ومكان وجود قطعان ماشيته التي يساعده في العناية بها رعاة من خارج المملكة.

- الرحل الذين يقطنون الصحراء ويتنقلون من مكان إلى آخر، وهم قلة قليلة، على الرغم من عدم وجود إحصاءات دقيقة ترصد أعدادهم وخصائصهم. ومن خلال الرحلة في الربع الخالي، علمنا بأن بعض الأسر تستقدم أحد العرب، وخاصة من السودان أو مصر، للقيام بتعليم أبنائهم أصول القراءة والكتابة والحساب، ليلتحق بعضهم – بعد ذلك - بإحدى المدارس القريبة عن طريق الانتساب.



قبائل الربع الخالي

هناك قبائل كثيرة تقطن الربع الخالي أو بعض أطرافه. وتتميز كل قبيلة بتقاليدها وعاداتها المميزة لها. ومن القبائل التي تقطن الربع الخالي، قبيلة آل مرة ويرتبط أسمها بالربع الخالي، ويقطن أفرادها في معظم أجزائه، وآل كثير (ومنهم آل راشد والعفار وآل خوار) ويتركزون شرق الربع الخالي، أما قبيلة الصيعر فهم في الجنوب بالقرب من شرورة. ومن قبائل الربع الخالي المناهيل الذين يتركزون في الخرخير وما حوله، والمهرة في جنوب الربع الخالي في مناطق الحدود مع عمان واليمن. أما قبيلة يام فتقطن الجزء الجنوبي الغربي، والدواسر في الجزء الغربي، كما يتخذ المناصير والعوامر المناطق في الشمال الشرقي من الربع الخالي مقراً لهم. وقد تسنى لنا مقابلة أفراد من بعض هذه القبائل.

اللغة المهرية في جنوب الربع الخالي

ومن أكثر الأمور إثارة سماع أفراد قبيلة المهرة يتحدثون بلغتهم المحلية التي لا يمكن لأحد فهمها أو فك رموزها إلا من يتقن هذه اللغة ويعرف أصولها. وهذه اللغة تبدو من اللغات القديمة جدًا السائدة في شبه الجزيرة العربية. ولا شك أن هذه اللغة تستحق الاهتمام من قبل علماء اللغة والمتخصصين في اللغات القديمة من علماء التاريخ والآثار، إذ لا أعلم بدراسات علمية لبنية هذه اللغة وتراكيبها وأصولها.

العمران في الربع الخالي

لا يوجد في الربع الخالي إلا عدد قليل من المدن والهجر (الدائمة وشبه الدائمة!). فعلى اتساع مساحته وترامي أطرافه، تتركز معظم المراكز العمرانية في الأطراف الشرقية والجنوبية والغربية

والشمالية. ولا توجد مراكز عمرانية تذكر في وسط الربع الخالي لصعوبة الصحراء وقسوتها. فطرق القوافل التي يسلكها المسافر هذا اليوم - على سبيل المثال - يمكن أن تختفي غدًا تحت الرمال المتحركة. ومن الملاحظ أن بعض الهجر يقطنها البدو في بعض المواسم فقط. مثل الشلفا بالقرب من يبرين. فلم نجد بهذه الهجرة عندما مررنا بها إلا ثلاثة من العمالة الوافدة يقومون برعاية بعض الإبل التي فضل أصحابها أن تبقى بالقرب من هجرة الشلفا بدلاً من الانتقال إلى شمال المملكة مع قطعانهم، حيث تتوفر المراعي المناسبة بعد أن حظيت تلك المناطق بهطول الأمطار هذا العام.

كما يلاحظ أن هناك بعض الهجر التي تتسم باستقرار دائم لسكانها، ويوجد في الربع الخالي ١٨ هجرة ينتمي سكانها إلى قبيلة آل مرة.

ويمكن تصنيف هذه الهجر إلى نوعين: النوع الأول عبارة عن هجر ذات استقرار دائم، وتتوفر بها معظم الخدمات الضرورية كالتعليم والصحة والكهرباء مثل يبرين والخن وأم أثلة وحرض. والقسم الثاني لا تتوفر بها الخدمات وبالتالي يكون الاستقرار بها موسميًا أو شبه دائم. ويمثل هذا النوع معظم الهجر. وبناء عليه، يتضح أن معظم الهجر تفتقر إلى الخدمات الأساسية وبخاصة التعليم والصحة والمياه الصالحة للشرب. وفي بعض الأحيان، فإن عدم وجود استقرار دائم للسكان في بعض الهجر أدى إلى صعوبة توفير الخدمات العامة فيها.

التوصيات

• دعم دراسات الربع الخالي وتشجيع إجراء دراسة تفصيلية عن سكان الربع الخالي من النواحي الديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية لمعرفة أوضاعهم المعيشية والصحية (الفقر، البطالة، الإعاقة وغيرها)، وعن حالة المراعي وتأثير الإنسان عليها، وكذلك عن المراكز العمرانية وأوضاعها وإمكانات النمو المستقبلية بها.

• تنمية المراكز العمرانية (الهجر والقرى والمدن)، وخاصة أنها مراكز عمرانية حدودية، وذلك من خلال توفير الخدمات بها ودعم الأنشطة المناسبة حسب الإمكانات المتوافرة، بما لا يؤثر على البيئة العذراء والطبيعة الساحرة. وبناء عليه، فلا بد أن يكون التطوير والتنمية في سياق ما يعرف بالتنمية المستدامة، أي التنمية التي تحقق احتياجات الحاضر دون الإضرار أو التضحية بمقدرات الأجيال القادمة.

• توفير المياه الصالحة للشرب في الهجر والمناطق السكنية.

• زيادة الوعي لدى أبناء البادية بأهمية المحافظة على البيئة وحمايتها من الرعي الجائر والتلوث.

• النظر في إمكانية جعل الربع الخالي منطقة إدارية ضمن المناطق الإدارية في المملكة وذلك لمساحته الشاسعة والتجانس في سماته الجغرافية والسكانية من جهة، والمسافة الطويلة بينه وبين منطقة نجران أو المنطقة الشرقية من جهة أخرى، وذلك تأييدًا لمقترحات سابقة بذلك.

• أتمنى لو نظمت الجامعات رحلات علمية للمناطق التي لم تنل نصيبًا من الدراسات من أجل تسليط الأضواء عليها وتشجيع الباحثين لدراستها.

في الختام، لا بد من القول إن الرحلة الاستكشافية العلمية للربع الخالي أثارت تساؤلات كثيرة في أذهان الباحثين، وحفزتهم لإجراء مزيد من الدراسات العلمية، وسلطت الأضواء على هذا الجزء الغالي من بلادنا. ■

المراجع

- الشايع. عبدالله محمد. في أرض البخور واللبان. الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٥هـ.
- الغنيم، عبدالله يوسف. أشكال سطح الأرض في شبه الجزيرة العربية في المصادر العربية القديمة. الكويت الجمعية الجغرافية الكويتية، ٢٠٠٥م.
- فيلبي، هاري سانت جون. الربع الخالي. الرياض: العبيكان، ٢٠٠١م.
- الوليعي، عبدالله ناصر. بحار الرمال في المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٤١٧هـ.

الصحراء..
المكان والإنسان واللسان

محمد الصاوي* - مصر

*كاتب مصري .

اللغة هي خزانة الوعي. ولقد تشكلت الذائقة اللغوية والحس الفني العربي من عناصر اللوحة الصحراوية؛ فلا غرابة أن تجد من بين دواوين الشعر المعاصر ما اختار له صاحبه عنوان «همس الصحراء»، أو «في ذاكرة الصحراء». واختار آخر عنوان «قصائد من الصحراء»، واختار ثالث «وحي الصحراء: صفحة من الأدب العصري في الحجاز»، مثلما آثر طاهر زمخشري أن يكتب «أغاريد الصحراء». ثم كتب سيف الرحبي «رجل من الربع الخالي».

وصارت الصحراء ينسب إليها - على سبيل التكريم - عيونُ الشعر العربي؛ فيقال لقصيدة الشنفرى المعروفة بلامية العرب إنها «نشيد الصحراء». ويوصف شعر المتنبي بأنه «نشيد الصحراء الخالد». ويطلق على شعر الراعي النميري أنه «صوت الصحراء» وذلك كله بطبيعة الحال في معرض التفخيم والتكريم.

ويُنسب أبطال العرب قديمًا وحديثًا إلى الصحراء: فيقال لعمر المختار رحمه الله «أسد الصحراء»، وللملك عبد العزيز رحمه الله «ابن سعود ملك الصحراء». ويصدر كتاب لتراجم عظماء العرب بعنوان «أعلام من الصحراء». وكتاب «أبطال من الصحراء». وفي فن الرواية كان للصحراء حضورها؛ فكان كتاب «الرواية العربية والصحراء»، ثم ترجمة بهاء طاهر لرواية «ساحر الصحراء» لباولو كويليو Paulo Coelho. فإن دل ذلك كله على شيء فإنما يدل على تغلغل الصحراء في الوجدان العربي منذ القدم، حتى إن عبدالوهاب عزام حين امتدح جهاد السنوسيين لم يسعه إلا أن يصف الصحراء:

سلاحهم عزيمة الجهاد
وقوتهم ما سلبوا الأعادي
يصابرون الأكبد الصوادي
ويأكلون الجوع في البوادي

فكلما أوغلت في عمق الصحراء رأيت اعتداد الناس بذواتهم، ورهافة شعورهم بالحرية، وكلما أوغلت في عمق الصحراء وجدت اللسان الأفصح والنقاء اللغوي.

يكتفي المعجم العربي بتعريف الصحراء بأنها «الفضاء الواسع لا نبات فيه»، وأضاف بعضهم: الجمع الصَّحارَى والصَّحارِي وصَحْراوَات.

وأبرز ما يستفاد من مادة «صحر» الاتساع والوضوح: فالمُصاحِرُ: الذي يقاتل قِرْنَه في الصَّحراء ولا يُخاتِلُه. تقول العرب: أَخبرَه بالأمر

صَحْرَةَ بَحْرَةَ. وصَحْرَةً بَحْرَةً أي قَبَلا لم يكن بينه وبينه أحد. وأبرز له ما في نفسه صَحَارًا: كأنه جاهره به جهارًا.

فإما أن تكون أخي بحقٍّ

فأعرفَ منك غثّي من سميني

وإلا فاطّرحني واتخذني

عدوًا، أتّقيك، وتتّقيني

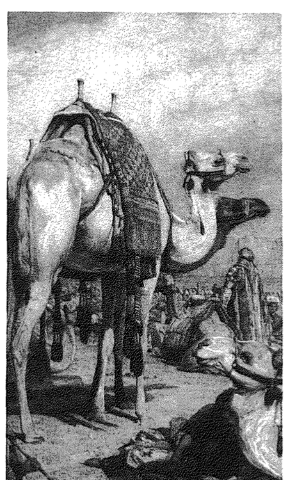
ومن زعم أن الصراحة والصحراء من معين واحد فما أبعد. والصَّرْحةُ: مَتْنٌ من الأرض مُسْتَوٍ. والصَّرْحةُ من الأرض: ما استوى وظهر؛ يقال: هم في صَرْحة المِرْبَد وصَرْحة الدار. وهو ما استوى وظهر. وفي شعر النميري:

كأنها، حينَ فاضَ الماءُ واخْتَلَفَتْ،

فَتْخاءُ، لاحَ لها، بالصَّرْحة، الذِّيبُ

وأَصْحَر المكانُ أي اتَّسع. وأَصْحَرَ القوم إذا برزوا إلى فضاء لا يُواريهم شيء.

والمعاجم الموسعة تشبع شيئًا من نهم البحاثة: فتضيف من أسماء الصحراء الجَبَّان والجَبَّانة



بالتشديد، وتسمى بهما المقابر: لأنها تكون في الصحراء؛ تسمية للشيء بموضعه، وكلُّ صحراءَ جَبَّانة.

ومن أسمائها الديسق، وهو الصحراء الواسعة، ويطلق على السراب إذا اشتد جريه في أعين الناظرين. وقد يقال للصحراء «الدَّشْتُ»، كما يقال لها الدوُّ، وهي الصَّحْراء التي لا نَبات بها. والدَّيْمومَة هي الصحراء البعيدة، وهي فَعْلُولة من الدَّوام، أي بعيدة الأرْجاء يَدُومُ السير فيها. والدَّياميمُ: المفاوزُ. ومفازة دَيْمومَةٌ أي دائمة البعد.

والسَّبْتاء من الأرض: كالصَّحْراء. وقيل: أرض سَبْتاء، لا شجر فيها. ويقال: أرض صَحاصِحُ وصَحْصَحانٌ: ليس بها شيء ولا شجر ولا قرار للماء. والصَّحْراءُ أشدُّ استواء منها.

والعرب تكني عن الصحراء بقولهم: «أُم عُبيد». وتكره العرب التصريح عن الهلاك: فتسمي البيداء «مفازة»: برغم أن البيداء سميت بذلك لأنها تبيد سالكها أو من يحل بها. وأصل البيداء والفلاة «المفازة المستوية يجري فيها الخيل». سميت الصحراء مفازَة لأن من خرج منها وقطعها فاز. والبيداء موضع مخصوص بين مكة والمدينة.

والصِّرْداحُ: المكانُ الصُّلْبُ: وقيل: الصِّرْدح المكان الواسع الأمْلَسُ المستوي: وقيل: الصِّرْداحُ الفلاة التي لا شيء فيها. الصَّرادحُ واحدتها صَرْدَحة، وهي الصحراء التي لا شجر بها ولا نبت، وهي غَلْظٌ من الأرض. قال الشاعر:

فإن تكن الأيام فينا تبدلت

ببؤس ونعمى والحوادث تفعل

فما لينتْ منا قناة صليبة

ولا ذلَّلتنا للتي ليس تجمل

والصحراء هي الفلاة. والفَلاة: القَفر من الأرض لأنها فُليت عن كل خير أي فُطمت وعُزلت. وقيل: هي التي لا ماء بها ولا أنيسَ. والفَيْفُ المَفازة التي لا ماء فيها مع الاستواء والسَّعة. وإذا أُنِّثَت فهي الفَيْفاة، وجمعها الفَيافي. والفيفاء: الصحراء المَلساء.

والمُهْرَق: الصحراء الملساء. والمَهارق: الصَّحاري، واحدها مُهْرَق، وهو معرب؛ قال

الأزهري: وإنما قيل للصحراء مُهْرق تشبيهًا بالصحيفة.

والمَوْماةُ: المَفازةُ الواسعة المَلْساء، وقيل: هي الفلاة التي لا ماءَ ولا أنيسَ بها، قال: وهي جماع أسماء الفَلَوات. والقَفْر مَفازة لا نبات بها ولا ماء. والقَفْرُ والقَفْرة: الخلاءُ من الأرض، وجمعه قِفارٌ وقُفُورٌ. والغائط هي الصحراء في قول امرئ القيس:

وغائط قد قطعت وحدي

للقلب من خوفه إجلال

والعرب تسمي الصحراء: «البرِّيَّة»، نسبت إلى البرِّ، والجمعُ البَراري. ويقال: «أفْصَحُ العرب أبَرُّهم». معناه: أبعدهم في البرِّ والبَدْو دارًا. وكانت العرب ترسل أبناءها إلى البادية لتصح أجسامهم وتفصح ألسنتهم. (كان علماء البصرة يفخرون على علماء الكوفة بقولهم: «نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع، وأنتم تأخذونها عن أكلة الشواريز والكواميخ»).

وكما هي الحال مع كثير من المصطلحات، لا يكتفي البحث بالتعريفات المعجمية: فالصحراء كلمة تطلق على بيئة تتسم بالجفاف والحرارة ونباتات وحيوانات تميزها.

وتقدر مساحة الصحاري بسُبع مساحة اليابسة. وربما ينظر إلى بعض المناطق القطبية الجرداء على أنها صحراوية، إلا أننا لا نعتبرها كذلك. ومعظم مساحة الصحراء تقع في إفريقيا (الصحراء الكبرى)، وجزيرة العرب (صحراء الدهناء؛ صحراء الربع الخالي؛ صحراء النفود الكبير)، وأستراليا، وصحراء نيفادا، وصحراء كلهاري، وصحراء جوبي ومنغوليا. ولكن ما يعنينا في المقام الأول هو الصحراء العربية.

يكاد يكون من المستحيل استيعاب «النص العربي» دون معرفة واسعة عميقة بمكونات الصحراء، وبتفاصيل الحياة فيها، وبما يتعارف عليه أهلها من أنظمة، وما يتخذونه من وسائل وأدوات، وما اعتادوه من عادات، وما امتلكوه من معارف. فبدون هذا الأساس المعرفي بحياة الصحراء يستحيل للمعلم اليوم أن يساعد الطلاب على بناء تصورات صحيحة عن أقوال من قبيل: «القشة التي قصمت ظهر البعير» أو «من استرعى الذئب ظلم» أو «لا في العير ولا في النفير» أو «رماه بثالثة الأثافي» أو «اختلط الحابل بالنابل» أو «أدلى بدلوه» أو «أهل مكة أدرى بشعابها» أو «أنْ تردَ الماءَ بماء أكيسُ».

وفي غيبة المعرفة المستوعبة للصحراء (الإنسان والمكان) لن يكون من السهل إدراك معاني آيات من التنزيل الحكيم، مما هو وثيق الصلة بحياة الصحراء:

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا. فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا. فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا. فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا. فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾.

وفي الوحي كلام عن الصحراء، وعن ما كان من صفتها وأحوالها: ففي التنزيل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾. وفي التنزيل أيضًا: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾. وفيه ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾. وفيه: ﴿رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾.

وأما في حالة الشعر القديم فالأمر أشد وضوحًا: فإنك لن تبلغ في الشعر أي مبلغ، ما لم تكن على دراية بأحوال الصحراء. بيد أن الأمر في عصرنا قد صار معكوسًا: فنحن نكتشف عالم الصحراء من خلال أشعار العرب. وهكذا صارت العلاقة ذات اتجاهين: شعر نفهمه في ضوء معطيات المنظومة الصحراوية، وصحراء نتعرف على ظواهرها وخفاياها ودخيلة أهلها من خلال التراث الشعري القديم. ومن شاء أن يتحقق مما أقول فليمنح نفسه فرصة اللقاء مع شيء من شعر ذي الرمة أو طرفة بن العبد أو عبيد بن الأبرص.

والحق أن الصحراءَ حاضرةٌ في لغة العرب وفي أشعارهم، من لدن امرئ القيس وحتى نزار قباني. (راجع: علي شلق، ١٩٩٨ «أثر البادية في الشعر العربي» منشورات جروس برس- لبنان).

والصحراء كما أراها هي منظومة المكان

والإنسان جميعًا؛ فقد تشكلت قيم ورؤى الإنسان غير منفصلة عن محيطه الحيوي، وعبرت عن ذلك كله لغته ومأثوراته. وأستعير هنا قول الجغرافيين عن الصحراء وابن الصحراء: «إن هذه الأرض بمثابة الأم له. لقد تخللت عظامه ونسيج لحمه، بل عقله وروحه». ومن قبل ذلك قال الشاعر:

وما الناس إلا كالديار وأهلها
بها يومَ حلّوها وغَدْوًا بَلاقعُ

وفي الصحراء «يقوّم الإنسان بإنسانيته لا بثروته، وبفضائله لا بصناعاته، وبأصغريه: قلبه ولسانه لا بأبهته وسلطانه». وقد أفصح الشاعر عن وحدة الإنسان والمكان والحيوان، إذ قال:

وحنّت قلوصي بعد وهن وهاجها
مع الشوق يومًا بالحجاز وميض
فقلت لـها لا تضجري إن منـزلاً
نأتني بـه هـند إلـيّ بغيض
دنـا منك تجـواب الفلاة فقلّصي
بمـا قـد طباك رعية وخفوض

وفرضت الصحراء على بنيها صحبة السباع والوحش في القفار:

وماءٍ كلون البول قد عاد آجنا
قليل به الأصوات في كلأ محل
لقيت عليه الذيب يعوي كأنه
خليع خلا من كل مال ومن أهل
فقلت له يا ذيب هل لك في أخ
يواسي بلا أثْرى عليك ولا بخل

ويقطع زهير الفيافي حتى يدنو من الذئاب وتدنو منه:

قطعت يماشيني بها متضائل
من الطلس أحيانًا يخب ويعسل

ويضرب الشنفرى في المفاوز الوعرة؛ حتى يصاحب الوعول:

ترود الأراوي الصحم حولي كأنها
عذارى عليهن الملاء المذيل

وأما المرقش الأكبر فيشرك معه ذئبًا في لحم الشواء:

نبذتُ إليه حزّةً من شوائنا
حياءً، وما فحشي على من أُجالسُ

أمثال هؤلاء الناس كيف يهابون الموت!!

لعمرك ما أدري وإني لواجلٌ
أفي اليوم إقدام المنية أو غدِ
فإن تك خلفي لا يفتها سواديا
وإن تك قدامي أجدْها بمرصد

من بين هؤلاء خرج الذين وصفهم الواصفون: (رأينا قومًا الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ليس لأحدهم في الدنيا رغبة أو نهمة، وإنما جلوسهم على التراب، وكلهم على ركبهم، وأميرهم كأنه واحد منهم، ما يعرف رقيقهم من وضيعهم، ولا السيد من العبد. وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد).

ولأنه ابن الصحراء معرّض دومًا لخطر داهم ومواجهة عنيفة، فقد وصف الحال:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي
بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

ومنحت الصحراء أهلها استهانة بزخرف الحياة؛ فيقول عَبيد:

إننـا إنمـا خُلقـنـا رؤوسًا



من يسوي الرؤوس بالأذناب

لا نتقي بالأحساب مالاً ولكن

نجعل المال جُـنة الأحساب

وبرغم كل شيء أحب العرب صحراءهم حبا واعيًا؛ حتى يقول الأصمعي:

ومن تكن الحضارة أعجبته

فأي رجال بادية ترانا؟!

الناقة والفرس والذئب والضبع والوعل والأسد والأتان هم شركاء الإنسان في الصحراء. وشركاؤه النسور والعقبان والغربان والقطا والحمام والحبارى والنعام. وشركاؤه الجبال والأحقاف والكثبان والأودية والعيون والآبار وأعشاب البر ونباتاته ونخيله. والصحراء علمت العربي حكمته الخالدة:

لعمرك ماضاقت بلاد بأهلها

ولكن أخلاق الرجال تضيق

أزعم أن «محمد أسد» – رحمه الله- هو خير من وصف الصحراء، بل خير من عشق الصحراء العربية في العصر الحديث. ويظل كتابه العبقري «الطريق إلى مكة» أنشودة عشق للصحراء: المكان والإنسان. ولقد قرأت هذا الكتاب الاستثنائي حتى اليوم إحدى عشرة مرة، فلم أزدد إلا رغبة في معاودة القراءة.

إن بعض الرحالة ذهبوا إلى الصحراء من أجل اكتشاف المسالك والممالك، لكن بعضهم نجح في أن يكتشف في الصحراء نفسه وحقيقة إنسانيته. من هؤلاء اثنان جمع بينهما معرفة اللغة العربية: محمد أسد (ليوبولد فايس)، ومبارك بن لندن (ويلفريد ثيسيجر Wilfred Thesiger). وكلاهما مات بعد أن تخطى التسعين من عمره (نحو مائة عام بالحساب القمري). بيد أن محمد أسد هو - بغير منازع- عاشق الصحراء والعرب والإسلام. وقد طوّف بصحراوات شتى: من أفغانستان إلى إيران إلى صحراء النفود الكبرى، إلى صحراء مصر الشرقية، وصحرائها الغربية، إلى برقة وجغبوب. لكنه يقرر: «كونت فكرتي الأولى عن العرب في صحراء سيناء». وفي الصحراء تحقق محمد أسد من حقيقية «التوازن السحري بين النفس البشرية وبين العالم المحيط بها».

وتجربة محمد أسد لا تشبهها - سوى تشابه سطحي - تجربة «إريك شميث» كاتب رواية «مسيو إبراهيم وزهور القرآن»، الذي قال: «دخلت الصحراء ملحدًا وخرجت منها مؤمنًا». فهل يفسر روحانيةَ الصحراء انتشارُ العديد من الأديرة في أعماق الصحاري؟ وهل يمكننا أن نقرأ قراءة مختلفة كلامَ الجاحظ في البخلاء، إذ قال:

«أي بني: لمَ صفت أذهان العرب؟ ولم صدقت أحساس العرب؟ ولم صححت أبدان الرهبان، مع طول الإقامة في الصوامع؟ وحتى لم تعرف النقرس، ولا وجع المفاصل، ولا الأورام، إلا لقلة الرزق من الطعام، وخفة الزاد، والتبلغ باليسير»؟. وهذا النص- ولو أنه قد سيق في معرض الكلام عن البخلاء- إلا أنه دال دلالة بينة على بعض شيم أهل البادية.

الهيام بالصحراء كان ومايزال شاغل ذوي المشاعر الرهيفة، والباحثين عن اللحظة البكر، والمشهد البكر، والنقاء النفسي. لقد باح أحد الرحالة بمشاعره فقال:

«تهب الرياح النقية المنعشة: حتى يخال الإنسان أن هذه الرياح الحلوة آتية رأسًا من السماء، لم تمسّها الأرض، ولم تمر على غبار». ويضيف صاحب كتاب «شريعة الصحراء»: «ولن يشعر بجمال الليل وهناء النوم إلا الذين ذاقوا لذة النوم فعلاً في هذا الخلاء المتسع، تحت قبة السماء المرصعة بالماس والجواهر البراقة من النجوم والكواكب». ومن قبل قال محمد أسد: «أستطيع أن أقول إنه ليس في العالَم خبز ألذ من خبز صُنع في البرّ». وقد ملكت محبة الصحراء عليه حياته، لدرجة أنه يذكر: «كلما أقمت بضعة أشهر في بلدة ما كالمدينة المنورة مثلاً، حيث لي زوجة عربية وطفل ومكتبة.. يستبد بي القلق، وأبدأ بالحنين إلى هواء الصحراء الجاف، إلى رائحة المطايا والشداد».

أجل! أبناء المدن الحديثة المزدحمة لديهم فجر لا يشبهه فجر الصحراء. ويعرفون غروبًا لا كالذي يعرفه أبناء الصحراء. ويدركهم ليل عاطل عن سحر ليالي الصحراء. وترنو أعينهم إلى قمر يتضاءل دون لآلاء قمر الصحراء. وتملأ صدورهم رياح أين منها بكارة رياح الصحراء.

ثم هم يتحدثون بكلام تنقصه فصاحة الألسن في الصحراء، ولهم عادات تتوارى خجلاً من سمو أخلاق ابن الصحراء. وإليكم حكاية من مفردات الحياة اليومية في البادية:

«أحضر مضيفونا لنا اللبن. نفخنا الرغوة جانبًا وشربنا بكثرة. ألحوا علينا أن نشرب أكثر قائلين: لن تجدوا اللبن في الصحراء أمامكم. اشربوا اشربوا. أنتم ضيوفنا. لقد جلبكم الله إلينا. اشربوا. شربت ثانية، برغم علمي أنهم سيبيتون جوعى وعطاشى ذلك الليل؛ لأنه لم يكن لديهم أي شيء آخر. لا طعام ولا ماء».

هكذا سجل قلم «ويلفريد ثيسيجر» (ت ٢٠٠٣) الرحالة الذي جاب صحراء الربع الخالي: «أفضل صفات العرب جاءت من الصحراء، ألا وهي إيمانهم العميق، الذي وجد تعبيره في الإسلام. وإحساسهم بالانتماء الذي يربطهم بأشخاص يعتنقون نفس الدين. واعتدادهم بجنسهم، وكرمهم وحسن ضيافتهم، وحرصهم على كرامة الآخرين، كإخوانهم في الإنسانية. وطيب معشرهم، وشجاعتهم وصبرهم. واللغة التي يتكلمونها. وحبهم الحماسي للشعر».

ويضيف: «تأملت في تأثير العرب على تاريخ العالم. بدا لي أنه شيء ذو مغزى أن عرب الصحراء هم الذين فرضوا خصائصهم على الجنس العربي. والتي انتشرت مع الفتح العربي. ومن ثم أسسوا إمبراطورية تزيد مساحتها عن مساحة إمبراطورية روما. وكانوا قد خرجوا من الصحراء متحدين بفضل دينهم الجديد».

أتراه تغلب على التحيزات المضادة بفضل السنوات الخمس التي قضاها مرتحلاً مع البدو في صحراء الربع الخالي. ما بين ١٩٤٥ إلى ١٩٥٠م؟ وهل أصاب حين خلص إلى أن الحياة كلما اخشوشنت كان المرء أسمى وأرفع؟

ربما كانت آية السمو الإنساني لديه قد تكشفت من خلال تمسك البدوي بالعفاف. يحكي: «كانت نقودي مودعة في الخرج في أكياس من الخيش، وكان الخرج مفكوكًا، وبرغم أن رفاقي كانوا فقراء إلى حد مدقع، فإن النقود ظلت آمنة في الخرج. كما لو كانت محفوظة في بنك. لقد عشت خمس سنوات مع البدو، ولم أفقد ألبتة مليمًا واحدًا، أو حتى رصاصة، برغم أن الرصاص بالنسبة لهم كان أكثر قيمة من المال». أليس من السخف أن توصف هذه الأمور بأنها «رومانسية»!

وعلى أشباه تلك الحوادث العارضة في حياة البدو يعلق رفعت الجوهري:

«من أكبر المعايب عند البدو أن يفرّ الرجل من القتال، أو يجبن عن نجدة رفيقه، أو يسرق مطمورة جاره. فمن فعل شيئًا من ذلك احتقروه، ورفضتْ البناتُ زواجه. وإذا دخل مجلسًا وُزِّعتْ فيه القهوةُ أو الشاي، يمد الساقي يده بالفنجان موهمًا أنه يقدمه إليه، حتى إذا مدّ يده لتناول الفنجان أراقه الساقي في الأرض؛ استخفافًا به واحتقارًا لشأنه؛ فينصرف عن المجلس من دون أن ينبس ببنت شفة. وفي غالب الأحيان يرحل إلى بلاد لا يعرف أحدٌ فيها بجنايته».

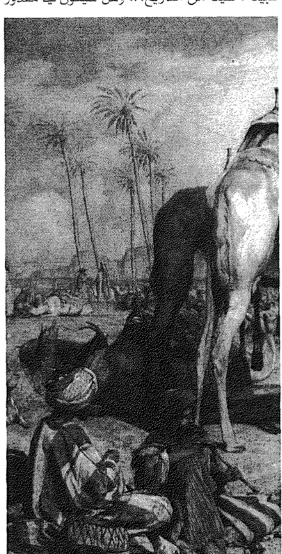
ربما لأجل أمور عاشها الرجل عن قرب. فقد عبرّ ثيسجر: «لا أستهجن الافتراض أنه في حالة انقراض الحضارات اليوم - كما حدث لبابل وأشور - فإن كتب التاريخ المدرسية ستخصص بعد ألفي سنة من الآن بعض الصفحات للعرب، دون إشارة حتى إلى الولايات المتحدة الأمريكية».

عبرْ سيناء في القطار سافر محمد أسد، ويحكي: «نهض البدوي الذي كان جالسًا قبالتي ببطء، وحل كوفيته، ثم فتح الشباك. فإذا به دقيق الوجه أسمر اللون. واحد من تلك الوجوه الصقرية التي تتطلع دائمًا إلى الأمام بعمد وتصميم. لقد ابتاع قطعة من الكعك ثم استدار، وكان على وشك الجلوس عندما وقعت عيناه عليَّ، ودون أن ينطق بكلمة، قسم كعكته نصفين وقدم إليّ أحدهما. وعندما رأى ترددي ودهشتي، ابتسم ورأيت أن الابتسامة اللطيفة التي كانت تلائم وجهه، كذلك التصميم الذي بدا عليه منذ لحظة- وقال كلمة لم أفهمها عندئذ (سنة ١٩٢٢م) ولكنني أعرفها الآن: تفضَّل. وعندما أفكر الآن بذلك الحادث البسيط، يخيل إلّي أن حبي كله للخلق العربي فيما بعد قد تأثر به. ذلك أن في بادرة هذا البدوي - الذي شعر، رغم جميع حواجز الغربة، بصداقة رفيق عابر له في السفر فقاسمه الخبز- نفحةً من الإنسانية،

أحسست بها خالية من أي تصنع أو تكلف».

ترى هل بقيت الصحراء بكرًا؟ الجواب يحزّ في النفس ويؤذيها ويجرح شفافيتها: «إذا ما أدخلت الحياة الحديثة إلى مجتمعهم، فإنهم عرضة لأن يتخلوا عن كل هذه القيم، ويصبحوا بروليتاريا طفيلية تجلس القرفصاء حول حقول النفط، في القذارة العفنة لمدن الأكواخ». هذا عن إنسان الصحراء، فماذا عن الصحراء المكان؟

لقد عوملت الصحراء دهرًا على أنها مكب لنفايات النشاط الصناعي للجشع الرأسمالي. والأخطر من ذلك أن اتخذتها قوى الشر والاستكبار مسرحًا للتجارب والتفجيرات النووية. فهل الاعتياد على طنين الهاتف المحمول وإدمان الإنترنت وسيارات الدفع الرباعي سيجعل عشقنا للبيداء شيئًا من التاريخ؟!! وهل سيكون في مقدور



أمثال الدكتور مصطفى محمود أن يستمتعوا بتجربة «مغامرة في الصحراء»؟!! وهل حقًا كما قال محمد أسد عن الصحراء «تلاشت بساطتها العظيمة، كما تلاشى معها الكثير مما كان نسيج وحده في عالم الإنسان»؟

إن الصحراء ليست هي المكان فحسب، إنها منظومة المكان والإنسان. يستطيع المرء أن يمر بتجربة في صحراء المكسيك أو زيمباوي أو طاجيكستان، لكن أين هذا من الصحراء العربية: الإبل والقهوة والأشعار والكرم والكرامة؟ ليت الصحراء دامت لنا.

من الرحالة من كتبوا زورًا عن العرب وصحرائهم، أو بالأحرى كتبوا عن العرب أسوأ ما عرفوا؛ فأسهموا في بلورة (شرق) متخيل بعيد كل البعد عن الواقع. من هؤلاء أوجين فرومانتان Eugène Fromentin مؤلف «صيف في الصحراء» و«عام في الساحل» سنة ١٨٥٩ م.

مما قال عن عرب الصحراء الجزائرية: «لا (يحبذ) العربي أن يبدي للناس مسكنه، ولا يحبذ كذلك أن يعطيك بسهولة اسمه، ولا يتكلم أصلاً عن أعماله، ولا يروي لك بتاتًا أهداف أسفاره وطبيعة تجارته. يشك في كل تطفل يطاله، لهذا فهو يبني داره بطريقة متوارية عن الأنظار، كما في الكمين الحربي، حيث يمكننا أن نتربص بالآخر دون أن يرانا... كل تقاليد العربي البدوي منوطة بهذا النظام المطلق الذي لا يخرج من الحذر والتجسس. ولو تعمقنا أكثر في الطريقة التي يحافظ بها على أملاكه، فإننا لا نفهمها إلا إذا وضعنا نصب أعيننا هذا الإحساس العام بالاحتراس. إن العربي البدوي، لا يرتاح إلا إذا كان ماله رهن يديه. ولو عاش لحظات الاستقرار؛ لأنه يفضل دائما الثروة المتنقلة (الأغنام): لا يستطيع أحد تعيينها، ويتسنى تحويلها بسهولة، ولا يصعب إنكارها، أو طمرها. على العكس من ذلك، فإن الأرض تقلقه، وكل امتلاك عقاري يبدو له غير آمن أو عرضة للخطر».

لكن المؤلف نفسه يتخبط في وصف العرب، فيذكر ما نراه نحن من المحاسن في سياق الذم!!. يذكر لصديقه: «لو تتذكر ياصديقي مقال

الضيافة الذي كتبه الجنرال دوماس في كتابه الصحراء الكبيرة، لعرفت بأن أخلاق العرب تجعل من إطعام الغير والأكل مع الغير فعلاً جديرًا بالاهتمام، وتجعل من الضيافة درسًا كبيرًا في التعلم والحياة، ولاحظ بأن هذا الأمر لا ينبع من فضائل اجتماعية. لأن هذا الأمر معدوم تمامًا عند هذه الأمة اللااجتماعية، لأنه ينبع من فضائل جد دينية. وكي نتكلم مثلهم، فإن الضيف يعد (مرسول) الله للذي يشرف على عملية الإكرام. إن أدبهم لا يرتكز على تواضعات اجتماعية، ولكن يرتكز على مبادئ دينية صرف».

وفي موضع آخر يتعجب فرامونتين من أنه وجد النساء في الجنوب الجزائري، وبالأخص في منطقة عين المهدي، يذهبن للمساجد دون تحرج، عكس نساء الشمال الجزائري!!!

وأنى لأمثال أولئك الجواسيس الحمقى أن يستوعبوا مقالة العربي:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وللبداوة حسن غير مجلوب

إن الكرماء من بين الخلائق كثيرون، لكنا لا نعلم جماعة من الناس يتسابقون إلى إكرام الضيف، كلٌ يريد أن ينال شرف إطعام الضيف، وربما استضافوه مناوبةً، فإذا اختلفوا رفعوا الأمر إلى كبيرهم، وحكمه نافذ.

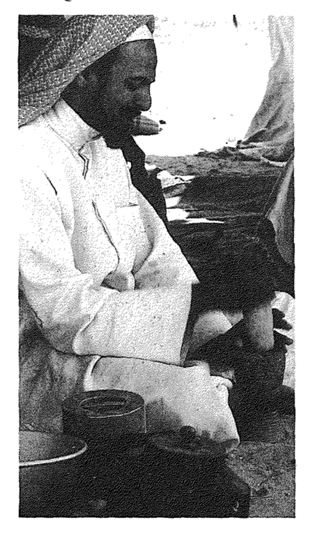
ومن المبالغة في إكرام الضيف يقدمون له الذبيحة غير منقوصة، حتى إن الرأس ليوضع على (المنسف). وجرى العرف على أن من حق المضيف أن يأخذ من غنم جاره ليذبحه للضيف على أن يرد له مثلها في مدة أربعة عشر يومًا. ومن عادة المضيف أن يلطخ رقبة جمل ضيفه بدم الذبيحة؛ حتى إذا ما جاء أحد يطلب ما أخذ منه، لا يقرب هذه الجمل: احترامًا للضيافة.

برغم قسوة الطبيعة الصحراوية إلا أن الله شاء أن يجعل الكثير من مناطق الصحراء غنية بالملح واليورانيوم والنفط والغاز الطبيعي. وفي وسط الصحراء تنبت الواحات كابتسامات على وجه الرمال، ولولا الصحراء ما كانت الواحة. لذلك كانت الواحات توصف بأنها «جزر الرحمة وجنات الصحراء». (يُقَدَّر عدد الواحات الكبرى في الصحراء الكبرى بنحو تسعين واحة، في بعضها عيون للماء أكثر عذوبة من أية مياه معروفة، كما أن لبعضها خصائص علاجية). فهل استفاد عرب اليوم من كنوز الصحاري؟

وإن تعجب فعجبي أشد من موقف الحكومات العربية من البحوث الناجحة للدكتور أحمد مستجير (أستاذ الوراثة بزراعة القاهرة) والدكتور أسامة الشيحي (أستاذ البيوتكنولوجيا بزراعة القاهرة).

لقد أجاب الرجلان إجابة علمية ميدانية موثقة بالنتائج الملموسة عن السؤال: «هل يمكن زراعة الأرز والقمح والذرة بماء مالح أو بماء البحر في أرض قاحلة مالحة صحراوية؟». لقد تحقق الحلم بما لا يدع مجالاً للانتظار أوالتنطع.

أجل نجحت زراعة القمح والأرز بمياه مالحة في أرض قفر، ولم تكن الحبوب مالحة المذاق قط. وأثمرت المساحة المزروعة محصولاً يطمح إليه كل



مزارع في الأراضي الخصبة.

في كل عام، وعلى مدى السنوات الخمس الماضية، أشرح لطلابي مشروع أحمد مستجير، ونجاحه الكبير، وأهميته لسكان الوطن العربي. وفي كل مرة يقذفني طلابي بالسؤال الذي أتوقعه بالضرورة: «وماذا بعد»؟

أما الجواب الذي لم أقله لهم فهو: «سيستفيد العدو من جهود علمائنا، وسيزرع أعداؤنا الصحراء التي اغتصبوها منا. وربما نتسول منهم بعض المعونات، أو القروض، أو اتفاقيات النفط في مقابل الغذاء: القمح المزروع في صحرائنا بمياه بحارنا وبعقول علمائنا وبسواعد ملايين العاطلين لدينا».

لقد كان الجيل السابق أوسع أفقًا وأظهر إخلاصًا للبلاد بصورة لا تقارن؛ فلقد فكر الملك فؤاد عام ١٩٣٩ في إنشاء معهد بحوث الصحراء. كان سابقًا لعصره، حتى قبل نكبة فلسطين. ونقل مركز بحوث الصحراء إلى سيناء هي الخطوة الأولى في طريق المليون ميل، من أجل صيانة ما تبقى لدينا مما يستحق الصيانة: فسيناء للوهلة الأولى تعني لرجل الشارع في مصر «العروبة»؛ فهي بوابة مصر إلى المشرق العربي، وهي بوابة الفتح العربي لمصر وإفريقية. وسيناء في الذهنية الجماعية لمصر تعني «الشهداء» والأبطال والتضحيات، وتعني «غُصّة» الاحتلال، وبارق الانتصار. وسيناء في الفكر العسكري هي الطريق الذي شهد قدوم الغزاة إلى وادي النيل عبر العصور، منذ قمبيز الفارسي، إلى الهكسوس إلى اليونانيين إلى الصليبيين إلى العثمانيين إلى عصابات الإرهاب الصهيونية.

وسيناء هي التاريخ الأكثر أصالة للعرب والمسلمين؛ فهي معبر الخليل إبراهيم عليه السلام. وسيناء هي معبر موسى النبي عليه السلام، ومعبر يوسف ويعقوب عليهما السلام. وهي معبر السيد المسيح وأمه عليهما السلام. وهي معبر الفاتحين العظام: عمرو بن العاص، والزبير بن العوام وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود ومسلمة بن مخلد (الأربعة الذين كتب عنهم عمر بن الخطاب: لقد أمددتك بأربعة آلاف وعلى رأس كل ألف منهم رجل بألف رجل). وهي معبر صلاح الدين الأيوبي وجنده المنتصرين سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م). ثم هي معبر نابليون وجنده الهالكين سنة ١٧٩٨م.

سيناء ساحة قتال منذ ستة آلاف سنة: فقد عبرها على مدى التاريخ ٤٦ جيشًا. حتى قال القائل: «لو أن الأرض التي تشرب الدماء الساخنة تستطيع أن تنبت الدماء رجالًا، لأصبحت سيناء غابة من الرجال» (لم يحسب الفرنسيون حسابًا للمسافة الصحراوية الطويلة التي سيقطعونها في صحراء سيناء؛ حتى إن عددًا من جنود كليبر « أقدموا على الانتحار» بسبب ما لاقوه من طول المسافة ووعورتها حتى العريش).

وبسبب طبيعتها وعزلتها أصبحت ذرا سيناء الجنوبية ووديانها ملجأ ومهربًا من كل جبار عنيد، خاصة في عهد الرومان الذي ساموا المصريين سوء العذاب قبل أن ينقذ الله مصر وأهلها بالفتح الإسلامي. وبالإسلام صارت سيناء هي طريق الحج لأهل مصر وإفريقية: فكل خطوة فيها عبادة.

مساحة سيناء تبلغ ثلاثة أضعاف مساحة دلتا النيل. وسيناء أرض المعادن الدفينة ومناجم الذهب، وهي أرض الرمال التي يصنع منها الزجاج الفاخر. وفيها يجتمع القيظ والجليد. وأهل سيناء هم أسياد الرمال: فأبناء البادية هم وحدهم امتزجوا بسيناء المكان، وتعاملوا معه؛ لأنهم أتقنوا أبجدية المكان ودروبه وأمطاره ورياحه ونجومه وقمره.

ورد ذكر سيناء في القرآن الكريم بالتصريح أو بالإشارة في المواضع الآتية: البقرة ٦٣، والنساء ١٥٤، ومريم ٥٢، وطه ٩: ١٤، وطه ٨٠/٨١، والقصص٤٦، والمؤمنون ١٩/٢٠، والطور ١: ٨، والتين ١: ٤

وفي حدود القرائن المتاحة لي أميل إلى الرأي القائل إن أحدًا لا يستطيع أن يثبت بالوثائق أو الدلائل القوية: أين ناجى موسى ربه، وأين خرّ له الجبل دكًا، وأين توجد أرض التيه.

قبل نصف قرن استطاع الجيولوجي «درويش مصطفى الفار» ابن سيناء أن يحصي ألَف كتاب عن سيناء، ما بين تاريخي وجغرافي وجيولوجي. ودرويش مصطفى هو مكتشف فحم «المغارة» في

شمال سيناء، والذي قدرت احتياطياته بثلاثين مليون طن.

إن معظم ما كتب عن سيناء قد كتب بلغات أجنبية. وأما الكتب العربية القليلة فأبرزها - وربما أهمها- هي ما كتبه «نعوم شقير»، وما كتبه «جمال حمدان».

إن سيناء هي أرض الحذر الدائم من الطمع الشرير: فلقد أظهرت بعض الخرائط دولة صهيونية تمتد من الجولان إلى قناة السويس. واغتصاب الأوطان يبدأ غالبًا بمجموعة من الأكاذيب التي تمهد للقوة الباطشة. تبدأ الأكذوبة بأن سيناء هي خلاء من البشر ومن كل شيء ذي قيمة، وأنها لذلك تستحق أن يستولي عليها من يعمرها، ويحول القفر إلى جنة.

يشعر ابن البادية – وبخاصة في مصر – أنه مغبون؛ لأنه في أحيان كثيرة متهم!! وإن لم تكن له تهمة واضحة. وابن البادية هو الطريدة المفضلة لحرس الحدود وشرطة المخدرات. وتقليديًا ينظر إلى ابن الصحراء على أن ولاءه للحكومة المركزية واه. وهو من جهته يرى نفسه على هامش الدولة ثقافيًا وتربويًا وإعلاميًا.

وربما كانت سيناء هي الجزء الأكثر عروبة من مصر. سواء من ناحية الأنساب العربية، أو من ناحية الزي العربي التقليدي (الثوب الأبيض والعقال والغترة). أو من حيث إنها أول من استقبل الفاتحين والهجرات العربية إلى مصر وإفريقيا.

فمن قبائل شمال سيناء: السواركة، والرميلات، والبياضية، والأخارسة، والسماعنة، والقطاطوة، والعقايلة، والدواغرة (فرع من مطير)، والعلوية (أولاد علي)، والرياشات، والملالحة. والعيايدة، والسعديين، وقبيلة بلي، وقبيلة المساعيد، وعشيرة اللفيتات (فرع من قبيلة مساعيد فلسطين وهم أبناء عم مساعيد سيناء والشرقية)، وقبيلة العكور، وقبيلة الجبالية (فرع من قبيلة الجبالية في بلاد الطور)، وعشائر الصقور، والحجوج، والخدايجة، وعشيرة بني عجلان.

ومن قبائل وسط سيناء: قبيلة التياها (من فروع بني هلال)، والترابين(من فروع البقوم)، والحويطات، والبدارة، والأحيوات، وعشيرة الفراعية، وعشيرة الجراجرة(فرع من قبيلة المساعيد)، وعشيرة الفوايدة (فرع من قبيلة جهينة)، والعزازمة، وعشيرة العرينات، وقبيلة العلاوين.

وأما قبائل جنوب سيناء فهم: قبيلة العليقات، والصوالحة، وأولاد سعيد (فرع من قبيلة جهينة)، والقرارشة (فرع من قبيلة قريش)، وقبيلة مزينة (فرع من قبيلة مزينة في الحجاز)، وقبيلة النفيعات، والجبالية، والحماضة (فرع من بني تميم)، وبنو واصل(فرع من بني عقبة)، وقبيلة بني سليمان (فرع من المساعيد)، وقبيلة التبنة، وقبيلة المواطرة.

فمن لم يدقق أو لم تكن لديه دراية كافية عن ساكني الصحراء، فلن يميز بين بدو نجد وبدو الأردن وبدو مطروح وبدو العريش والطوارق وبدو موريتانيا. إن الآلاف من أبناء القبائل العربية نزحوا من جزيرة العرب إلى مناطق مختلفة من مصر، واستقروا بها. واليوم يعيشون حياة الفلاحين ويقتنون مثل بهائمهم، ويلبسون ثيابهم. وانطلقت قبائل عربية إلى السودان والسلوم وبرقة والكفرة وبلاد شنقيط (موريتانيا) وتمبكتو (مالي). ومعلوم أن قبائل من العرب نزحت إلى سيناء بعد الفتح الإسلامي، وهذا ثابت وموثق، لكن مراجع تذكر أن أفخاذًا من قبائل بلى وجهينة عاشت في صعيد مصر قبل الإسلام بستة قرون، وأن منازلها كانت في الصحراء الشرقية بين (القُصير) على البحر الأحمر و(قنا) على النيل. وأنها كانت تقوم على التجارة من البحر إلى وادي النيل.

وسيناء أرض العزلة والعبادة وربما الرهبنة. يروي التاريخ أن الإمبراطورة القديسة هيلانة (سانت هيلين ٢٤٨-٣٢٨م) قد انفصلت بالطلاق لأسباب سياسية عن الإمبراطور البيزنطي الأول قسطنطينوس، الذي تزوج بدلاً منها تيودورا الفاتنة ربيبة الإمبراطور الروماني مكسيميان. وعندما أصبح قسطنطين الأكبر ابن هيلانة إمبراطورًا سنة ٣٠٦م تلقبت هيلانة بلقب الإمبراطورة الأم واعتنقت النصرانية.

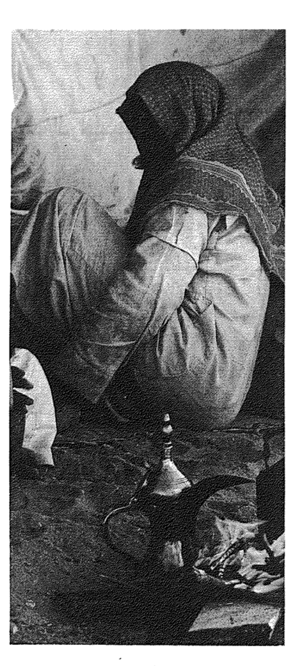
ثم حدث لهيلانة ما لم يكن في الحسبان إذ ادّعت «فاوستا» زوجة ابنها الثاني أن «كرسبوس قيصر» حفيد هيلانة قد راودها عن نفسها، فلم يكن هناك مفر من إعدامه شنقًا على رؤوس الأشهاد سنة ٣٢٦م. ولم تطق هيلانة صبرًا على ما جرى لحفيدها، فدبرت لتيودورا مكيدة وقادتها إلى حبل المشنقة، ظنًا منها أن ذلك سوف يشفي غليلها.

ولكن هيلانة الإمبراطورية الأم أصيبت بعد تلك الأحداث بحزن عميق، أدى بها إلى التصوف؛ فأصبحت من المجاذيب. ونصحها الناصحون بالتوجه إلى الأرض المقدسة، فلسطين، للسلوى والنسيان، بالبحث في آثار التوراة والإنجيل. ولقيها هنالك من الأحبار والرهبان من قرأ عليها خبرًا من كتابات المؤرخ «ديودور الصقلي» (سنة ١٠ ق م) نقله عن «أرتميدوروس» (سنة ١١٠ ق.م) وعن «أغاثارشيدس» (سنة ١٦٠ ق.م) يفيد بأن هنالك نقوشًا وكتابات على الصخور قرب «الطور» غير معروفة الأصل. فظنت الإمبراطورة تحت تأثير الانجذاب الذي يغمرها، أن تلك النقوش المجهولة لا بد وأن تكون نقوش أصحاب موسى، عليه السلام، في أثناء التيه، فشدت الرحال إلى ربوع وادي «المكَتَّب» على وزن «المقطّم».. ومنذ تلك الرحلة التي قامت بها الإمبراطورة المجذوبة شاعت فكرة نسبة تلك النقوش السينائية إلى تيه أصحاب موسى بن عمران عليه السلام.. وهذا ما ثبت خطؤه فيما بعد من القرون.

وأشار إليها «كونل» سنة ١٨٠٠م إشارة عابرة لا تشفي غليلاً في مقالته «ثمانية وعشرون يومًا في سيناء» التي وردت في كتاب الحملة الفرنسية الشهير «وصف مصر».

وبدأ القول العلمي الفصل في أمر نقوش سيناء على يد الباحث المحقق السير «وليام فلندرز بيتري» سنة ١٩٠٦م في كتابه «أبحاث في سيناء» حيث أثبت أن هذه النقوش لا علاقة لها بالتيه ولا بخرافات بني إسرائيل، وأنها ترجع إلى حوالي سنة ١٥٠٠ق.م.

ومنذ أن تكلم العلامة بيتري عن النقوش السينائية، دخل أمرها في حقبة جديدة بين



أيدي العلماء.. فقال «ألان جاردنر» سنة ١٩١٦م إن حروف سيناء هي أصل الحروف الكنعانية (الفينيقية) وذلك في مقال شهير نشره في صحيفة «الأركيولوجيا المصرية» (العدد الثالث) (راجع: درويش مصطفى الفار مجلة الأمة، العدد ٤٦، شوال ١٤٠٤ هـ).

ومهما يكن من شأن النقوش هنا وهناك فإن الواجب الأوجب الآن هو (ضخ) بضعة ملايين من ذوي الإرادة، ليعمروا كل زاوية وكل ثنية وكل كثيب وكل واد في أرض طور سينين. وليذهب إلى الجحيم أي كلام عن منطقة (أ)، و(ب)، و(ج)، و(د). والله غالب على أمره■



بين الرافدين وجزيرة العرب

التفاعل بين الصحراء والماء

محمد الدعمي* - العراق

* أستاذ جامعي.

لا يمكن لأي ناظر فطن، وهو يتفرس خريطة الشرق الأوسط، إلا أن يلاحظ استثنائية موقع وادي الرافدين الأخضر. أما إذا ما توفرت أمامه صورة من الأقمار الصناعية للإقليم، فإنه سيلاحظ ذلك التخصر الأخضر اللون الممتد طوليًا من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي ليصب في الخليج، حيث يمتد حوض النهرين العظيمين، دجلة والفرات. هذا الشكل الجغرافي الطبيعي هو المسؤول عن العديد من الظواهر التاريخية والاجتماعية والسكانية للسهل العملاق الذي نسميه العراق. بيد أن الأهم من هذه الأبعاد الجغرافية التشكيلية هي حقيقة حاسمة في ماضي وحاضر هذا البلد؛ وهي أن تاريخ هذا البلد إنما هو في جوهره تاريخ الصراع بين الماء والصحراء، بين الاستقرار والبداوة.

لا تخفق أية نظرة شمولية من هذا النوع في استمكان وادي الرافدين الخصيب محصورًا بين كتلتين كبيرتين مقفرتين: فإلى الشرق والشمال من هذا الوادي تمتد جبال وهضاب صخرية كأداء (الهضبة الإيرانية وهضبة الأناضول)، أما إلى الشرق والجنوب منه، فتترامى واحدة من أكبر الصحاري على وجه الأرض، بعد الصحراء الإفريقية الكبرى، حيث الخزين الأول والأقدم للبداوة التي أدت دورًا مهمًا في تشكيل تاريخ بلاد الرافدين والمنطقة عمومًا عبر الهجرات والغزوات السامية المبكرة التي شهدها تاريخ الإقليم. ولا تقل أهمية عن ذلك، تلك الهجرات والغزوات التي أتت من الهضاب العملاقة المقفرة (إلا من وديان ضيقة) التي تؤطر الوادي الخصيب من الشمال ومن الشرق عبر جدران جبلية صخرية (سلسلتي جبال زاكروس وحصاروست). هذه الهضاب اليباب الممتدة خلف الحواجز الجبلية إنما تمثل شكلاً من أشكال الصحراء، ليس بالمعنى العربي المعروف (لاحظ أن الكتابات الغربية الوسيطة كانت تطلق لفظ ساراسين Saracen على العرب، نسبة إلى لفظ صحراء)، ولكن بمعنى الوعورة والندرة والقحط وصعوبة رفع المياه مع ما يرافق ذلك من شظف العيش.

لقد تشكل تاريخ وادي الرافدين في جوهره من حقائق هذا الجوار المعقد منذ أقدم العصور: فهنا لدينا منخفض مسطح عظيم الخصوبة، غير متموج، يمخره اثنان من أغزر أنهار العالم، لا يحتاج الإنسان معهما إلى الكثير من الجهد لرفع المياه لسقاية بساتينه ودوابه، الأمر الذي يفسر حدوث أهم الانعطافات في التاريخ البشري عبر هذا الوادي الغني، حيث انتقل الإنسان من مرحلة جمع القوت إلى مرحلة إنتاج القوت، مكتشفًا الزراعة المستقرة وبانيًا أول قرية وأول مدينة، مقيمًا أوائل الحكومات في تاريخ الحضارة (لاحظ أن مسلة حمورابي البابلية، وقبلها مسلات سومرية وأكدية أقدم، شكلت أولى القوانين والتشريعات في التاريخ). لذا كان هذا الوادي مآل أعين وطموحات الأقوام الساكنة في الصحاري المحيطة به بأنواعها، الأمر الذي يفسر حقيقة أخرى تفيد بأن تاريخ العراق هو كذلك تاريخ الغزوات والهجرات التي حدثت عبر القرون: منطلقة من خزائن الصحاري إلى الماء الحلو الغزير الجاري عبر هذا البلد.

ربما كانت الهجرات السامية العربية الكبيرة من شبه جزيرة العرب هي الأكثر أهمية في تشكيل

شخصية سكان بلاد الرافدين وفي تحديد مسارات ماضيهم، إذ وجدت الأقوام الصحراوية القديمة مرامها على هذه الأرض الخصبة، فأطلقوا عليها التسمية الشهيرة بـ«أرض السواد»، كناية عن الغلاف الأخضر الذي يغطيها والذي يبدو غطاءً أسود للأرض أمام رجل البادية القادم من الغرب والجنوب الغربي حيث يطغى اللون الأصفر أو البني الصحراوي. لقد فعلت هجرات الأقوام السامية من البوادي الشرقية والجنوبية فعلها في تشكيل البنية الأساس لأبناء الرافدين اليوم، إذ تنتمي الغالبية العظمى منهم إلى العرب عنصرًا، وإلى العروبة والإسلام حضارة وإرثًا ثقافيًا، فازدهرت عبر هذا التخصر الأخضر النادر المحصور بين دجلة والفرات عاصمة الثقافة العربية عبر القرون الوسطى، بغداد، بشخصية عربية: متفتحة متسامحة، لا شوفينية ولا طائفية.

وعودة إلى الهجرات الأولى من الصحراء العربية إلى سهل الرافدين، نلاحظ أن الإنسان البدوي الذي جاء إلى أرض الفراتين كان إنسانًا يمتاز برشاقة البدن وبخفة الحركة والنحافة والذكاء الصحراوي الحاد، كما يتفرد بتفوقه في الفنون اللفظية (كالشعر والحكمة والحكاية)، زيادة على براعته في هز السيف واستعمال الأسلحة وفي رباطة الجأش والقدرة على الكر والفر. عندما ذهب الإنسان الصحراوي المرتحل إلى العراق وحقق انتصارات سريعة على السكان الأصليين القدماء، الحضريين والمزارعين، وجد نفسه أمام مأزق تاريخي يتوجب عليه الخروج منه، إذا ما أراد الاستقرار في هذه الأرض الخضراء المعطاء والتمتع بثرواتها، فكان عليه أن يغادر «فنون البادية» ليباشر «فنون المدينة» والقرية: أن يتعلم الاستقرار والزراعة ويترك الارتحال الدائم، أن يتقن عملية شواء الطين لصناعة لُبنات البناء والعمارة، إذ يطوي خيمته إلى الأبد.

لقد كان الأمر صعبًا بالنسبة للأقوام العربية المتوثبة للاستقرار والرخاء، لذا فإنهم عمدوا لبناء أوائل مستقراتهم الحضرية على نحو نصف صحراوي، بشكل يترجم تراث الصحراء وأعباء تقاليدها، زيادة على التأكد من أن تكون المستقرات العربية الأولى في نقاط محاددة للصحراء العربية



الكبرى الممتدة جنوبًا إلى الربع الخالي ثم إلى سلاسل جبال حضرموت وعمان. هنا ظهرت المراكز المدينية الأولى على الفرات الذي يعد، من ناحية الجغرافيا الطبيعية، حدًا شماليًا لجزيرة العرب: بمعنى أن عرب الرافدين الأوائل كانوا يعانون شرخًا نفسيًا بين تراث صحراوي بدوي لا يقبل أن يموت، من ناحية، وبين حاضر مستقر في بلاد الزهور والبساتين والجنائن المعلقة، من الناحية الثانية. لذا ظهرت الحركة السريعة بين الصحراء والفرات كي تعبر عن آليات الكر والفر. فعندما تهاجم الإمبراطوريات الجبلية القديمة (من الشرق والشمال) مدن العرب على الفرات، يستثمر العرب مدنهم للانطلاق منها إلى الصحراء حماية لأنفسهم، إذ لا يمكن لجيوش الإمبراطوريات المترفة (بخاصة الرومية والفارسية) سبر أغوار البوادي الموحشة؛ وعندما يهاجم عرب العراق الأوائل ثغور هذه الإمبراطوريات فإنهم يعمدون إلى الحفاظ على تقاليدهم الصحراوية القديمة. لذا كانت المدن العربية الأولى في العراق مدنًا أشبه ما تكون بمرابع أو مرايا للصحراء العربية. لاحظ مدينة الحيرة قرب النجف، لاحظ كذلك بناء مدينتي الكوفة والبصرة على أيام الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب (رضي الله عنه). البنية البدوية الصحراوية لهاتين المدينتين تتشكل من بؤرة بيت الوالي والمسجد الجامع (في المركز) حيث تحيط بهما أحياء مقسمة على أساس القبائل الصحراوية العربية التي تقطنها. فهنا تسكن تميم وهناك تسكن كندة، هنا يسكن بنو أسد، وهناك يسكن الخزرج، وهكذا. هذه كانت معطيات آخر الهجرات العربية من الصحراء إلى وادي الرافدين مع الفتوحات الإسلامية المبكرة. هذا، بكل دقة، ما مهد الطريق لتفوق الثقافة العربية الإسلامية في هذه المدن مقارنة بسواها من المناطق (باستثناء مكة والمدينة، بطبيعة الحال)، نظرًا للاختلاط النادر بين ثقافة الصحراء وثقافة الماء، وبسبب الاختلاف بين شظف العيش وبين الوفرة والكثرة، الأمر الذي يلقي الضوء على منجزات حواضر الكوفة والبصرة، حيث ظهرت فيهما أوائل مدارس التفسير والحديث والسنة، بينما احتكرت المدينتان

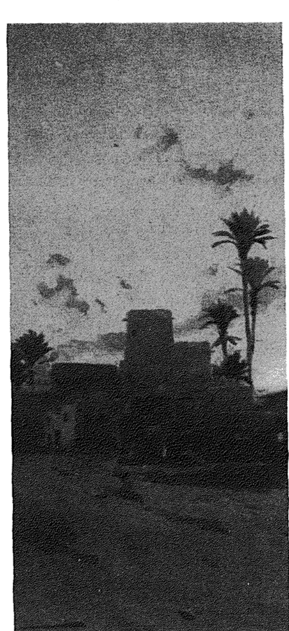
عرب الرافدين الأوائل كانوا يعانون شرخًا نفسيًا بين تراث صحراوي بدوي لا يقبل أن يموت، من ناحية، وبين حاضر مستقر في بلاد الزهور والبساتين والجنائن المعلقة، من الناحية الثانية

أهم مدارس النحو وفقه اللغة، بين مدرستيهما. كان هذا جزءًا مهمًا من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية التي لم تزل تنوء تحت أعبائها القديمة في عالم متغير زاخر بالجديد.

لقد كانت بلاد الرافدين تعني بلاد الماء بالنسبة للعقل البدوي؛ لذا فإن الإنسان العربي الذي استقر في العراق منذ أقدم العصور كان قد واجه معضلة عصية على التعامل، وهي: تحوير طرائق تفكيره وتحرير نفسه من الأنماط العتيقة وصعبة المراس لحياته في الصحراء. كان عليه أن يواجه مشكلات ومعضلات من نوع آخر، لم يألفه من ذي قبل. لقد اكتشفت هذه الأقوام التي استقرت في العراق كثرة الماء فيه، فزيادة على النهرين الكبيرين وروافدهما، وجد هؤلاء الجنوب العراقي (حيث مستقرهم الأول) مغطى بمسطحات مائية مهولة المساحة، هي أقرب ما تكون إلى البحار. هذه هي الأهوار: وهي خزائن مائية يتجاوز بعضها مساحة البحر الميت. الأهوار الجنوبية (كما يدعي بعض المؤرخين) هي من بقايا طوفان نوح عليه السلام، أو هي من فوائض مياه الفيضانات الجبارة التي تكتسح بها مياه دجلة والفرات الجنوب كل عام. لقد لاحظ المهاجرون الأوائل القادمون من الصحراء أن قصة بلاد الرافدين إنما هي قصة صراع الإنسان مع الماء، فبينما كان الماء بالنسبة للإنسان

الصحراوي يعني الحياة والبقاء: يبدو الماء في بلاد الفيضانات الجبارة وكأنه يعني الموت والخراب، بسبب تدميرية هذه الفياضانات وجرفها للمدن وللإنسان والحيوان. يقول العلامة الراحل الدكتور أحمد سوسة إن جوهر تاريخ الإنسان الرافديني هو تاريخ الري في العراق، بمعنى تاريخ كفاح هذا الإنسان من أجل السيطرة على الفيضانات وتحويل فوائضها المائية الكبيرة إلى ترع وأنهار وسواق يشقها الإنسان من أجل سقاية مزارعه وتوسيع حقوله ومراعيه، بدلاً من أن تحطم المياه بغليانها بيوته وقراه. لهذا السبب وجد الإنسان العربي المستقر في العراق أن عليه أن يقنن أنشطته وطاقاته في سبيل توجيه طاقاته وذكائه إلى شق الأنهار وبناء السدود والخزانات المائية، ليس فقط من أجل حصر المياه لمواسم «الصيهود» أو الجفاف صيفًا، بل كذلك لأجل توسيع زراعته وتعظيم «حلاله» من الدواب كي تكون هذه البلاد سلة قمح الإقليم بأسره. لقد وجد الإنسان العربي في كثرة أعداد النخيل بالعراق (وهي التي لم تكن ترى إلا ضعيفة متباعدة في واحات الصحراء المترامية) ما كان يتمناه ويحلم به، حيث إن هذه الشجرة العملاقة الشامخة التي يعتمد عليها في غذائه لا يحلو لها غير «الجلوس» على ضفاف شط العرب والرافدين: رأسها ملتهب تحت أشعة شمس تموز وآب، بينما تمتد أرجلها في مياه هذه الأنهار الباردة، تدغدغها حركة أسماكها. للمرء أن يتخيل الانطباع الأولي والقوي للإنسان البدوي وهو يأتي إلى أرض السواد، حيث تختلط المياه الوفيرة بجذور وسعف النخيل وبالجمال التي تذكره بتراث الصحراء العميق. لقد كان العراق، عبر هذه الدهور المتتالية، فردوسًا للعين الصحراوية وللذهنية البدوية التي كانت تطفو في البادية بين بُعدين لا ثالث لهما: امتداد الرمال من ناحية، وامتداد السماء من الناحية الثانية، حيث يحيا الإنسان الصحراوي طافيًا بين هذين البُعدين الأصمين بلا نهاية. وإذا كان هذا المشهد مقفرًا بالنسبة لابن الصحراء، فإنه كان معطاء كذلك، لأن الصحراء منحته عمق التأمل والقدرة على سبر الأغوار والحكمة والرؤية، بل والرؤيا، بالعين الثالثة، عين العقل أو البصيرة. لذا كان الاختلاط العتيق بين سجايا الصحراء العربية وسجايا بلاد النهرين من أهم مسببات الإبداع والتفوق والعبقرية، الجماعية والفردية. إنها «لحظة» تاريخية، ربما ساهمت في صناعة تاريخ الإقليم والعالم بأسره.

لم تترك الصحراء بلاد النهرين دون أن تترك بصماتها العميقة عليها، تاريخيًا وسكانيًا، فقد أدى العرب أدوارًا ثقافية وسياسية جذرية في تشكيل التاريخ العربي الإسلامي عامة، خاصة بعد نقل عاصمة الخلافة من المدينة إلى الكوفة على يد الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وخاصة



كذلك بعد تبلور الدولة العباسية التي أسست بغداد (المدينة المدورة، دار السلام) واتخذتها عاصمة لها، من نوع «الكوزموبوليتان» في العصر الوسيط، حيث كانت عاصمة العالم القديم. لهذه الأسباب يعتز الإنسان العربي في العراق بأصوله العربية، بينما تراه يفتخر بنسبه لإحدى القبائل الصحراوية القادمة من جزيرة العرب. لذا طغت الألقاب القبلية والعشائرية العربية مثل: (الأوسي، الخزرجي، الزبيدي...إلخ)، ليس على سكان الريف نصف البدويين فقط، بل كذلك على سكان الحواضر الذين اتخذ البعض منهم ألقابًا مستقاة من اسم المدينة (البصري، البغدادي، الموصلي، الكوفي ...إلخ) أو من عنوان المهنة التي يعملون بها (الدباغ، الصائغ، الخياط...إلخ) ألقابًا لهم.

حتى هذا النوع الأخير من سكان العراق كان حريصًا دائمًا على تتبع نسبه إلى شجرة بدوية عربية. وإذا كانت هذه الظاهرة مدعاة لافتخار أبناء القبائل والعشائر العربية، فإنها كانت دائمًا تؤشر إلى هيمنة الذهنية البدوية والتقاليد الصحراوية المستوحاة من الصحراء العربية ومن بناها الاجتماعية. هذا ما يبرر وصف المجتمع العراقي بأنه مجتمع عشائري، وهي حقيقة يمكن أن يتلمسها الباحث في دراسة المجتمع الريفي على نحو خاص، حيث تسود قيم البداوة على قيم المدينة، مقاومة وطاردة سواها من القيم البديلة أو الطارئة. ففي الريف تنتشر سجايا بدوية طيبة من نوع الكرم الحاتمي وحماية الدخيل وطقوس الضيافة والشورى والفروسية، كما تظهر بوضوح بعض العادات الصحراوية (التي لم يعد لها مكان في العصر الحديث)مثل الثأر والعصبية القبلية وغسل العار والانتقام وحتى تبادل الغزوات أحيانًا. إن الصلة بين الريف العراقي، خصوصًا الفراتي، والصحراء تتجسد واضحة المعالم عندما يطوف المرء بين بيوت أعمامه في الحقول الزراعية المستقرة ليرى إلى جانب الحقول والأكواخ الطينية أعدادًا من الخيم البدوية والجمال والماشية، خصوصًا في مواسم معينة حيث يأتي البدو إلى هذه المناطق بحثًا عن الكلأ والماء. وتحاط هذه الخيام

قرأ الوردي تاريخ العراق الاجتماعي من هذا المنظور الذكي، فوجده عبارة عن سلسلة متواصلة من الطوفانات البدوية الآتية من الصحراء، حيث تتوالى هذه الطوفانات بين القوة والضعف، بحسب قوة الدولة المركزية

من قبل العشائر العراقية باحترام وحماية وتقدير خالص، نظرًا للأواصر القديمة بين عرب ضفاف الأنهار والبدو الرحل من عرب الصحراء.

لقد لاحظ الفيلسوف الاجتماعي الراحل علي الوردي هذه الصلة بين البداوة والتمدن في ماضي العراق، فأخذها «باروميترا» أو مؤشرًا على آليات المد والجزر في المجتمع العراقي: بين البداوة وتقاليد الاستقرار. لذا قرأ الوردي تاريخ العراق الاجتماعي من هذا المنظور الذكي، فوجده عبارة عن سلسلة متواصلة من الطوفانات البدوية الآتية من الصحراء، حيث تتوالى هذه الطوفانات بين القوة والضعف، بحسب قوة الدولة المركزية، فكلما زاد جبروت المركز المديني، انحسر المد البدوي مع أنماطه القيمية والسلوكية، وكلما ضعف المركز الحكومي المديني، قوت شأفة البداوة، بكامل أنماطها القيمية والسلوكية. لذا خلص الوردي إلى ما سماه «ازدواجية الشخصية العراقية»، حيث ترك هذا المسلسل التاريخي المتناوب آثاره على الذهنية الشعبية في بلاد الرافدين، فصار الإنسان العراقي مركبًا معقدًا، نظرًا لانشطاره بين الولاء للقيم الحضرية والولاء للقيم الصحراوية، بين «جيمس ستيوارت»، كما قال الوردي في أحد كتبه، وبين البدوي المتشدد المتمسك بقيم العصبية والثأر وغسل العار، حيث ينزع الأفندي لباسه الأوروبي ليظهر معتمرًا عقاله وكوفيته، مرتجعًا إلى قيم البداوة خاصة عندما يكون على المحك■

تثبيت الرمال وحماية المراعي وإدارة موارد المياه . .

التنمية المستدامة للصحارى العربية

خالد غانم * - مصر

*أستاذ البيئة بجامعة الأزهر/رئيس تحرير شبكة «البيئة الآن» الإلكترونية المصرية

في السنوات الأخيرة ومع تنامي الاهتمام العالمي بالصحارى خاصة بعد المشكلات التي تتعرض لها مثل الجفاف وندرة الأمطار والرعي الجائر وغيرها التي تؤثر بشكل كبير وسلبي على مواردها وقدراتها، دفع هذا المنظمات الدولية والأهلية إلى البحث عن أنسب السبل التي تؤدي إلى تنمية الصحراء، ومع انتشار مفهوم التنمية المستدامة للموارد بشكل عام أصبح موضوع التنمية المستدامة للأقاليم الصحراوية أمرًا في غاية الأهمية بالنسبة لهذه المنظمات.

وعلى المستوى العربي كانت هناك أدوار وجهود واضحة لتلك المنظمات والحكومات في عدد من المجالات التي تؤدي إلى التنمية السليمة والمستدامة للصحراء، ومنها على سبيل المثال إحياء الأنظمة البيئية الصحراوية ومقاومة زحف الرمال والإدارة الجيدة للموارد المائية الصحراوية ومقاومة تصحر المراعي والسياحة البيئية الصحراوية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية للسكان المحليين في المجتمعات الصحراوية.

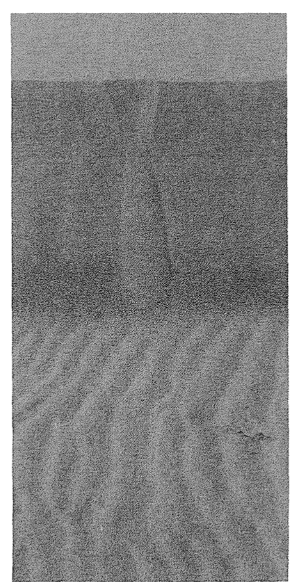
وعمومًا يمكن رصد بعض تلك الجهود التي قدمتها الحكومات ومنظمات المجتمع المدني في الدول العربية، ونبدأ بأول المجالات السابق الإشارة إليها وهو إحياء الأنظمة البيئية الصحراوية، حيث عمدت الكثير من الحكومات العربية إلى إنشاء المحميات الطبيعية بهدف حماية الكثير من أنواع الحياة البرية (نباتية وحيوانية) من الانقراض، وكان هناك تجارب ناجحة في عدد من الدول العربية مثل المملكة العربية السعودية والإمارات وسلطنة عمان وتونس ومصر ولبنان وغيرها، وقد استطاعت هذه المحميات أن تؤدي دورًا هامًا في حماية الكثير من الأنواع الحيوانية البرية مثل المها العربي التي توجد في صحراء السعودية والإمارات وغيرها من بلدان الخليج العربي، وكذا طيور الحبارى التي تعمل الإمارات على حمايتها حاليًا بعد أن كانت مهددة بالانقراض خلال العشرين عامًا القادمة، وكذا بعض الأنواع النباتية كالنباتات الطبية الصحراوية التي تزخر بها الصحراء العربية مثل نبات السكران والحنظل وغيرهما.

ومن المجالات الأخرى التي نجحت الهيئات الحكومية ومنظمات المجتمع المدني في الحد منها ومن مشاكلها زحف الرمال، حيث رصدت نجاحات لتجارب مميزة مثل تجربة المملكة العربية السعودية في حجز وتثبيت الرمال في الجهة الشمالية من منطقة الأحساء، حيث أنشأت خمسة حواجز شجرية على بعد عشرين كيلومتر من واحة الهفوف، وتراوحت أطوال هذه الحواجز بين ٥ و٢٠ كيلومترًا وبعرض يتراوح بين ٢٥٠ و٧٥٠ مترًا، وقد نجحت في صد كمية كبيرة من الرمال في هذه المناطق كانت تسبب أضرارًا فادحة.

وكذلك تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة التي قادها الراحل الكريم الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، وفيها تم تحويل الكثبان الرملية إلى حدائق ومزارع، حيث تم زراعة عشرات الآلاف من الأشجار القادرة على تحمل الجفاف والملوحة، وأيضًا زراعة

أعداد هائلة من النخيل تعدت الأربعين مليون نخلة.

وخلاف هذه التجارب التي قادتها الحكومات في مقاومة زحف الرمال والتصحر كانت هناك تجربة مغربية رائعة قادتها سيدة تسمى زبيدة شروف وقد عملت على حماية إحدى الأشجار التي كانت مهددة بالانقراض منذ ١٥ عامًا، وهي شجرة الأرجون المعمرة التي تعيش مائة وخمسين عامًا وتضرب بجذورها في الأرض إلى عمق ٣٠ مترًا. وشجرة الأرجون تعرف بشجرة الفقراء حيث يستفاد من كل أجزائها، فيؤخذ من جوزتها زيت ذو جودة عالية يستخدم في أغراض طبية وصحية كدواء ومنشط، والخشب يستخدم في التدفئة وأعمال الديكور، والأوراق تستخدم في تغذية



الحيوانات.

والجميل في تجربة شروف أنها لم تقتصر على حماية شجرة الأرجون وحدها بل قدمت تجربة إنسانية وتنموية رائعة، حيث أسست جمعية الأمل لشجرة الأرجون يعمل فيها مائة وخمسون سيدة، منهم خمسون بصفة دائمة ومائة سيدة نصف الوقت، كما أسست أيضًا شركة لتسويق منتجات الأرجون، وأقامت فصولاً دراسية لمحو أمية النساء في منطقة «تماناز» المغربية التي اعتبرت عاصمة للأرجون، ولم يكن غريبًا أن تحصل السيدة شروف على جائزة دولية من «بورتو» بالبرتغال في أغسطس ٢٠٠١ عرفت بجائزة Slow Food Click.

مجال ثالث من مجالات تنمية الصحراء ظهرت فيه جهود المنظمات الحكومية والأهلية هو مقاومة تصحر المراعي، وهي الظاهرة السيئة التي أدت إلى إتلاف المراعي الطبيعية في مجتمعات صحراوية كثيرة، والتي يتسبب فيها زيادة كثافة أعداد الحيوانات وخاصة الماعز والأغنام مما يؤدي إلى دهس المرعى وتلف غطائه النباتي، إضافة إلى نمو بعض الأنواع النباتية غير المرغوبة والسامة كالشجيرات الخشبية وغيرها، وكذا زيادة حشرات مثل النمل الأبيض وهي تسبب ضررًا فادحًا للمرعى.

وفي دراسة لإحدى المنظمات السعودية قدمت في المؤتمر العالمي حول التنمية الصحراوية في دول الخليج العربي بالكويت عن المراعي في منطقة شمال الجبيل السعودية، حددت الدراسة أعداد الحيوانات بـ٦٠٠ من الجمال و١٨٠٠ رأس من الأغنام والماعز كحد أعلى للرعي في المنطقة، واعتبرت أن الزيادة عن هذه الأعداد تؤدي إلى تدهور المرعى.

وفي مصر عملت إحدى المنظمات غير الحكومية مع بدو مطروح (غرب مصر) لتأهيل بعض المراعي التي تدهورت بسبب الرعي الجائر، حيث استفادت من خبرة كبار شيوخ الرعاة البدو في تعليم الرعاة الأحدث طرق التعامل مع المرعى ومدة بقاء الحيوانات به والمدة التي يترك لإعادة تأهيله.

والمجال الرابع في تنمية الصحارى هو مجال الإدارة المستدامة لموارد المياه الصحراوية التي كان

للحكومات والمنظمات دور فيها، وذلك عن طريق صيانة الموارد المائية التقليدية كصيانة الآبار والعيون مثلما الحال في دول الخليج عمومًا، واستخدام تكنولوجيات جديدة لإنتاج المياه مثل تحلية مياه البحر واستخدام الطاقات المتجددة في ذلك كالطاقة الشمسية كما هو الحال في بلاد الخليج، أو كما قام به مشروع تحلية مياه البحر لتحويلها إلى مياه صالحة للشرب في بعض قرى محمية العميد التي تقع في محافظة مطروح المصرية. ومنها أيضًا تدوير مياه الصرف الصحي وإعادة استخدامها في الزراعة مثلما اتبعته وزارة البيئة المصرية في زراعة غابات شجرية في مدينة السادات (إحدى المدن الصحراوية المصرية)، أو كما هو الحال في البحرين حيث يستخدم حوالي ١٠ مليارات متر مكعب من المياه المعادة سنويًا. ويساهم هذا في تنمية مستدامة لقطاع الزراعة ومكافحة التصحر.

والمجال الخامس الذي وضحت فيه جهود المنظمات والحكومات في التنمية المستدامة للصحراء هو السياحة البيئية وإن اقتصر بشكل كبير على الحكومات والهيئات التابعة لها كوزارات السياحة وغيرها. وفيه يمكن الاستفادة من القدرات الطبيعية الهائلة للصحراء في بعض الأنواع من السياحة الصحراوية التي كانت متوقفة من قبل على رحلات الصيد فقط، والآن تنوعت إلى رحلات صيد وسفاري وسياحة علاجية وغيرها.

وكان لبعض الدول العربية سبق الاستفادة من هذا النوع من السياحة الذي يعمل على ضخ مصادر دخل كبيرة تضاف للاقتصاد الوطني وخلق فرص عمل كبيرة، ومن هذه الدول مصر والسعودية وسلطنة عمان والإمارات، ففي مصر على سبيل المثال انتشرت رحلات سياحة السفاري في محافظة البحر الأحمر التي تمتاز بوجود مجموعة هائلة من السلاسل الجبلية التي تصلح لممارسة الرياضة وتسلق الجبال بالإضافة إلى وجود العديد من الوديان التي تصلح لممارسة رياضة ركوب الخيل والجمال وغيرها، ويمكن للسائح أيضًا في هذه المناطق مراقبة الحيوانات والطيور المهاجرة.

وفي السعودية والإمارات تنتشر رحلات الصيد وسياحة التخييم التي تتراوح ما بين رحلات قصيرة نصف يوم أو أطول نسبيًا من ٤ - ٥ أيام.

والنوع الآخر من السياحة الصحراوية هو السياحة العلاجية، حيث يأتي السياح للعلاج من أمراض معينة في البحر الميت بالأردن وفي مصر في واحة سيوة وسفاجا وجزيرة الفنتين بأسوان وعيون موسى في أقصى شمال شرق خليج السويس.

والمجال الأخير الذي وضح فيه دور الحكومات والمنظمات الأهلية في تنمية الصحراء هو التنمية الاقتصادية والاجتماعية للسكان المحليين، وقد أثبتت الدراسات عدم نجاح أي خطط للتنمية في الصحراء بدونهم لأنهم الأقدر على فهم مشكلات مجتمعاتهم وبالتالي المساهمة في حلها، وقد فطنت لهذا الكثير من المنظمات غير الحكومية التي تعمل في نطاقها، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها المشروع الذي ينفذ حاليًا في محمية العميد بمطروح المصرية والذي يهدف إلى تحلية مياه البحر لتحويلها إلى مياه صالحة للشرب، والذي ينفذه المركز الدولي للأراضي الجافة (الإيكاردا) بالتعاون مع الحكومة البلجيكية وبرعاية الأمم المتحدة واليونيسكو، ويذكر أن المشروع ينفذ في أربع دول عربية هي مصر وتونس وسوريا والأردن من أجل توفير بدائل جيدة للمعيشة لسكان المناطق الجافة، وكذا تقليل تدهور الأراضي الهامشية وأيضًا تحسين إنتاجية هذه الأراضي.

والجميل في المشروع كما تقول الدكتورة بشرى سالم الاستشارية بالمشروع وأستاذ البيئة بجامعة الإسكندرية هو مشاركة البدو في المشروع حيث أمدوها بالمعلومات والخرائط بعد أن استطاعت كسب ثقتهم، وبالتالي ساعدوها وعملوا على نجاح المشروع الذي هو في النهاية لخدمتهم.

وأخيرًا ربما من الأمثلة السابقة التي سردناها نستطيع أن نتبين دور كل من الحكومات ومنظمات المجتمع المدني في تنمية الصحارى العربية، وإذا لم يتكامل جهدهما معًا وبمشاركة السكان المحليين لا يمكن أبدًا أن تنجح أي جهود للتنمية المستدامة للصحارى. ■



تائهون في الصحاري

الوقوع الغربي في سحر الصحراء

لقاء الورد* - العراق

* كاتبة عراقية .

لأنها قصيرة، كان هدف الحياة العربية هو أن «تكون» أن تكون حرًا، أن تكون شجاعًا، أن تكون حكيمًا، بينما كانت جهود الشعوب الأخرى، ولم تزل، تنصب في أن «يمتلكوا» أن يمتلكوا الثروة، أن يمتلكوا المعرفة، أن يمتلكو اسمًا... وأخيرًا كانت نهاية الإنسان العربي مشرفة، كما كانت حياته مثيرة؛ قليل من البدو أصابهم سوء حظ الموت على فراش من القش.

ريتشارد بيرتن، «المقالة الختامية». لترجمته (ألف ليلة وليلة)



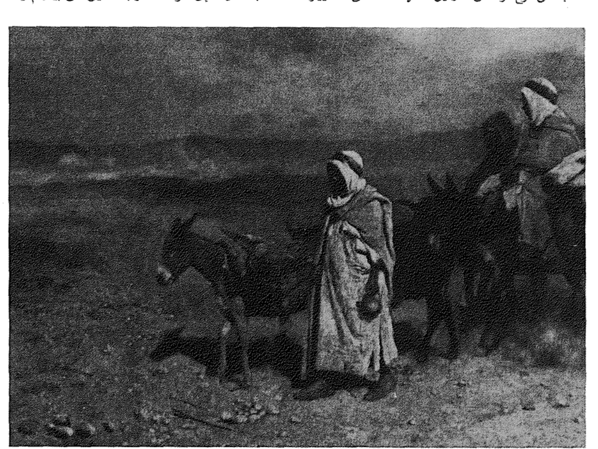
للصحراء العربية سحر خاص هيمن على العقل الغربي: فالكتّاب الغربيون كتبوا مئات الكتب في هذا الموضوع منذ بدايات الاتصال بين أوروبا والعالم العربي الإسلامي، كما أنهم عبّروا عن وقوعهم في «دائرة سحر» البوادي في العصر الحديث، لأن الصحاري لا تمثل فقط إقليمًا جغرافيًا معاكسًا لطبيعة الأقاليم الغربية الباردة التي يحيون بها، ولكن كذلك لأن سكانها وسكان المناطق المحيطة بها يشكلون عالمًا آخرًا بالنسبة إليهم، عالمًا نائيًا، مختلفًا، ساحرًا. لقد شدت الصحاري العقل الغربي إلى عالمها بشكل أقوى مع اجتياح كتاب (ألف ليلة وليلة) أو (الليالي العربية) عالم القراءة والمكتبات. لذا صار الحلم بالشرق السحري العائم على بحار من الملذات والنشوات جزءًا من الحلم بالصحراء التي منحت الندرة والموارد الضئيلة فيها للإنسان البدوي شخصية خاصة لم تزل الثقافة الغربية الشائعة تستذكرها بالكثير من العواطف، خاصة مع قراءة قصة ظهور الإسلام وانطلاق الإنسان العربي (الذي كان يعد منسيًا في صحاريه قبل الإسلام) كأكبر الفاتحين في التاريخ. وهكذا شكلت العلاقة بين الصحراء والمحارب العربي المسلم القادم

منها (عبر القرون الوسطى) جانبًا مهمًا في طبيعة التلقي الغربي للصحراء، فكرة وإنسانًا وتقاليدًا اجتماعية.

وإذا كان وعي العقل الغربي بالصحراء قد تقلّب بين التعاطي الجاد المنبعث من القلق مما تحويه من خزائن ومن عسكريتارية في العصر الوسيط، من جهة، وبين التعامل المسحور معها كعالم رومانسي رعوي دائم الحركة والارتحال، من جهة أخرى، فإن الكتّاب الخياليين الكبار حاولوا منذ قرون عديدة سبر أغوار الصحراء، ولكن عن بعد، من داخل مكاتبهم في المدن الأوروبية، محيلين الصحراء إلى فضاء رحب لأفكارهم ولتأملاتهم التي لم تكن تهدف لخدمة الصحراء وسكانها، بقدر ما كانت تهدف إلى خدمة مجتمعاتهم الأوروبية، حيث تحولت بريطانيا في عصر الثورة الصناعية، مثلاً، إلى شكل من أشكال الصحراء المقفرة التي لا تشهد حركة الجمال والقوافل، بل تئن تحت وطأة الماكنة العمياء وقبح آثارها على المدينة الصناعية وعلى سكانها المعذبين. لكن هذا التوازي الرمزي لم يمنع كتّابًا من نوع توماس كارليل Carlyle من التمييز بين نقاء الصحراء العربية وتلوث صحراء المدينة الصناعية. لذلك نجده قد ركز، في محاضرته المهمة، «البطل نبيًا» على أثر نقاء الصحراء على العرب بوصفهم شعبًا موهوبًا ونبيلاً، شعبًا يمتاز بمشاعر جياشة قوية، وبتحكم حديدي بهذه المشاعر: هذه هي ميزة العقلية النبيلة والعبقرية. فالبدوي الصحراوي يرحب بالغريب في خيمته حتى لو كان من ألد أعدائه، فإنه سيذبح مهره كي يكرمه، فيخدمه بضيافة مقدسة لثلاثة أيام، ويضعه، بكل صدق، على جادته.[1]

لقد حاول كارليل أن يؤسس رابطة بين العرب وبيئتهم الصحراوية، من جهة، وبين عمق العقل الغربي من جهة ثانية، حيث ترك سكون الصحراء آثاره على ما امتاز به هذا العقل من عمق وذكاء وسريرة نقية، الأمر الذي يفسر ظهور الرسول الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم من هذه الأرض المقحلة. لنرى سحر الصحراء كما تجسد لكارليل وهو يحيا بين لندن وأدنبرة، مسقط رأسه:

بالتأكيد، إن هؤلاء العرب الذين من بينهم ولد



محمد، أمة جديرة بالاهتمام.

بلادهم نفسها جديرة بالاهتمام، فهي المستقر المناسب لمثل هذا العنصر.

جبال صخرية كأداء صعبة المنال، صحاري عظيمة متجهمة، تتخللها بقاع خضراء نضرة: أينما يتوافر الماء، تجد الخضرة والجمال وشجيرات البلسم العطرة والنخيل وأشجار اللبان. تأمل ذلك الأفق الشاسع، الفارغ إلاّ من الرمال: فضاء خال، ساكن، كبحر رملي، يفصل بين مستقر وآخر. فأنت تكون منفردًا هناك، متروكًا وحدك إزاء الكون، تلهبك شمس قاسية خلال النهار بإشعاع لا يطاق، وفي الليل أمامك السماء العظيمة العميقة بنجومها. بلد مثل هذا يتناسب مع عنصر بشري رشيق الحركة، عميق القلب. ثمة شيء عظيم الفطنة، حيوي، وهو مع هذا شديد التأملية والاندفاعية، في الشخصية العربية (Carlyle، 282-3).

أما على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي، فقد ظهر الإعجاب الرومانسي بالصحراء العربية وبقصة الإسلام لدى أبي الأدب الأميركي، واشنطن إرفنغ Irving، الذي سار على خطى كارليل في ملاحظة أثر البيئة الصحراوية على صفات وأخلاق الإنسان العربي في كتابه المهم (محمد وخلفاؤه) الذي يعد علامة مميزة في تاريخ التأريخ الغربي للعرب وللإسلام. لهذا يميل إرفنغ إلى تتبع ذلك النمو العجيب لتلك «الغيمة الصغيرة» التي ارتفعت من صحاري الجزيرة العربية[2] كي يبرر الفتوحات العربية الإسلامية الكاسحة التي هزمت العصبة الرومية، والكتائب الإغريقية، وجيوش فارس الجرارة، حاملة معها انتصارات العرب من أبواب قوقازيا إلى السفوح الغربية لجبال الأطلس، ومن سواحل نهر الغانجز إلى السوس، أبعد أنهار موريتانيا، ليزرعوا بيارقهم على أعمدة هرقل، فيهددوا أوروبا بذات الاكتساح (.Mah., II، 500)

وفي جهد تحليلي مهم لمعرفة أصول القوة المحركة والكامنة وراء هذه الفتوحات الكبيرة، يجد إرفنغ أن عرب ما قبل الإسلام كانوا «عنصرًا مقاتلاً، غير واع بقوته...عنصرًا مفككًا وغير مؤذ، قابعًا في أعماق صحاريه» (.Mah، 29). وهكذا

لقد كانت مجلدات (الصحاري العربية) تعكس بُعدًا شخصيًا، ذلك أن واحدًا من الأسباب الرئيسية لتأليفها، إضافة إلى اهتمامي بحياة الأقوام السامية داخل الخيام، هو بغضي للإنكليز الفكتوريين، فقد تمنيت أن أبيّن أن هناك شيئًا مختلفًا

يقود إرفنغ القرّاء الأميركان الأوائل إلى اكتشاف «عبقرية ما» أو «إرادة» فذة لوت هذه القبائل المفككة التي لا تلتوي، كي تطلقها لتجتاح العالم القديم بأسره. إن أية نظرة فاحصة على أحوال عرب الجاهلية تكشف لنا بوضوح ذلك التناغم بين البطولة الجماعية لبلاد العرب، وبين البطولة الفردية للرسول محمد صلى الله عليه وسلم:

لقد جاءت الساعة بعد زمن طويل لأن تتحد القبائل المتنافرة بدين واحد،ليسكنها هدف واحد، إذ برزت عبقرية جبارة تجمع الأفخاذ المشتتة، لتبعثها بروح متحمس جسور، فتقودها إلى الأمام- عملاقًا صحراويًا- كي تهز وتقلب إمبراطوريات الأرض. (.Mah، 29)

وإذا كان من المتعذر، في مثل هذا المجال، الإشارة إلى جميع الكتابات المهمة والبارزة حول وقع الصحراء على الثقافة الغربية، فإنه من المهم أن نلاحظ طرق معالجتها، عند كبار الكتّاب الغربيين. لم تكن الصحراء العربية أو «مادة عربي» Matter of Araby جزءًا من الطبيعة التي طبعت، كما قال المستشرق الفرنسي يول مولJules Mohl، «روح العصر»[3] فقط، ولكنها كانت كذلك تشكل ساحة وخلفية فكرية لعدد من الكتّاب الذين أرادوا أن يستخدموها لتأدية «دراما» الطموح الشخصي والتشبث الفردي. وهكذا تم استثمار المواد العربية

والإسلامية كأرض بكر وفضاء واسع يمكن أن يجهز هؤلاء الكتّاب الطموحين بأفكار جديدة لم يسبقهم إليها أحد. لو نلاحظ الرسالة الشخصية التي أرسلها المستشرق الكبير «تشارلس دوتي» Doughty إلى زميله «هوغارث» Hogarth، مبينًا فيها دوافع تأليف كتابه الشهير (الصحاري العربية) Arabia Deserta:

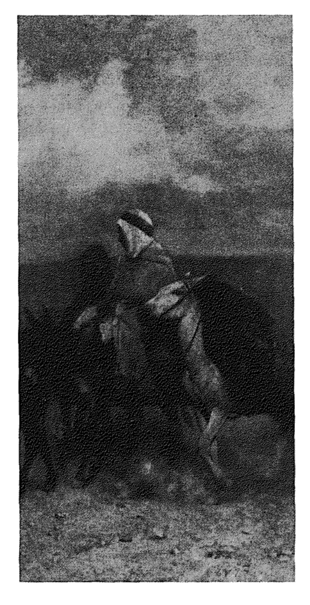
لقد كانت مجلدات (الصحاري العربية) تعكس بُعدًا شخصيًا. ذلك أن واحدًا من الأسباب الرئيسية لتأليفها، إضافة إلى اهتمامي بحياة الأقوام السامية داخل الخيام، هو بغضي للإنكليز الفكتوريين، فقد تمنيت أن أبيّن أن هناك شيئًا مختلفًا[4].

وكما أكد دوتي في رسالة ثانية إلى هوغارث على تطلعات مشابهة، كالرغبة بالاشتهار وبإغناء الأدب الإنكليزي، إذ كشف عن أن المواد المستوحاة من الصحراء وسكانها يمكن أن تُسهّل له إحياء التفوق الأدبي الذي تمتعت به اللغة الإنكليزية في القرون الوسطى:

لم تكن نيتي الرئيسية في تأليف مجلدات (الصحاري العربية) تتمثل في عرض لرحلات شخصية بين أبناء شعب ذي أهمية توراتية بقدر ما كانت تتمثل في محاولة بذل الجهد المثالي لاستئناف التقليد القديم الذي أرساه الشعراء تشوسر وسبنسر مقاومًا، بكل ما أوتيت من قوة، تردي اللغة الإنكليزية: فبينما يجب أن يكون ذا أهمية بالنسبة للمستشرقين، فإنه يجب أن يكون كذلك إسهامة حياتي، حتى اللحظة، في الأدب.

لم أجد كتابًا غربيًا يصور وطأة الصحراء «التنقوية» على المؤلف مثل كتاب لويزا جيب Jebb المعنون (عبر الصحراء إلى بغداد) By Desert Ways to Baghdad حيث تُوسّع هذه الكاتبة الدلالة الجغرافية والمعنوية للصحراء لتشمل جميع الأقاليم المترامية خارج أوروبا، باعتبار أن أوروبا هي «حديقة العالم»، وأن ما عداها هو «صحراء قاحلة». لكن التجربة المباشرة للمرتحلة جيب عبر البادية الممتدة من سلاسل جبال جنوب تركيا باتجاه بغداد تقلب انطباعاتها المتحاملة الأولى التي رافقتها لدى انطلاقها من بريطانيا. بعد أن

تعبّر الكاتبة في الفصول الأولى عن مشاعر إزدراء للصحراء وسكانها، فإنها تظهر عند نهاية الكتاب وهي تزدري صحراء من نوع آخر، غير الصحراء العربية: صحراء لندن[5]. إن الحس المرير بالاغتراب والشعور القاسي بالوحدة الذي ينتابها وهي تقطع البادية العربية مع صديقتها الآنسة «إكس» X يجد له مرادفًا اعتباريًا في اغتراب الإنسان الغربي في المدينة الصناعية، مشيرة إلى لندن: فهي تحس، «بذات الطريقة حين يكون المرء مغتربًا في شارع لندني، حيث يحيا المرء بداخل دوامة صحراوية، إنه نبض الإنسانية»(Jebb، 265). ويتركز هذا النوع من الاحتجاج الاجتماعي في عدة بؤر متنوعة ومختلفة: رفض المدينة، رفض وضع المرأة، النفاق والقهر الاجتماعي (Jebb،



(310-301). وفي اللحظة التي تفلت بها الكاتبة من ضغط الصحراء ومعاناة السفر لتدخل دمشق بعد انتهاء المرحلة الأولى من الرحلة، ينتابها شعور مرير آخر ناتج عن آلام الخوف من الرجوع إلى العالم العصري الصناعي معبّرة عن شوق جارف إلى الصحراء الحقيقية الممتدة أمامها، بنقائها وصدقها وعمقها.

إن أهم ما تلاحظه جيب هو أثر المكنة على سكون الصحراء، متأملة تأثير بناء سكة حديد في العراق على صمت البادية الأزلي وعلى إنسان البادية الغارق في عالم ساكن لا يمكن تحريك مياهه بدون القطار المستورد من أوروبا:

حتى الشرق اللامتغير يغدو لا حول له ولا قوة لحظة هيمنة مخالب الوحش (القطار)، إن هذا هو الوحيد، من بين جميع التأثيرات، الذي يأتي ليبقى وليترك آثارًا عميقة في النفس والأرض الشرقية. فيبلغ الغرب انتصاره بفعل سكة الحديد هذه بأسلوب جديد: ربما ببطء، ولكن بكل تأكيد، يقوض القطار، وبإصرار لا يمكن مقاومته، العادات والتقاليد التي كانت منذ زمن بعيد وراء حفاظ الشرقيين على صمودهم ضد القوى الدينيةوالثقافية والعسكرية للأمم الأقوى. (Jebb, 48).

إن لويزا جيب تؤسس فكرة المتغير الزمني لتجربة الصحراء منذ الصفحة الأولى من مقدمة كتابها، وذلك بلهجة ذات دلالة فلسفية، حيث تأخذ الزمن، محكًا، لتقييم طرق الاستجابة الغربية والشرقية له، وهي بذلك تؤسس تنوعًا استجابيًا للزمن. تقول في المقدمة «إننا»، تقصد الغربيين، خدم للزمن، ذلك أن الزمن يقودنا وينظم حياتنا بفعل أهمية تقسيماته وجريانه السريع المستبد بحياتنا. الغربيون عبيد للزمن بسبب توافق حياتهم وتناغم كيانهم مع إيقاعات الآلة الرتيبة. ومن ناحية أخرى، تعلن جيب أن الشرقيين، بعكس الغربيين، هم أسياد الزمن: أي أن الإنسان البدوي يستعبد الزمن، ببساطة متناهية، لأن الزمن بالنسبة له لا يحتوي على نفس القيمة الحاسمة في الآلية الاجتماعية - الصناعية الجارفة بالغرب. الزمن في حياة البادية لا يفرض أعباءه على الإنسان من خلال نوبات العمل وطوابير الانتظار ومحطات القطارات (Jebb, 13-14). لذا يجد الزمن نفسه مستضعفًا أمام الإنسان في الصحراء (حسب ملاحظة جيب المأخوذة من تجربتها في نهاية القرن التاسع عشر).

قدم لنا فنجانين من القهوة وقدّم واحدًا آخر لشيخ القبيلة. ارتشفنا المشروب الزيتي الأسود ببطء وبتأمل. إن سائلاً تم تحضيره بهذه العناية الفائقة لا يمكن أن يُعب على نحو غير مكترث.. .كان سائلاً كثيفاً ومرير الطعم

ينقلب هذا الجدل، رغم ما يوحي به من تمرد على استعباد الزمن الصناعي للإنسان الغربي، رأسًا على عقب، ذلك أن القطار بصفته رمزًا لعصر الصناعة يغدو تجسيدًا لقوة الغرب المادية التي تؤدي بالتالي إلى هزيمة عالم الصحراء:

ولكن قبل ذلك تستطيع أن تتأمل القوة التي ينبغي للرق أن يضعها في الحسبان بما يتعلق بالسكك الحديد. فمن ناحية، تهاجم هذه السكك الإنسان الشرقي في واحدة من أكثر نقاطه حيوية، وهو مفهومه للزمن. عندما لم يكن للإنسان الشرقي شيء يفعله سوى تحميل الجمال، كان الزمن هو الذي ينتظره، ولكن القطار لن ينتظره، فالوحش يزمجر ثم ينطلق...يأتي ويبرح مكانه دون أدنى شفقة، مثل الليل والنهار، فلا مجال لاستغفاله كما كان الشرقي يستغفل الزمن (Jebb, 84-9).

وهنا تتأمل الكاتبة شيئًا من نبوءات ما سيحدث في هذه الأرض المسطحة القاحلة عندما يمد الأوربيون أول سكة حديد في هذه المنطقة، متخيلة حجم الضغط النفسي والطبيعي على سكان هذه البراري التي بقيت على حالها منذ أقدم العصور:

كيف ستكون الحال عندما يأتي الوحش، وهو يزمجر ويصهل عبر هذه البراري الصامتة الساكنة، ملوثًا هذا الهواء النقي بغباره ودخانه؟

في بداية الأمر سيعزل هؤلاء الرعاة الأشداء

والمتعضون أنفسهم بعيدًا عن هذا الغزو، الكلاب الصفراء ستنبح دون جدوى إزاء هذا التطفل. ثم، وببطء، سيأتي ظهور القطار اليومي بالنسبة إليهم كما تأتي الشمس صباحًا والنجوم ليلاً. وعلى نحو واع، سيغدو القطار جزءًا من رتابة حياتهم.

ولن يتوقفوا عن تأمله بدهشة وذهول لأنهم لم يذهلوا من ذي قبل. سوف يسلمون به كما يسلم المرء بأي شيء واقعي آخر. ولكن، أن يستخدموه!

فهذه قصة مختلفة..سيكون هذا صراعًا طويل الأمد، ولكن الوحش كان دائمًا المنتصر في نهاية المطاف (6-Jebb. 65).

يبدو أن تنقية الصحراء للكاتبة المرتحلة قد بدأ يأخذ أبعاده كاملة من هذه التأملات حول الصراع بين المكنة والإنسان. حتى إذا ما استضيفت لدى أحد شيوخ القبائل الصحراوية في منطقة ما من البادية الغربية للعراق، فإنها تجد نفسها وحيدة مع صديقتها في قلب الكرم الحاتمي في وسط أرض لا توحي بالكثرة والوفرة. ولكنها تقع في دائرة سحر البداوة.

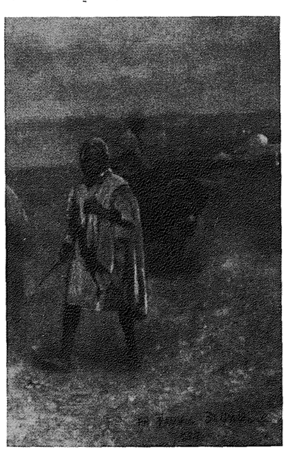
إن الانعزال عن عالم الأحداث وعن «أنباء الساعة» الذي يعيشه الشرق يضعه في مدار خاص به. ورغم زئير قطار بغداد الذي تتوقع جيب أن يربك الشرق، فإنها لم تزل تستشعر الكون الصامت، الساكن، الهادىء الذي تغيب فيه ثمرات ونتائج التغير السريع الجاري في الغرب: فالإنسان البدوي يبدو لها كائنًا عائمًا على محيطين لا نهاية لهما من الفراغ، المكاني (الصحراء) والزماني (تناوب الليل والنهار وفصول السنة اللامنتهي). إن غياب الأحداث والانفلات من عجلة الصناعة والزمن الغربي يوفر في الشرق أقاليم سكونية هائلة تغيب عنها زحامات شوارع المدن الغربية وضوضاء الأحداث، فيتاح بذلك للإنسان، نتيجة لهذه السباحة في الفراغ المكاني والزماني، نوع من التأملية، التأملية التي تستثمرها جيب في استنتاجات عديدة تتعلق بالتواصل العظيم بين أقاليم الفراغ البيئية (خارج الإنسان) وبين أقاليم الصمت الكامنة في دخيلة النفس البشرية، والأخيرة هي الأقاليم التي تهبها لها تجربة الوجود في الشرق. إن انعزال الصحراء عن زمن الصناعة والمتغيرات السريعة يتيح للكاتبة خصوصية الانفراد بالنفس، موفرًا عمقًا فلسفيًا ما كانت المؤلفة لتبلغه، كما تؤكد هي، في أي شارع من شوارع لندن المزدحمة.

هذا الصمت والسكون المتحرر من قبضة الزمن المعاصر ووقع المكنة هو الذي يكمن وراء تأملية بعض الأذهان العبقرية الشرقية، وهو نفس السكون القائم (حسبما ترى) خلف «قدرية» الإنسان الشرقي المتجسدة بهذا التسليم المفروض عليه منذ الولادة، فيتبلور هذا الشعور الجبار بلا نهائية الصحراء وهولها وضآلة الكينونة الإنسانية الصغيرة فيها. إن صمت الصحراء يغدو هو صوتها، هو فرض طغيانها على الإنسان الشرقي الذي يرى في حجم الصحراء ومضيافيتها تعبيرًا لعظمة الخالق، تلك هي حياته التي تمتد في رحلة بين الولادة لتنتهي إلى الموت. لقد ترك هذا الصمت بصماته في جوهر الحياة الشرقية: في سيادة الإنسان واستعباده للزمن. وعلى نحو معاكس، تجد الكاتبة الإنسان الغربي عبدًا للوقت ولتقسيماته التي تقررها إيقاعات مكنة الحضارة الغربية الهائلة. لذا، تحاول الكاتبة في الفصل المعنون «الضيافة العربية» أن «تنطق» بهذا الصمت في قطعة نثرية بارعة تزاوج فيها بين سكون الصحراء وسكينة الإنسان، في التناغم غير المرتبك بين هدوء البيئة الفيزيائية المتمثل بلا نهائية الصحراء وبين تسليم البدوي المرتحل ذاته لهول هذا السكون الكوني المستبد. يتجلى هذا في جلسة جيب في الضيوف (المضيف) في بقعة ما تقع بين الموصل وبغداد. وهنا يتحول احتساء القهوة إلى ممارسة ساحرة من نوع ما، إلى «طقوسية» صحراوية تعكس السكونين الزماني- المكاني، مذكرة القارئ الغربي بمصباح علاء الدين الذي يشبه دلال القهوة العربية:

القهوة على النار تغلي... تتوهج النار الآن بدمامة، حتى صورة الرجل منحنيًا على الرماد المحترق كانت ممكنة الرؤية ولكن كشبح أسود، كان السكون لدقائق قليلة بالغ الهيبة، فتركيز الجميع ينصب على إناء القهوة الفاقع، حيث يشعر المرء أن معنى الحياة كلها، الماضي والحاضر والمستقبل، يجري تقطيره في هذا السائل الأسود، وإن مجرد تعويذة ما كانت تكفي للمستقبل كيما يأخذ شكله.

إنه المستقبل الذي يبرز متصاعدًا من إناء القهوة، فيغدو مرئيًا لنا، كاملاً في هذا الظلام الغامض (Jebb. 210).

وتتكامل عناصر هذه الصورة «الصحراوية» المحكمة الصنع في فراغ تام من لون واحد يجمع كل كائنات الصحراء، لون العتمة المطبق: الأسود. هذا هو لون القهوة الذي يلف العالم الشرقي المبهم ليلاً. الإنسان يتحول إلى شبح أسود في حلكة الظلام، فيتواصل ظلام الأرض والسماء مع عتمة القهوة. كل شيء يبدو للكاتبة ساكنًا: لا أثر للأحداث اليومية وللمتغيرات السريعة لأن هذا السكون الصحراوي يرجع إلى ما لا نهاية من القرون. إن هذه اللانهائية الصامتة المتمثلة بالعباءة السوداء، التي تلف الإنسان والعالم الشرقي، تتجاوب بتناغم مع أقاليم الصمت الكامنة في كل إنسان، كما يتجلى هذا في شعور قوي بالنشوة تعيشه الكاتبة في ذلك المضيف العربي. وإزاء هذا الصمت، تتذكر الكاتبة، في مقارنة بارعة، ضوضاء وجنون الحياة المعاصرة في المدينة الأوروبية، حيث يبرز الفرق الشاسع بين القهوة العربية، رمزًا، والقهوة التي يبتاعها المرء



من أي حانوت في شوارع مدينة أوروبية.

القهوة تغلي.. في وقت مثل هذا يتوقف المرء عن ربط شرب القهوة المجرد بنهاية هذه الطقوس الغامضة. قهوة فندق كوك، قهوة محطات القطارات المزدحمة. قهوة كاملة..قهوة فرنسية، قهوة مقابل (1) شلن و(8) بنس للباون، صلصلة الأكفات الفاحمة السوداء، الطاهي السريع والمتلهف، النادل المستعجل، أناس العالم المسرعون، ليس لهم سوى دقيقة للانتظار - يطلبون قهوة فورية، ما للقهوة وهذه التداعيات جميعًا؟ هكذا كانت هي الحال التي لا تخلو من الحس بصدمة. حيث يتأمل المرء هذا الساحر العربي وهو يصب خلاصة فنه الأسود في فناجين. قطرات فقط، محسوبة بدقة. قدم لنا فنجانين من القهوة وقدّم واحدًا آخر لشيخ القبيلة. ارتشفنا المشروب الزيتي الأسود ببطء وبتأمل. إن سائلاً تم تحضيره بهذه العناية الفائقة لا يمكن أن يُعب على نحو غير مكترث...كان سائلاً كثيفًا ومرير الطعم(11-Jebb. 210). ■

الهوامش

1- Thomas Carlyle, On Heroes, Hero-Worship, and the Heroic in History (New York: Dutton, 1973). p. 203.

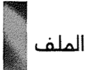
الإشارات الأخرى لهذا الكتاب وللكتب التالية ستظهر في متن الدراسة مع رقم الصفحة.

2- Washington Irving, Mahomet and His Successors, vol. I. in The Works of Washington Irving, vol. VI (New York: G.P. Putnam's Sons. ND), p. 499.

3- D.M. Dunlop, "Some Remarks on Weil's History of the Caliphs". Historians of the Middle East, B. Lewis & P.M. Holt, eds. (London: OUP. 1962). p. 138.

4- D.G. Hogarth, The Life of Charles Doughty (London: OUP. ١٩٢٨), p. 114.

5- Louisa Jebb, By Desert Ways to Baghdad (London: T. Fisher Unwin, MCMVIII), p. 16.



تائهون في الصحاري

فندق ١٠٠٠ نجمة ونجمة

أسامة أمين* - ألمانيا

* باحث إعلامي.

يبدو أن الكثيرين من الغربيين نسوا أن نبيهم عيسى - عليه السلام- جاء من الشرق، وأن ميلاده جاء تحت جذع نخلة، لا تنبت إلا في الصحراء، وارتبط في مخيلتهم ذكر الصحراء بالوحشة، والغربة، والأرض الجدباء القفر، ولا يرون فيها أي إيجابيات إلا أنها تصلح مقرًا للرهبان، يبتعدون فيها عن ضجيج الناس، وعالمهم، ويتفرغون لرهبانية ابتدعوها، ما كتبها الله عليهم.

رغم أن الصحراء تغطي ٢٥ مليون متر مربع من الكرة الأرضية، فإن أوروبا لا حظ لها في هذه الطبيعة الفريدة، أوروبا خضراء، في كل شبر أرض تجد نبتًا وزرعًا وشجرًا وغابات كثيفة. اللون الأصفر لم تألفه أعينهم، كما لم تعتد أعيننا هذه الخضرة التي لا أول لها ولا آخر.

ومن أدى الخدمة العسكرية في الصحراء، لا يمكنه أن يتخيل أن يأتي شخص طائعًا من بلاد بعيدة، حتى يعيش بمحض إرادته أيامًا. بين الجبال المقفرة، ومحيطات الرمال التي تمتد إلى آخر حدود النظر، وإذا سألت هؤلاء القادمين، عن سبب حضورهم، يقولون لك: «إنها الطبيعة الخلابة، واتساع الفضاء إلى ما لا نهاية»، ولكن أكثر ما يشدهم هو المبيت في فندق ألف نجمة، ولأنهم لا يعرفون السماء الصافية، فإنهم يعشقون النوم على الرمال، والتحديق في السماء، يعدون النجوم، ويناجون الإله. ربما للمرة الأولى في حياتهم!

لعل الدافع إلى تجربة الفندق ألف نجمة، هو الملل من فنادق الخمسة نجوم، والسأم الذي تجلبه لهم حياتهم، حياة الرفاهية التي تهيمن عليها ماكينات صرف آلي للنقود، وأخرى للمشروبات الساخنة والباردة، وثالثة للطعام، بل وحتى للورود في المستشفيات، هناك سيارات تجر شققًا مفروشة، غرفة طعام ومعيشة بها تلفاز وطاولات وثلاجة وفرن، وفي المساء تصبح غرفة نوم تتحول فيها المقاعد إلى أسرة للنوم، حياة توفر عليك عناء القيام من مكانك، لأن كل شيء يتم بالتحكم عن بعد (ريموت كونترول).

فريق في الجنة وفريق في الصحراء

من رأى صور الأوروبيين الذين تعرضوا للخطف في مناطق صحراوية، واضطرت حكوماتهم إلى دفع مبالغ باهظة لإطلاق سراحهم، لابد أن يشاهد هذا المكان بأعينهم الزرقاء، لأن أعيننا البنية أو السوداء لا تشاهد ما يرونه.

وصف لي أحدهم العاصفة الرملية قائلاً: «تشاهد إصبعًا ضخمة تلوح في السماء متوعدة، فجأة تظهر له أخوات، أصبع تلو أخرى، ثم تستدير الأصابع أمام قرص الشمس، ثم تغطيه، نعم تغطي الكون كله، ترى رمالاً وراء رمال، تسمع أزيزًا في الجو، كأنما تزّن ملايينَ الذبابات، يرتفع الصوت، ويتحول إلى زمجرة، وتتحول الكتلة الرملية الهائجة إلى مارد عملاق، يلفنا بأذرعه، يهزنا بعنف، يكاد يقلعنا من الأرض، يتوقف قانون الجاذبية الأرضية، ويتسرب الرمل الناعم من اللثام الذي يغطي الأنف والفم، تستنشق رمالاً فوق رمال، تملأ الرمال رئتيك، أذنيك، عينيك، تتحول الدورة الدموية إلى دورة رملية، دقات قلبك تشبه دق الطبول المكتومة، وصوتك يضيع بين صراخ الكون، وتشعر أنك مخلوق من طين، جفت ماؤه، فأصبح ترابًا».

أستنشق بعمق الهواء الألماني النقي الخالي

من الرمال. وأسأله عن سبب هذا الجنون المتعمد، فيرد «أدرنالين. الرغبة في رفع درجة التوتر إلى أقصى حد، هو تحد لمعرفة الخط الأحمر للذات».

قالت أخرى «في كل مرة تفتح الطائرة أبوابها، ويلفحني الهواء الساخن، أتحسس جواز سفري، وبطاقة العودة. وما دمت مطمئنة لأن هذه الفترة مؤقتة فقط، عندها أشعر بالمغامرة، والمتعة هي بالنسبة لي مثل الفلفل الحار. لذيذ طالما هو قليل، ولكن لو أصبح هو الطعام الأساسي، فلن أطيقه أكثر من مرة».

حكت مجموعة سافرت بالسفينة من أوروبا إلى تونس، ثم بالسيارة من هناك إلى الجزائر، وبعد أن وصلوا قال لهم موظف الجوازات: إن هناك ختمًا ناقصًا في أوراق السيارة، ولابد من الحصول عليه من السفارة الألمانية في تونس، قبل دخول الأراضي الجزائرية، عادوا أدراجهم في رحلة بائسة استغرقت سبع ساعات، واضطروا للمبيت، ثم وضعوا عشرة أختام في كل الأوراق على سبيل الاحتياط، وبعد أن عادوا للحدود، قال لهم موظف الجمارك: إن هذا العناد، كان انتقامًا لإلحاق فريق كرة القدم الألماني هزيمة بفريق الجزائر، قبل سنوات طويلة».

ثم تذكر بعضهم كرم الضيافة التي لا مثيل لها، والتي تتحول في بعض الأحيان إلى عبء ثقيل، فلا تستطيع أن تتحرك خطوة واحدة دون مضيفك، ولا تستطيع أن تتوقف عن الطعام، إلا بعد تجربة كل صنف، ويأتي جيران صاحب الدار الذي استضافك، ليتفرجوا على الضيوف، ولا بأس من أن يستعرض كل منهم الجمل القليلة التي يعرفها بالإنجليزية، ولا تستطيع أن تلتقط صورًا لجمال الطبيعة، والجبال الشامخات، دون أن يلصق الأطفال أنوفهم بعدسة الكاميرا، ويحاول بعضهم انتزاعها، حتى يثبت لك أنه يعرف التصوير أيضًا، ولا يكون هناك مهرب إلا بتحديد موعد للقاء بعد عدة ساعات، وأنت موقن أنك لن تذهب، بل ستركب السيارة وتشق طريقك



بعيدًا عن الكرم المتعب للضيوف.

الصحراء لتجربة السيارات ذات المحرك الرباعي

يطلب أحدهم الكلمة ليكشف أن الكثيرين ممن يزعمون عشقهم للصحراء والطبيعة الخلابة، مخادعون لا يهمهم إلا المغامرات بالسيارات الحديثة ذات المحرك الرباعي، يتسلون برؤية الآخرين حين تدور عجلات السيارة، ولا تتحرك من مكانها، ليبينوا قدرات سياراتهم التي تصعد التلال، وتهبط السهول، تسير على الطرق الإسفلتية، والرملية، على شواطئ البحار، وفي الوحل، يأتون إلى الطبيعة الناعسة، حتى تفيق من سباتها، يمشون على الرمال التي لا أثر فيها للحياة، ليخطوا فيها الأشكال المطبوعة على سطح إطارات سياراتهم، ونعل أحذيتهم، كأنما تطأ أقدامهم سطح القمر.

وبعد هذه المغامرات الساذجة التي تعج بالنشاز، حيث لا يتحقق فيها الانسجام بين الطبيعة الصحراوية وهذه الماكينات المعدنية، يمر عليك قطيع من الجمال، شامخ الرأس، ينظر إليك بشماتة، ويحرك فكيه مثلما كان أجداده الجمال يفعلون، يمر الزمن وهو يمضغ ما في فمه، أو يجتره ليعيد مضغه، والأعرابي الجالس فوقه يمدد رجله بهدوء أكثر من الجمل الذي يمتطيه.

تتساءل هل نحن هنا في القرن الحادي والعشرين، أم أن عقارب الساعة قد أخطأت الاتجاه، وعادت إلى العصور الوسطى، ربما حدث ذلك، فالهاتف النقال لا يلتقط ولا يبث شيئًا، والمذياع يكرر نفس الأخبار، التي استمع إليها آباؤنا من قبل، عن افتتاح مشاريع جديدة، وبأن الخطة الخمسية بدأت تؤتي ثمارها، وحتى التلفاز يستعرض الاختلافات: هل نتناول الخل أم لا؟ وهل التأمين التجاري حلال أم حرام؟ وهل سيمكن توحيد بداية رمضان؟ والخلاف على جواز السفر العربي الموحد.

عملية تبادل

فجأة تتحرك سيدة في السبعين من عمرها، بعد طول سكون وسكوت، وتقول إنني أشعر بأني أصبح أصغر خمسين سنة وأنا في الصحراء، فانعدام الرطوبة. والشمس التي لا تغيم خلف السحابات، تجعلان اليوم أجمل إشراقًا، والصحة أفضل بكثير.

اقترحت عليها أن تعلن عن أكبر عملية «تايم شير» في التاريخ. ألا وهي انتقال شعوب أوروبا بأكملها، إلى إفريقيا، حيث «الشمس الجريئة، والضحكة البريئة»، وفي المقابل يزحف سكان إفريقيا إلى أوروبا، بعد أن سئموا الصحراء، ليعيشوا في الخضرة البديعة، وحتى ترى أعينهم ألوانًا كثيرة، بدلاً من اللون الأصفر، فقبلت ورحبت وفعلت ذلك.

مرت السنوات وأراد الأوروبيون المنتقلون إلى إفريقيا، زيارة قارتهم الخضراء، ولكن الناظرين من نوافذ الطائرات لم يصدقوا أعينهم، لهول ما رأوه، لأنهم تركوا أوروبا عامرة بالأشجار، فعادوا إليها ليجدوها قد أصبحت أوروبا الصفراء. والسبب يرجع إلى ظاهرة التصحر الناجمة عن تزايد مساحات الصحراء التي تلتهم سنويًا الكثير من الأراضي الخضراء.

تذكروا أنه أثناء الاحتفال بـ«اليوم العالمي للتصحر» في ٢٠٠٥/٦/١٧م، جرى الكشف عن دراسة تكلف إعدادها ٢٢ مليون دولار أمريكي، وشارك فيها ١٣٠٠ عالم من ٩٥ دولة، توصلت إلى أن عواقب التصحر المتنامي على مستوى العالم وخيمة، وتمس حياة ملياري شخص.

إن ظاهرة التصحر لم تعد تقتصر على العالم الثالث فحسب، بل إنها تشق طريقها إلى أوروبا، وبدأت ملامحها تظهر بوضوح على إسبانيا، التي تعاني الجفاف، مما يهدد بأن تتحول ثلثا أراضيها إلى صحراء.

علموا أولادكم

علموا أولادكم في الصغر أن يدققوا النظر في الصحراء، كثبان رملية ذات أشكال بديعة، رمال ذات ألوان مختلفة، ونباتات وحيوانات تتكيف مع الظروف المعيشية القاسية، السكون الذي يجعل الإنسان يخلو بذاته ويفهمها بصورة أفضل، ثم إذا حان المغيب تأمل الشمس الحمراء، ثم استلق على ظهرك وعدّ النجوم، لتكون صادقًا حين تقسم أنك سكنت في فندق ألف نجمة ونجمة.■



إنسان الجزيرة العربيَّة والصحراء

إنْ قهر الصحراء تحضَّر، وإنْ قهرته تبدَّى

حسين محمد باقفيه* - الرياض

* ناقد سعوديّ.

تبرز الصحراء في الوعي والمخيلة مَجْمَعًا للنقائض، منسجمة مع طبيعتها المراوغة المتقلّبة، فهي لا تسكن حينًا حتّى تثور، ولا ترضى لحظة حتّى تغضب، تفرح فيتحوّل الكون إلى مسرح شعريّ رائع، وتغضب ويكون في غضبها الهلاك والشقاء، وهي في حاليْ الرضا والغضب تثير مكامن النّفس وغرائزها في الحبّ والكره، وكأنّها، نصّ قابل لتأويلات المادحين والقادحين.

فحين المدح لا أحنّ ولا أرقّ من أرضها البِكْر. حيث الطبيعة الفاتنة تجلّي جانبًا من عبقريّتها. فلا صخب ولا ضجيج مما تحفل به المدن «الكئيبة»، وحيث يتوحّد الإنسان بالطبيعة صامتةً وناطقةً. وحيث الشعر والرومنسيّة وسحر الشّرق.

أمّا أهلها فدونك سيلاً من العبارات المدبّجة في خصالهم وسجاياهم، أصالةً، وشهامةً، وكرمًا، وحميّةً. استفزّتهم الصحراء بحرّيّتها، فطلبوا النُّجعة فيها فوزًا بها، وتأبّت نفوسهم أنْ تذلّ لغاز أو عدوّ.

وحين القدح تكشف الصحراء عن وجهها الدميم، غادرةً، شرسةً، لا تعرف الوفاء، عقدت مع الجفاف والسموم صفقة، وتتبّعت مواطن المدن وآثار الحضارة، فما نشبت أن ابتلعتْها رمالها الملتويّة المتقلّبة. أمّا أهلها فقاطعو طريق، أعداء الريف والمدن، قساة، جفاة، غلاظ، أعراب.

وبين المدح والذمّ يترجّح العرب وثقافتهم ولغتهم، فبينما اتسعت العربيّة كاتساع صحرائها، وأخرج أبناؤها شعرًا ونثرًا ثبتا أمام نيوب الدّهر وصروفه، وقامت ثقافتهم على قيم الكرم والشهامة والنُّبل والفروسيّة- إذا هم -حين القدح- سبب كلّ بليّة، وأصل كلّ شقاء، فلغتهم بدويّة صحراويّة، وجماع ثقافتهم العصبيّة، أمّا أدبهم فبدائيّ، ينقصه الخيال الخصب، وتعوزه الوحدة والتناسق، وأبناؤها بدوٌ ولو تحضّروا، وكأنّ الصحراء قدرهم الذي يتْبعهم أينما حلّوا أو انتجعوا، ففي الصحراء حياتهم، وفي الصحراء موتهم وهلاكهم!

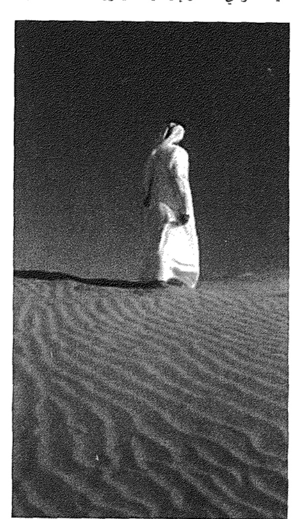
وبين مدّ الصحراء وجزرها تتلخّص قصة الجزيرة العربيّة: صعودها وهبوطها، فالصحراء الحقيقة الجاثمة عند كلّ ثنيّة، وخلف كلّ واحة، والحرب بينها وبين قاطنيها سجال، ولا يُطْمَأَنّ إلى «هدنتها»، وإلا لالتحف أبناؤها الهجير، واكتوَوا بالسموم، ولأضحى ظاهر «مدنهم» في باطن الصحراء وجوفها الذي يظلّ يلهث هل من مزيد؟ ولا يقرّ لها قرار إلا إذا أمعن أبناؤها في إثخانها وهزيمتها، ولن يتمّ ذلك إلا بضرب العمران في أطنابها، وشلّ حركتها بشقّ الطرق، ورأب الفجوة بين المدن التي تنتهبها رمالها الحمراء، وأنْ تصبح هي هويّة المكان لا هويّة قاطنيه.

ولقد أخذ نفر من الدّارسين، وأبرزهم سعد البازعيّ في كتابه «ثقافة الصحراء»، بتتبُّع مواطن «هويّة» الأدب في المملكة، وكان رائده في ذلك ما استجلاه في عدد من النصوص الشعريّة والقصصيّة التي تماسّت مع الصحراء وما تبثُّه مفرداتها من عوالم القيظ والجفاف والترحُّل، وما يرومه ابن الصحراء من استمطار السماء، وطلب الغيث، والبحث عن مواطن الخصب والاخضرار والانبعاث الطبيعيّ، حيث يصبح الأثر الأدبيّ -قصيدة كان أو قصّةً- ترتيلةً تسكّن ثورة الصحراء، وتسكت غضبها، وهو ما عدّه البازعيّ ملامح أولى لـ«هويّة» طالما فتّش عنها أدب الجزيرة العربيّة، ووجدها، بأخرة، في الصحراء ورموزها، فتبدو في الأفق «ثقافة الصحراء»، هذا المصطلح الذي يوجز في اعتقاده

«تفاعل كثير من مبدعينا مع ذلك العالم السديميّ الممتدّ بغموضه ورهبته وتقلُّباته. عالم الرمل الراحل أبدًا. والصحراء الجرداء، والمطر الشحيح الذي لا يعرف جدولاً ثابتًا. المطر الذي يأتي ولا يأتي».

ولا يقف البازعيّ عند حدود النظريَّة والمصطلح، فالغاية التي يرمي إليها هي الكشف عن تمثُّلات الصحراء ورموزها في أدب الحداثة في المملكة، وهو لذلك يتتبَّع سياقاتها، ليصل إلى ما يمكن عدّه المحرِّك الإبداعيّ لأدب الحداثة في المملكة، الذي ليس هو في الأخير -فيما يقرِّر- سوى الصحراء، التي تتجاوز، في قراءته، التجربة الأدبيَّة، فتتحوَّل من «الممكن» إلى «الواقع»، أي من التجربة الإبداعيَّة إلى «الهويَّة الثقافيَّة». التي ليست هي في الأخير سوى العلاقة بين «الجغرافيا» و«الإنسان». يقول:

«لقد اتضح لي من متابعة ما أنتجه الجيل الجديد من الشعراء والقصَّاصين السعوديّين أنَّ خيط الوعي المشار إليه يكاد يكون قاسمًا مشتركًا



للكثير من إبداعاتهم. ثمَّة نصوص كثيرة في الشعر والقصَّة القصيرة ممَّا أنتجه ذلك الجيل تتميَّز بأنَّ الوعي المجتمعيّ والإنسانيّ عمومًا فيها يتشكَّل من خلال الوعي بخصائص البيئة الجغرافيَّة».

وعلى الرغم من أنَّ سعد البازعيّ لا يتوسَّع في بيان هذه «الهويَّة»: فإنَّ الذي توحي به كلماته إيمانه بـ«الحتميَّة الجغرافيَّة» التي تذعن لها مشيئة الثقافة والإبداع، ولا يستطيع أحد منها فكاكًا. ومن هنا كان إلحاحه على هذه «الهويَّة» التي جاءت وليدًا طبيعيًّا لـ«الصحراء» الجرداء. وهو في نزوله على شرط «الحتميَّة الجغرافيَّة»، كان أميل إلى «الكلّيّ» و«العموميّ» و«الظاهريّ» لجغرافية الجزيرة العربيَّة، دون أنْ يلتفت إلى التضاريس المختلفة لها، ودون أنْ يقف عند التنوُّع الثقافيّ لبيئاتها المتنوِّعة. فكانت حتميَّته الجغرافيَّة مجرَّدة، لا يستقيم لها في الواقع أساس، دون أنْ يعني ذلك نفي الحقيقة الصحراويَّة فهي ماثلة أنَّى اتجهنا، ولكنَّ حضورها مرهون بالصراع الأبديّ بينها وبين الإنسان، وفي هذا التدافع الأبديّ تكمن قصَّة إنسان الجزيرة العربيَّة: إنْ قهر الصحراء تحضَّر، وإنْ قهرته تبدَّى.

وعلى الرغم من أنَّ الصحراء هي الخطر الجاثم على قلب الوطن العربيّ من المحيط إلى الخليج، حيث تحتلّ الصحراء ما يزيد على ٨٠٪ من مساحته؛ فإنَّها كانت ولا تزال العلامة الفارقة للجزيرة العربيَّة، والعنوان الأبرز لها، فخلف كلّ مدينة عربيَّة صحراء تفغر فاها، وفي كلّ بلد عربيّ عطش وجفاف، غير أنَّ لكل منها علامة أو سمة: فمصر هبة النِّيل، والعراق بلد الرافدين، ولبنان قرين شجرة الأرز، وفلسطين سلَّة الزيتون، وتونس الخضراء، وإنْ كانت الصحراء تتسكَّع على مقربة من كلّ مدينة عربيَّة تنتظر الفرصة سانحة للانقضاض عليها «إذ ليست هناك أيّ مدينة عربيَّة مهمَّة في كلّ الوطن العربيّ تبعد عن الصحراء مئة كيلو متر». (التأزم السياسي عند العرب، محمد جابر الأنصاريّ، ص٥٥).

وإذا كانت الصحراء هي العلامة الفارقة للجزيرة العربيَّة، أو هي السمة الجغرافيَّة العامَّة لها، فإنَّ ذلك هو المظهر الأوَّل لها. وإلا فإنَّ الجزيرة العربيَّة ذات تكوين جغرافيّ متنوِّع، فأرضها تتألَّف من مساحات صحراويَّة شاسعة، أشهرها صحراء النفود

والدهناء والربع الخالي، يتخلّلها واحات وهضاب، أهمّها وأظهرها هضبة نجد «التي ترتفع عن سطح البحر زهاء أربعة آلاف قدم، والتي تكسو أغلبها مراعٍ خصبة، وتنتشر فيها الأشجار» (شعر الصعاليك، يوسف خليف، ٦٩)، وتمتدّ جبال السروات من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب محاذية البحر الأحمر. واشتهرت بعض مناطق الحجاز بخصبها واعتدال جوّها، ووفرة الخضراوات والفواكه فيها، حتّى سمّي الطائف في الجاهليّة «بستان مكة». واشتهرت المدينة المنوّرة منذ عهودها القديمة بزراعة النخيل. أمّا اليمن فامتازت في العصور القديمة بخصب أرضها، ووفرة مياهها، وهيّأ ذلك لقيام حضارة عظيمة ونظم مدنيّة فيها، وألقى ذلك كلّه بظلاله على طبيعة الحياة في الجزيرة العربيّة، ومعاش أهلها، ما بين سكان المدن، والقرى، والأرياف، والضاربين في كبد الصحراء ينتجعون المهامه والفيافي، حيث وُجد الماء والكلأ، فكان ما كان من اختلاف القوم في العمران بحسب اختلاف نحلتهم في المعاش.

ولم يكن أثر هذا التنوّع البيئيّ، وضروب العيش، وأنماط القول بخاف فيما تناوله العلماء في التراث العربيّ القديم. فلقد أدركوا أثر الاختلاف في الشعر، ما بين البادية والجبل والمدينة، ومن ذلك أنّ ابن سلام الجمحيّ أفرد في كتابه «طبقات فحول الشعراء» شعراء القرى العربيّة -وهي المدينة المنوّرة ومكة المكرّمة والطائف واليمامة والبحرين- في طبقة على حدة، وكأنّ هناك شعورًا عميقًا باختلاف شعر هذه الطبقة عن سائر الطبقات، ولعلّ مقولة ابن سلام في عديّ بن زيد تجلّي طرفًا من الجدل حول الحضارة والبداوة في الشعر العربيّ القديم، حينما لم يعتدّ به لأنّ «عديّ بن زيد كان يسكن الحيرة، ويراكن الريف، فلان لسانه وسهل منطقه».

والصحراء هبة الجفاف والقيظ والمحْل والعطش، وعن هذه الحقيقة الجغرافيّة تتمخّض البداوة، بصفتها، كما يسمّيها علي الورديّ، نظامًا اجتماعيًّا لا ينشأ إلا في الصحراء، وهو لا يتغيّر أو يتطوّر ما دام باقيًا فيها، فإذا خرج منها إلى بيئة أخرى وأخذ التغيير يظهر فيه تدريجًا، وقد يتّجه عند ذاك نحو الزراعة أو التجارة أو الصناعة حسب مقتضيات الظروف» (الأنصاري، ص ٦٩-٧٠)،

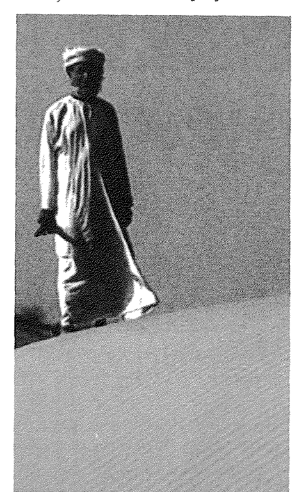
وبين مدّ الصحراء وجزرها تتلخّص قصة الجزيرة العربيّة: صعودها وهبوطها. فالصحراء الحقيقة الجاثمة عند كلّ ثنيّة. وخلف كلّ واحة. والحرب بينها وبين قاطنيها سجال. ولا يُطْمَأَنّ إلى «هدنتها». وإلا لالتحف أبناؤها الهجير. واكتووا بالسموم. ولأضحى ظاهر «مدنهم» في باطن الصحراء وجوفها الذي يظلّ يلهث هل من مزيد؟

وأوجدت الصحراء، جرّاء ذلك، بناءها الاجتماعيّ، المقترن بقيامها على اقتصاد الكفاف، وهو اقتصاد حادّ يحول دون تحقّق فائض القيمة الذي ينتج عنه قيام مجتمع الرفاه، وسيكون طبيعيًّا قيام القبيلة بناءً لذلك المجتمع، فلن يوقف غائلة الصحراء، سوى الالتفاف حول القبيلة التي تعني لإنسان الصحراء الوطن حيث لا وطن والملجأ حيث لا ملجأ. و«هكذا أصبحت بوتقة النسب والأصل القبليّ للإنسان البدويّ في متاهة الصحراء القاحلة الموحشة هي الرحم والسياج وهي الانتماء والهويّة والولاء، بل هي حدود «الوطن» الحقيقيّ (الوطن-الجماعة، لا الوطن-الأرض) ورمز الشرف «الوطنيّ» (شرف الجماعة) الذي يجب الدفاع عن حياضه والموت في سبيله (في غيبة الوطن الثابت على الأرض)». (الأنصاري، ص ٧٥-٧٦) ومن تدافع القبائل، كرًّا وفرًّا، يغيب الاستقرار، وتضمحلّ الدولة، فـ«الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قلّ أنْ تستحكم فيها دولة» -فيما يقرّر ابن خلدون-.

وحين تحضر «الدولة» تتقلّص الصحراء، وتنكمش البداوة، فالصحراء والبداوة الخطران اللذان يحيقان بالدولة والمدينة. هذا مجمل ما تقرّره التجربة الإسلاميّة الأولى، وهي تسعى إلى تأسيس

مفهوم «المدينة» حيث يمثِّل الانتقال إليها انتقالاً من «الكفر» إلى «الإيمان»، ومن «البداوة» إلى «الحضارة»، فالدين تجربة «مدينيَّة» خالصة، يقوم بها أنبياء ينتمون إلى السياق الحضريّ. هذا ما تؤكِّده الآيات القرآنيَّة، كقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى﴾ (يوسف:١٠٩): «والقرى هي المدن في المصطلح القرآنيّ كوصفه مكة المكرَّمة بأمّ القرى. وقد ورد في تفسير ابن كثير لهذه الآية: «ولمَّا كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولاً، وإنمَّا كانت البعثة من أهل القرى، والمراد بالقرى المدن... والمعهود المعروف أنَّ أهل المدن أرقّ طبعًا وألطف من أهل بواديهم... ولأنَّهم أعلم وأحلم». (الأنصاريّ، ص١٢٠).

وبلغ الأمر بالإسلام أنْ اتخذ موقفًا صلبًا تجاه البداوة والأعرابيَّة، بصفتها نمطًا معاشيًّا، «وهذه الصفات التي لا تلائم الحضارة ولا توائم سنن التقدُّم في هذه الحياة، هي التي حملت الإسلام على اعتبار «التبدِّي» أي «التعرُّب» بعد الهجرة ردَّة على



بعض الأقوال وعلى النهي عن الرجوع إلى البادية والعيش بها عيشة أعرابيَّة. فلمَّا خرج «أبو ذرّ» إلى الربذة قال له عثمان بن عفان: «تعاهد المدينة حتَّى لا ترتدَّ أعرابيًّا». فكان «يختلف من الربذة إلى المدينة مخافة الأعرابيَّة» (المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ٢٨١/١). وفي الحديث: «ثلاث من الكبائر منها التعرُّب بعد الهجرة» (جواد علي، ٢٨١/١)، و«من بدا جفا». فالإسلام دفع بالحياة العربيَّة إلى الحضارة والتمدُّن، ومن مظاهر ذلك «الجمعة» التي لا تقام -بحسب بعض المذاهب الفقهيَّة- إلا في المِصْر -أي المدينة-، ومن الأحكام الفقهيَّة أنَّه «لا تجوز شهادة بدويّ على صاحب قرية» -أي مدينة-.

وكما حضرت الصحراء بقيظها وجفافها، والهلع منها، والتزلُّف إليها، في طائفة من النصوص الشعريَّة والقصصيَّة، فإنَّ ثمَّة حضورًا آخر -داخل التجربة الحداثيَّة وخارجها- للمدينة وأجوائها الإنسانيَّة الخلاَّقة، والبحر، والجبل، والريف، يثري التنوُّع الأدبيّ والاجتماعيّ للجزيرة العربيَّة: إنسانًا وثقافة، وبدا ذلك في عدد كبير من الدواوين والمجاميع القصصيَّة والروايات. نرى ذلك واضحًا في تجربة غازي القصيبي مع اللؤلؤ والماء، في أوَّل دواوينه «أشعار من جزائر اللؤلؤ» -حيث النخلة والبحر هما العلامتان الفارقتان لجزيرة البحرين- وكتاب «ساحل الذهب الأسود» لمحمد سعيد المسلم، و«المركاز» لأحمد قنديل، و«سقيفة الصفا» لحمزة بوقري، و«وحي الشاطئ» لمحمد إبراهيم جدع، و«قصائد من الجبل» لمجموعة من شعراء عسير... إلخ. أمَّا أنْ تكون «الصحراء» وحدها، هي «الهويَّة الثقافيَّة» للجزيرة العربيَّة، فإنَّ من المذهل أنْ تتحوَّل هذه «الهويَّة» إلى موقف سالب لمفهوم «الوطن» أو «الدولة»، خاصَّة أنَّ بعض القصائد التي يحتفي بها سعد البازعيّ لا ترى لها من وطن سوى «الصحراء».

وهذا ما يعني أنَّ الثقافة الممكنة هي ثقافة التنوُّع والتعدُّد، وأنَّ الاستثمار الحقيقيّ للقيم ينبغي أنْ يُصَبَّ في تيَّار يكفل التنوُّع والتعدُّد، وأنْ تصل المدينة وقيمها الإيجابيَّة إلى الصحراء والريف والسهل والجبل، وأنْ نعرف أنَّ كلّ خيال الرومنسيّين يتلاشى حينما تغازل الصحراء مدننا، ولو لدقائق معدودة، بريح السموم! ■



المعرفة

المجلة «الثانية» في العالم العربي

هل «الصحراوية» عيب أو مثلبة ؟

أمة الصحراء

سلمان العودة* - القصيم

طلبت إليّ «المعرفة» أن أكتب عن التصحر الديني. ولكني لم أشأ ذلك، وقلت أراجع محفوظاتي أحسن!

كان الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي يقول في نشيدته:

إنما الإسلام في الصحرا امتهد

ليجيء كل مسلم أسد



*داعية إسلامي رئيس موقع الإسلام اليوم .

ليس كالمسلم في الخلق أحد

ليس خلق اليوم، بل خلق الأبد

معنى جميل بادئ الرأي، لكن يحتاج إلى إعادة نظر ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾... وإذا كان خلق الرحمن لا تفاوت فيه، فخلق الإنسان ليس كذلك.

ولأنت تفري ما خلقت

وبعض القوم يخلق ثم لا يفري..

كيف نشبه المسلم بالحيوان المفترس؟ ولو كان الحديث عن فئة فحسب، أو عن حالة خاصة كالحرب، لكان للأمر مساغ. لكن (كل مسلم!) و(خلق الأبد).. الأمر إذًا غير مسلّم.. فالأحوال شتى، والطبائع متنوعة، وثمة للكرم حال، وللشجاعة حال، وللتسامح أحوال.

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا

مضر كوضع السيف في موضع الندى

وقد كان في وصف محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة: ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح. والإسلام امتهد بمكة ثم بالمدينة، ولم تكن صحراء، كانت مدنًا عامرة، ومياهًا جارية، والناس يغشونها من أنحاء الجزيرة، وأهلها آلفون مألوفون ﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾ إلى الشام، وإلى اليمن.

كانت مدينة «معولمة»، ثم جاء الإسلام، فصارت مركز الأرض تغشاها الوفود من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم..

وانساح الإسلام في أرجاء الأرض، دين المدينة والحضارة، وتعامل مع الأمم المختلفة بالشام ومصر والمغرب والأندلس وأوروبا، واستوعب علوم الأمم السابقة، وأنضجها وطورها، حتى صارت كتب المسلمين تدرس في جامعات الدنيا، ومهدت لظهور الحضارة الحديثة العظيمة بتقنياتها ومادياتها، الضامرة بروحها وقيمها..

ولعل آخر تطورات التقنية الرقمية ما يسمى بالتقنية الحيوية المتعلقة باكتشاف خريطة الجينات (الجينوم)، والاستنساخ ومعرفة الأمراض المستقبلية وحلولها.. وهو العلم الذي نبغ فيه المسلمون وأبدعوا.. فالعقل الإسلامي عقل حر قادر على الإبداع والتفوق.. وخموله في هذه الفترة جزء من السنة الإلهية. وعليه أن يتهيأ لاستعادة دوره المنشود، بعيدًا عن التقليد، تقليد الماضي، أو تقليد الآخر...

والشاعر الهندي المسلم محمد إقبال فيلسوف عظيم، ومفكر ناقد، كان حي القلب، فصيح اللسان حين قال:

أمة الصحراء يا شعب الخلود

من سواكم حل أغلال الورى

أي داع قبلكم في ذا الوجود

صاح لا كسرى هنا لا قيصرا

من سواكم في حديث أو قديم

أطلع القرآن صبحًا للرشاد

هاتفًا في مسمع الكون العظيم

ليس غير الله ربًا للعباد

لا تقل أين ابتكار المسلمين

واشهد الحمراء واسأل حسن تاج

دولة سار ملوك العالمين

نحوها طوعًا يؤدون الخراج

دولة تقرأ في آياتها

مظهر العزة والملك الحصين

وكنوز الحق في طياتها

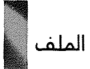
دونها حارت قلوب العارفين

وهنا يكون إقبال قد تفوق على الرافعي. وقصيدته الملحمية (شكوى وجواب شكوى) تشهد بهذا..

فهو لم يختصر تاريخ المسلمين بالقوة العسكرية، بل توخى شمولية الرؤية للإبداع الحضاري المتنوع في مجال العمارة والبناء، والقيم والمبادئ، كالحرية والعدل وحفظ الحقوق. فضلاً عن القوة الحصينة..

لم تكن الصحراوية عند إقبال عيبًا أو مثلبًا، بل وظفها إيجابيًا ليكشف عن عبقرية الخلاص من وطأة البيئة ومحدوديتها، والانفتاح على (العالمين)، والخروج من ظلمة الجهالة والتخلف عبر بوابة (اقرأ)، إلى قمة تنقطع دونها (قلوب العارفين).

والحمد لله رب العالمين.■



عقدة تحركنا باتجاه معاكس

ناستالوجيا الصحراء

بدرية البشر* - الرياض

* كلية الآداب - جامعة الملك سعود.

الصحراء في وصفها الجغرافي والمناخي شخصية متطرفة تميل للأشياء حيث منتهاها فهي تغيب في اللون حتى لا تكاد ترى غيره أو تتلون حتى تراها قطعة من الجمال، شديدة البرد شديدة الحر، عطشى مرات وتسيل بالماء العذب مرات. الصحراء لا لون لها لكنها في نفس الوقت ملونة. كما أنها ليست في كل الأماكن صحراء واحدة. شاهدت صحراء الربع الخالي وعجبت لمن سماها الربع الخالي ففيها شجر وطير وحيوان وحتى ينابيع الماء الكبريتية والعذبة. وقرأت عن أوصاف الصحراء عند إبراهيم الكوني فعرفت أن الصحراء تجيد صناعة المتعبدين لله بشغف ووله دون محراب كما أنها تجيد صناعة النوع الآخر أيضًا.

جغرافيًا الصحراء تكاد أن تكون هي العذاب وتكاد أن تكون هي الرحمة والشفقة، هي السكون والصمت وهي الضياع والتيه، هي سماء القمر المستدير للعاشق الولهان، وهي الفوضى العابثة لحاقد وطالب ثأر. ولأننا بين مترادفات ومتناقضات فلن أتمكن من الحديث عن الصحراء هكذا مجازًا، وعبر هذه الفوضى من التأملات بل سأحاول الحديث عما أعرفه ولو كانت معرفة متواضعة تحاول الاقتراب من الواقع المعاش قدر ما أستطيع.!

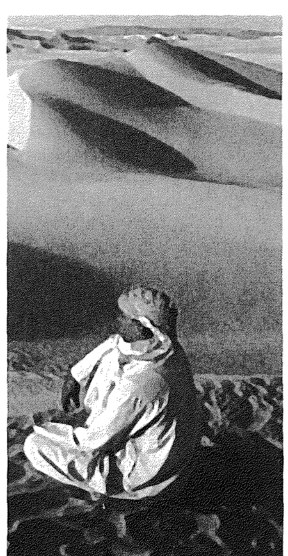
مجتمع نجد الذي عشت فيه ودرسته ليس مجتمعًا صحراويًا خالصًا وإن عاش في ظل قيم شديدة التصحر والبداوة بل هو خليط بين الريف وبين البادية تجمعهما بلا شك قيم مشتركة لكنهما لا يتقاربان بود، فطرف يرى في الآخر الخشونة والقسوة وطرف يرى في الآخر الليونة والرخاوة، وطرف يرى في الآخر شدة التمسك بالأرض المهينة لقيم الحرية والأنفة والعزة بالنفس وطرف يرى في الآخر التمرد والعناد والجبروت!!

وأحيانًا تصبح معايب قوم عند قوم محاسن. لكن هذين المجتمعين ينصهران اليوم ليشكلا مجتمعًا من القرى والمدن مجتمع الاستقرار والدولة والقانون والمؤسسة، فماذا بقي للصحراء فينا غير تلك البواقي التي نحن إليها كلما رشت السماء بعض مائها هرعنا نفرش بسطنا وترامس قهوتنا ننصب الخيام، ونشب النار تلمسًا لآخر معنى بالحرية الشاسعة تتنفس فيه حواسنا ونحن للزمن الماضي.

لا تستطيع معرفة كيف تتمثل الصحراء بتطرفها في طباعنا إلا حين نختبر المغاير لها. فلو زرت مدينة أوروبية أو أمريكية مثلاً، وشاهدت تنوع بيئتها، لو قمت فقط بعّد الألوان المدهشة التي يشع نقاؤها في عينيك لوجدت أن سماءها زرقاء بكل أطياف الأزرق، وخضرة الشجر والأنهار والبحار والزهر والورد حتى البيوت تأخذ من هذه الطبيعة تلونها فتكتسي معظمها بالخشب والطوب الملون، حتى الفصول في تلك المدن لها ألوان فشتاؤهم أبيض مشع وصيفهم أزرق وربيعهم أخضر وخريفهم ملون. وهذا التنوع يمنح طباعهم وطريقة تفكيرهم التنوع ذاته فتجد فيهم اللين والمودة، والتسامح، لديهم قبول أكبر

للتعددية الفكرية وأحكامهم ليست قطعية. تنجح في بلادهم الديمقراطية وتمر بهم مواسم من الفوز والانتخاب ولديهم قاعدة عريضة لقبول الآخر. بينما تجد فينا حدة الصحراء وتطرفها وخشونتها مقارنة بالآخر الذي يتمتع بالتنوع.

خذ مثلاً المواقف من المرأة الصحراوية في ثقافتنا، فرغم أن المرأة هي كائن منتج في الصحراء أو الريف إلا أنها في الثقافة الصحراوية لا تقبل إلا بمفهوم الإنجاب وتزويد القبيلة بالمحاربين وفي هذا الميزان تخسر المرأة الموقع الأهم في السلم القبلي، فهي شرف القبيلة الذي يجب أن يظل تحت الحصار حتى لا يلحقه العار. وعندما تغير مجتمع الصحراء إلى مجتمع المدينة وأصبح بناؤها لا يحتمل هذا التغييب، وبعد أن فتحت الدولة المدارس للبنات، ورصدت لعملية تعليمها الملايين، بل حظيت مثل



الرجل بالبعثات التعليمية للخارج برفقة زوجها أو والدها، وتزودت بالعلم والمعرفة وأصبحت مؤهلة للعب دور هام في تنمية المجتمع الذي لا غنى له عنها لتلعب دورها فيه كمعلمة وطبيبة ومهندسة ومحامية وصحافية وكاتبة وأديبة، فوجئت المرأة بأن المتاح هو دور محدود الهدف منه ألا يزعزع طمأنينة المجتمع ولا يطرد النوم من عينيه كلما جيء على ذكر النساء وحقوقهن التي تلبست فيه هذه الكلمة بأوصاف مبتذلة لا تتفق مع مفهوم الحقوق الإنسانية والإسلامية.

كثير من القيم أنتجتها الصحراء قديمًا كنظام أمني لحماية الفرد فيها والحفاظ على مصلحة القبيلة العائلة الممتدة، مثل قيم الزواج بابن العم، فهذه القيمة مثلاً في الصحراء كان لها مقابل موضوعي، وفعالية هامه فلو خرجت المرأة عن قبيلتها ثم حدث خلاف وصراع، وغالبًا ما يحدث تبعًا لقانون الصراع على الماء والمرعى كثروتين ناضبتين فإن المرأة التي ذهبت لقبيلة أخرى ستجد نفسها تزود قبيلة زوجها أعداء قبيلتها بمحاربين يقاتلون ضد أخوالهم! والقرية حرصت على هذه القيمة حتى لا تتوزع الأرض وتتقسم وتضعف عائداتها لو خرجت المرأة إلى أسرة بعيدة وأقتضى تقسيم الميراث أن تأخذ المرأة نصيبها بعد موت والدها، كذلك إكرام الضيف وإغاثة الملهوف واجارة المستجير، كل هذه القيم اليوم التي كانت من الأخلاق الكريمة أصبحت تواجه في مجتمعنا اضطرابًا وصراعًا في ظل الاستقرار والعمل الفردي وغياب دور القبيلة لصالح الوطن. وقيم الولاء للقبيلة لصالح وعي الفرد واحترام حقه في الاختيار، واحترامه للقانون، وللمؤسسة، لكن الصحراء تبقى فينا بقيمها بئرًا من اللاوعي يرشح بالرومانسية تختلط فيها مفاهيمنا بين إدانتها وحبها، ولائنا لها أو ولائنا لقيم الواقع والعقل والمنطق.

الصحراء أصبحت في وعينا (ناستالوجيا) أي عقدة الحنين للماضي، عقدة تحركنا باتجاه معاكس للواقع ولحاجات المجتمع، لا زالت اليوم الصحراء تحرك شجوننا كلما سمعنا قصيدًا بدويًا، يطرب ويومئ لواقع لم يعد واقعًا بيننا، ويمجد ما ليس فاعلاً في بيئتنا، لكننا لا نقوى ولو قوينا لا نتمكن من أن نترجم هذه القناعات في مجتمع كله تقريبًا يؤمن أن خيانة الصحراء هي خيانة للقيم النبيلة. ■

إصدار خاص

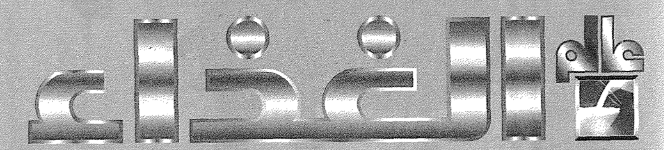
قراءنا ... معلنينا الأعزاء

ترقبوا ترقبوا ترقبوا

مفاجأة العـدد

100

من مجلة



في شعبان ١٤٢٧ هـ

لمزيد من المعلومات الرجاء الاتصال على

رونقاء للإعلان والتسويق - الرياض

هاتف ٤١٩٧٣٣٣ تحويلة ٢٥٩ - ٢٦٠ فاكس ٤١٩٧٦٩٦



هل الخليج نفط.. أم ثمة حياة؟

طالب المعمري ٭ .عُمان



٭ مدير تحرير مجلة نزوى العمانية .

(الخليج نفط) قائل يقول..(الخليج ليس نفطًا) آخر يقول. ما بين هذين الطرحين الحادين في إشارتهما نحو الجزم بهذا أو ذاك تظهر تفاصيل وتختفي أخرى. كما هي عادة رياح صحرائنا تخفي تحتها ما تريد، وإذا أرادت تظهر ما أخفته تحتها أيضًا.. وإن طالت المدة.

هذه هي الصحراء منذ أزلها حتى مستقبلها، من الصعب أن توصف بالشر كله أو بالخير كله، لأنها معجونة بذاك الوصفين.

والحياة في الصحراء مشكوفة حد الفضيحة.. وساترة حد الحشمة.. ملتقطة بالعين المجردة وغامضة على العين حد الالتباس، كما الشعر والحكمة اللذين خلقا طازجين في كنف ذلك الأفق الصحراوي في أقصى تشكلاته وتجلياته بين قسوة ولين، في لغة عربية رصينة معبرة ودالة، مازلنا حتى اللحظة أسرى أسوارها.

إذا هنا، الصحراء خيمتنا النهائية، نحن قاطنوها بين سماء وتراب، سواء تغير بنا الحال بنفط أو بدونه.

الصحراء قصيدة تلد أخرى منذ أسواق عكاظ وذي المجاز والربد ودومة الجندل والمشقر وهجر وعُمان وصحار والشحر وعدن وصنعاء، وحضرموت، فهي تخلق حيواتها - ربما- من كل هذا الغبار. الحياة بموازاة القدر الوجودي، لحظة بلحظة، العيش الحقيقي والمتخيل.

(المصادفة ذات المعنى العميق) لعالم النفس كارل يونغ توصيف دقيق لحالتنا.

هل الخليج.. نفط؟ هل هو أرض جرداء من غير زرع ولا ضرع؟ هل هو صحراء وجبال من الرمال لا أول لها ولا آخر؟ هل هو أرض فضاء تسرح فيها الرياح والفراغ والعزلة ثم أتى النفط وغير عاليها سافلها وسافلها عاليها؟ هل هو فعلاً مختلف.. متغير.. منقلب من حال الى حال؟ إذًا تلك التساؤلات يحق طرحها الآن بقوة بعد ٧٠ سنة، ٦٠ سنة، ٥٠ سنة، ٤٠ سنة، ٣٠، من النفط ومن التغيير. فالخليج والحالة هذه ليس نفطًا فقط. فهناك حياة كانت وارتبطت بالمكان بشكلها البسيط والمتوسط، ولا يمكن رؤية الميزان بعين واحدة وترجيح كفة النفط بأنه هو وهو وحده فقط الذي خلق «الحياة» في هذه العزلة المسكونة بالصمت والسكينة التي تجرح الفؤاد. لا أحد ينكر قسوة الحياة وقسوة الطبيعة والشمس الساحقة الماحقة! مع كل هذا اليبس واليباب الطاحن كانت ثمة حيوات هنا.. هناك. ثمة قبائل تتحرك. جيوش وقادة. فرسان لونتهم الشمس بصفرتها والصحراء

بورسها. ثمة أماكن حفرت براكينها في الوجوه. عين النسر الذي تلمحه في الوجوه، والذئب الكائن الإنساني الذي يراوغ الحيل والطبيعة هو الإنسان الذي شكل حياته، ونحتها بإزميل الإرادة دون كلل أو تذمر. دون أن ترحل الأرض تحته أو يهجرها ودون أن يطوقه الزمن بالكوابيس أو ينطوي مثل لفافة في «كلندر». تذروه الأيام مثل كحل العين.

عاش الإنسان في هذه البقعة في شساعة الفضاء الصموت وكنف أمه الأرض بتموجاتها بين جبال ووهاد وصحار لا يعرفها الغريب. كانت الواحات، الحصن الذي يتخندق فيه من تلك الجبال الناعمة التي تلتهم الرواحل وكلابها دون رحمة، وكانت تراتيل السمر دفأه في ليل الوحشة حين يفرش القمر نصاله المضيئة في خواصر الكثبان. فالحياة، كانت قبل النفط، وكان شكلها البدوي والقروي السائد حينذاك، لا بحسب تصورات الآخرين بانعدامها فعلاً. حيث تساوت لديهم أحادية النظرة المسبقة والنمطية والسطحية أيضًا بأن الحياة هناك في «الخليج» اندلقت مع قطرات النفط. ومن نفس الأنبوب أيضًا. يمكننا أيضًا القول إن الخليجيين أنفسهم ساهموا وساعدوا وكرسوا هذه الحالة وذلك السلوك وهذا التصور النمطي عنهم وعن أوطانهم.

فالخليج بعد هذا العمر.. هل هو «بلدان» هل هو «أمة» أو «أمم» هل هو حالة أو شكل مادي مستورد؟ هل هو «أنابيب من النفط»؟ هل هو شوارع، سيارات، هل هو «مهرجانات تسوق»؟ هل هو معارض فلكلورية وديكور؟ هل هو هلامي من الصعب تحديده والمسك به؟

إن ما أحدثه النفط في الخليج يعتبر نقلة نوعية بكل المقاييس. لكن ما هذه النوعية؟ هل النوعية أن نستورد نيويورك، أو سيدني أو شيكاغو بناطحات سحابها، وزجاجها اللامع وسياراتها الفارهة؟ هل نستورد من تلك الاتجاهات محطات وأجهزة التليفزيون والإذاعة ومطابع الصحف والورق الملون لنقول إن هناك دولاً؟ وهل ينفع معه أن نلون تلك المحطات بمذيعات وقارئات الرغبة.. من بعض الأقطار العربية لنقول إننا في مستوى الحدث؟ فالخليج الآن.. يحتاج الآن، لأن يرمم الفجوة بين ما شهده من أحداث وما عرفه من تطورات مادية (مستوردة جميعها). وتلك التي يحتاج إليها أو سيحتاج إليها آجلا أم عاجلاً وهي الجوانب الثقافية المعرفية التي كانت مغيبة أو شبه مغيبة.. فبالرغم من المحاولات الخجولة لايزال الطموح كبيرًا ولا يتناسب مع الحاجة التي تصاحب دومًا انتقال الأمم من طور الى طور.

ويجب ألا نخجل من أن نقول إن الإبداع في منطقة الخليج العربي قليل قليل والمبدعون محدودون والفعل الثقافي الحقيقي مغيب ومهمش.

والحالة الثقافية العابرة والسطحية هي السائدة. ■



زورونا الآن

www.almarefah.com

الاتجاه إيجابي وسلبي

الصحراء والمدير!

يوسف القبلان *- الرياض

* كاتب سعودي - كلية اليمامة الأهلية .

عندما أتامل في الصحراء، في الأفق البعيد أتذكر زرقاء اليمامة، أتذكر أهمية النظرة البعيدة، ومع الأفق الواسع في الصحراء تغمرك مشاعر الارتياح، تتحرر من الضغوط، يتحرر عقلك، تنطلق خيالاتك، تحلق أحلامك في هواء يهب في كافة الاتجاهات.

أليس هذا ما يحتاج إليه القائد الإداري في عصرنا الحاضر؟ حيث المدى الواسع والشمولية، والانطلاق، والاتجاهات المفتوحة. وإذا أردنا أن نترجم ذلك إلى الواقع الذي يتعامل معه القيادي فهو بحاجة إلى المشاركة في اتخاذ القرارات، وإلى من يصدقه الرأي، وإلى سماع كافة الآراء، وإلى النظرة الشمولية، وقبل كل شيء هو بحاجة إلى أن تكون لديه رؤية واضحة للمستقبل، وأن تتوفر لديه الأجواء المريحة لاتخاذ القرارات. في الصحراء مجال للتدريب على الصبر، والإرادة، والقوة، والنظرة الشمولية، والتحدي، والتغلب على العقبات. في المكتب مدير تتكرر خبراته عبر عقود من الزمن، يدمن الروتين، لا يستمع إلا إلى نفسه، يغلق الباب أمام مراجعيه، يغرق في الأوراق، يسطر عليها عبارات الشك والتردد. إحدى الوسائل لمعالجة هذا المدير أن يتوجه للصحراء ويبقى فيها لمدة خمسة أيام يتدرب على الاستماع إلى الصوت بكافة أنواعه، ويتعود فتح الأبواب والتفاعل مع فضاء رحيب بدلاً من مكتب مغلق.

القائد المسؤول عن التفكير الاستراتيجي والخطط بعيدة المدى، والقرارات القيادية، هو إنسان يعمل في العلن ويطلق كافة القوى البشرية في فضاء واسع لحرث الصحراء وتحويلها إلى واحات منتجة.

هذا هو التحدي، حيث تتحول الأحلام إلى حقائق. والقائد الذي بلا أحلام لا يستطيع أن يقود.

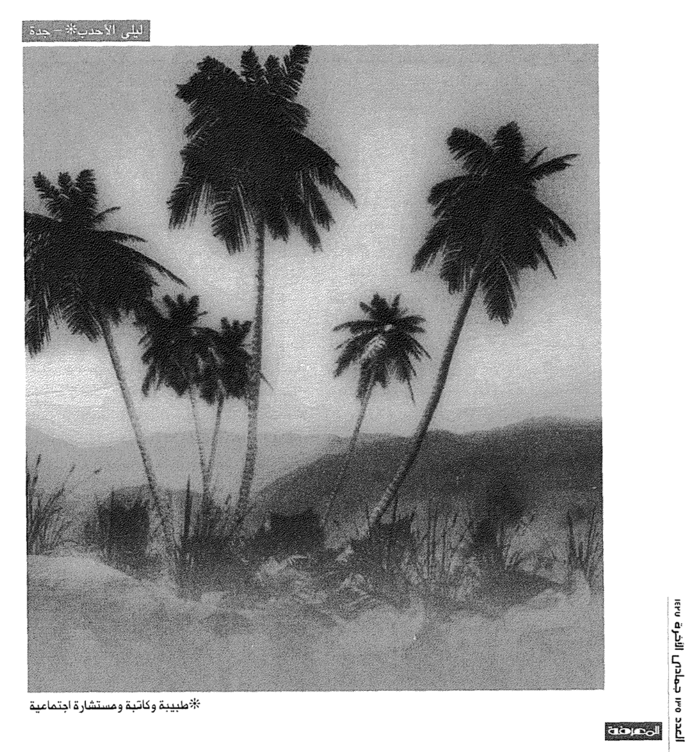
تلك الإيجابيات الصحراوية قد تتحول إلى سلبيات. كيف ذلك؟ المدير الصحراوي هو المدير غير المتجدد الذي لا يطور نفسه ولا يسمح للآخرين بالتطور. هو الذي لا يتيح الفرص للموظفين المشاركة في المسؤولية، ويشك في نواياهم وقدراتهم. ويتعامل معهم معاملة تعتمد على إصدار الأوامر والتعليمات وانتظار التنفيذ دون مناقشة. القائد الذي يحتاج إلى الصحراء كما قلنا من أجل النظرة الشمولية، والانطلاق، قد يتيه حين لا تكون لديه رؤية واضحة إلى أين يتجه.

الصحراء الجافة الحارة غير الممطرة هي أشبه ببعض بيئات العمل التي تنتظر القائد صاحب الرؤية والقدرة على اتخاذ القرار وتحويل الأحلام إلى واقع.

كانت بلادنا صحراء وقبائل متفرقة وتحولت إلى مدن وواحات موحدة بقرارات استراتيجية تاريخية، ومثل هذه القرارات تتطلب وجود إدارات تنفيذية تملك القدرات المهنية والمهارات الإدارية لترجمة الاستراتيجيات إلى واقع. المدير الصحراوي يرفض التغيير ويتعامل مع موظفيه ومراجعيه وكأنهم يزورونه في بيته الخاص، أو خيمته الخاصة. القائد الصحراوي قد يلجأ إلى القرعة لتحديد الاتجاه. له ردود أفعال وليست لديه مبادرات، لا يقود الأحداث، بل هي التي تقوده. وهكذا فالصحراء قد تكون مصدر إلهام ومفتاحًا للحلول، وقد تكون العكس وذلك يتوقف على شخصية المدير وشخصية القائد، فالشخصية الصحراوية مطلوبة في الإدارة ولكن في جانبها الإيجابي، فالقيادة الناجحة هي التي تستثمر عقول وقلوب الأفراد لتحقيق الأهداف والأحلام والطموحات وتحويل الصحاري إلى وحات للعلم والنماء. ■

ما واحتك في صحراء الحياة؟

ليلى الأحدب* - جدة



*طبيبة وكاتبة ومستشارة اجتماعية

تفرض الحياة المعاصرة علينا نوعًا من الانغماس الشديد فيها. إما لطول فترة العمل التي تتطلبها بعض المهن أو لكثافة الانشغالات المتنوعة أو للتكسب من الأعمال المختلفة أو لأن الحياة أصبحت تلاحقنا بوسائل حديثة وإغراءات جديدة؛ وأغلبنا لا يريد أن يعيش خارج عجلة الدنيا السائرة فنحن أولاد الحياة ومن حقها علينا أن نحياها بكل زخمها. لكن أيضًا من حقنا على أنفسنا أن نعود بين الفينة والأخرى إلى ذواتنا، فعندما نجد أننا مرهقون بمتطلبات الحياة الدنيا أو غارقون بملذاتها فإنه من المفيد أن نسعى لنفض غبار هذا الإرهاق أو لانتشال أنفسنا من ذلك الغرق، كلٌ حسب ما يفضل ويهوى؛ فمنا من يسترخي وحده أمام التلفاز - إذا استطاع أن يهرب من نشرات الأخبار الصاعقة - وآخر يجول في عالم الشبكة العنكبوتية منفردًا، بينما ثالث لا يزال يرى أن خير جليس في الأنام كتاب، ورابع يأوي إلى صديق أو حبيب، وخامس تحلو له الخلوة إلى نفسه لممارسة هوايته في الرسم أو العزف، وسادس تقتصر مناجاته الروحية على عبوديته للخالق فلا يجد ملاذًا له سوى بالقرب منه والابتهال إليه.

هذه العزلة وإن اختلفت مظاهرها من إنسان لآخر. فهي أشبه بالواحة في الصحراء، مع أنه من البديهي أن حياتنا ليست بذلك الجفاف لكنها أيضًا ليست بذلك الغنى إن لم ننوّع الاحتفاء بها سواء كنا متوحدين أو مجتمعين؛ والتوحّد – الذي لا يعني دائمًا الوحدة فقد يكون توحدًا بشخص أو بمثل أعلى – أو الاعتزال مفيد للتطور العقلي وقد يكون مساعدًا على الارتقاء النفسي؛ ولا ينفي هذا الكلام وجود بعض الأشخاص الذين لا يستطيعون البقاء مع أنفسهم لفترة تطول أو تقصر، حتى لو كان لمجرد مراقبة شخوص المسلسلات التلفزيونية، وذلك لرغبتهم المسيطرة أن يكون برفقتهم من يثرثرون معه ويؤنس وحدتهم، وهذه الفئة – برأيي – تستحق الشفقة لأن أصحابها برغم كل ما يبدو عليهم من اجتماعية وبعد عن الانعزالية فإنهم أقل الناس إدراكًا لأخطائهم وتبصرًا بأنفسهم، وبالتالي فهم أقل الناس تطورًا، لأن التطور لا يكون إلا عندما ينفرد المرء بنفسه ملاحظًا عيوبها معترفًا بأخطائها. ولا بد أن سؤالاً يخطر على بال بعض القراء هو: هل تتيح المسلسلات التلفزيونية لو كنا نشاهدها بدون ثرثرة مع أحد أي خاصية للتطور؟ والجواب: إلى حدٍّ ما نعم، مثلها مثل رشف المعارف المختلفة من الكتب، وعلى الرغم من السخافات التي تعرضها القنوات التلفزيونية في أغلب الأوقات فإن الأمر لا يخلو من فكرة هامة أو لقطة مؤثرة، يقارن فيها المشاهد – خاصة إذا ما كان قليل التجربة الواقعية – بين ما يراه على التلفاز وبين حياته الخاصة، فقد يساعده المشهد على تجاوز أزمة أو يمنحه بصيص ضوءٍ لحلّ مشكلة مماثلة؛ ومع ذلك فإن الصوت والصورة لا يشكلان عازلاً كافيًا للتطور بل كثيرًا ما تفرض الفضائيات ضجيجًا مساويًا لصخب الحياة الواقعية؛ لذلك دعونا من الاسترخاء أمام التلفاز لنتأمل في أنفسنا

بحثًا عن واحاتنا المفضلة في صحاري حياتنا المليئة برمال متحركة تغوص فيها أقدامنا.

واحة الكتاب

وقد تشترك معها واحة الإنترنت إذا اعتمدناها كمرجع للقراءة. ولكن يبقى للكتاب طعمه المختلف خاصة لمن ألف رائحة الورق وملمسه. ومن خلال الكتاب تزيد مداركنا وتنمو عقولنا وتتنوع معارفنا، فليس أجمل من أن تبحر في أفكار كاتب مرموق لتحقق فتحًا معرفيًا أو تحرز غنى داخليًا. وليست التسلية هي دائمًا مقصدنا من القراءة وإن كانت هدفًا مشروعًا بحدّ ذاته، لكن المعرفة هي أكبر غاياتنا من وراء مطالعة الكتب. والفضول المعرفي يقودنا إلى اكتشاف كنوز غنية من أفكار الآخرين وخبراتهم. وفي مقالة بعنوان «مديح المعرفة» يكتب



الفيلسوف البريطاني فرنسيس بيكون:(سأقدم مديحي للعقل نفسه. العقل هو الإنسان. وليس الإنسان إلا ما يعرف. أليست لذائذ العاطفة والحب أقوى من لذائذ الحواس؟ أليست لذائذ العقل أعظم من لذائذ الحب؟ أليس حقًا أننا لا نشبع من لذة البحث عن الحقيقة؟ وإن المعرفة وحدها تنقي العقل من جميع أنواع التهيج والاضطراب. كم من الأشياء موجودة ولا نتصور وجودها! وكم من الأشياء تنال تقديرنا أكثر من قيمتها وقدرها! هذه التطورات والتخيلات التي لا طائل تحتها وهذه الآراء والأفكار والقيم الضعيفة التي ستكون سحبًا للأخطاء التي ستتحول إلى عواصف من الاضطرابات والهياج. هل هناك سعادة كسعادة انتشال العقل من فوضى الأشياء واضطرابها؟).

واحة الحب الإنساني

هذا النص الذي نقلته لفيلسوف التنوير بيكون يجعله أشبه ما يقرر رأيه على أنه حقيقة. ولكن للناس فيما يعشقون مذاهب. فهناك من يجد واحته بين الكتب ولكن هناك من لا يجدها إلا في قرب من يحب. والمشكلة أننا بمجرد أن نذكر الحب فإن ما يقتحم أذهاننا هو الحب بين الجنسين نسيانًا منا أن لكل نوع من أنواع الحب الإنساني مذاقه المتفرد. فعندما نكون أطفالا فإننا نتوحد في أمهاتنا ونخفي وجوهنا في صدورهن لنبحث عن الأمان. وتبقى علاقة الأم بابنها - أو ابنتها- في كثير من الحالات سرًا من الأسرار العميقة التي لا يمكن سبر أغوارها. وقد يكون للأب أحيانًا هذه المكانة المميزة؛ وبما أني ذكرت إمكانية التعلم من الأفلام والمسلسلات، فهذا مثال شخصي على ذلك أستقيه من فيلم أمريكي رأيته منذ سنين يقول فيه أحد الآباء لابنته:(بعض الرجال لا يصلحون أن يكونوا آباء) كان ذلك في معرض مساءلته لها لماذا جاءت تبحث عنه بعد أن توّفت والدتها التي هجرها بمجرد أن ألقى نطفته في رحمها. وقد تعلمت أنا شخصيًا من تلك العبارة أن بعض النساء – أيضًا- لا يصلحن أن يكنّ أمهات. أما حبنا لأولادنا فقد يكون واحتنا المنشودة كما قال الشاعر:

وأطيب ساعٍ في الحياة لديّا

عشية أخلو إلى ولديّا

ومن الحب الإنساني نوع فريد هو الصداقة التي إذا استمدت كينونتها من الصدق فإنها علاقة راسخة على الدوام وهي كنز نادر في هذه الأيام، وكما دبّج بيكون كلمات في مديح المعرفة فعل ذلك ميخائيل نعيمة في سيرته الذاتية «سبعون» مع الصداقة. ومما ذكره: (الصديق هو الذي تتضخم في عينه محاسنك، وتتقلص معايبك، والذي لا يحسدك إذا كنت أغنى منه في أي ناحية من النواحي، بل يتمنى لك المزيد. ولا يكبُرُ عليك إذا كان أغنى منك، بل يجعلك تشعر كما لو كنت أنت الغني وهو الفقير). أما العلاقة الأكثر فرادة فهي الحب الحقيقي، وهو كالصداقة جوهر نادر. فلطالما اختلط بالمصلحة أو بالشهوة، وحالما انقضت المصلحة أو أشبعت الرغبة تبخر الحب وبقي أحد الطرفين يعض أصابعه ندمًا على خضوعه لقلبه الذي أورده المهالك: وفي ذلك يقول ميخائيل نعيمة: (وإذا رأيت معظم الناس يتزاوجون اعتقادًا منهم أنهم مدفوعون بالحب ثم يقعون في التهالك والأوجاع الكثيرة. فاعلم أنهم طردوا الحب من قلوبهم بإدخالهم عليه شهوات لا تأتلف وإياه، وروح الحب هو نكران النفس من أجل الغير أو توسيع النفس إلى حد أن تراها في ما سواها). وهذا الشعور «الحب» قديم قدم الحضارة الإنسانية فإن لم يعرفه الرجل البدائي – كما تدل الحفريات الأركيولوجية – فإنه كان معروفًا لدى أهل الحضارات جميعها، وفي الجزء الثاني من «قصة الحضارة» نقرأ نصًا عاطفيًا يعود للعصر الفرعوني يدلّ على أن واحة كاتب النص لم تكن إلا قربه من محبوبته: (إن غرام حبيبتي يقفز على شاطئ الغدير.. وفي الظلام تمساح رابض.. ولكنني أنزل إلى الماء وأواجه الأمواج.. لأن حبها يملأ قلبي قوة.. فهي لي كتاب من الرقى والتعاويذ.. وإذا رأيت حبيبتي مقبلة ابتهج لمرآها قلبي.. وفتحت ذراعيّ ومددتهما لأضمها إلى صدري.. وينشرح قلبي أبد الدهر لأن حبيبتي قد أقبلت.. فإذا ما ضممتها كنت كمن في أرض البخور.. وكمن يحمل العطور.. وإذا قبّلتها انفرجت شفتاها وسكرتُ من غير خمر).

واحة الفن

وتبقى نظرة العربي المسلم للفن أقرب للتحريم مع أن الفن ما هو إلا الأثر الذي يتركه الجمال في نفوسنا وأسلوب تعبيرنا عن هذا التأثير لنؤثر بدورنا على الآخرين: ومن الذي أفتى بحرمة الاستمتاع بالجمال الطبيعي؟ قال تعالى: ﴿قل من حرّم زينة اللّه التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟﴾: وعلى نفس المنوال تقرر آيات قرآنية أخرى أن للجمال أهميته في إسعاد الإنسان وإدخال البهجة إليه ففي وصف البساتين والجنان قال تعالى: ﴿حدائق ذات بهجة﴾، وفي وصف الأنعام بين القرآن أنها ليست فقط للفائدة بل هي أيضًا للمتعة الجمالية الحسية: ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾: وعلى كل حال فإن الفنان الذي يخلو بنفسه ليعبر بالرسم عن إحساسه المفعم بالجمال هو إنسان مبدع إذا استطاع نقل إحساسه إلينا، وما يقال عن الرسم يقال عن الشعر والغناء والموسيقى، وبعض الأحاديث النبوية تختص بالذوق والإحساس لترتقي بهما: فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي اللّه عنها أنها زفّت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال نبي اللّه: «يا عائشة ما كان معكم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو» وفي رواية: فقال رسول اللّه لها: «فهل بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغني؟» فقالت عائشة: تقول ماذا؟ قال:

أتيناكم أتيناكم

فحيانا وحياكم

ولولا الذهب الأحمر

ما حلّت بواديكم

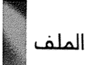
ولولا الحنطة السمراء

ما سمنت عذاريكم

ثم قال: أدركيها يا زينب وهي امرأة كانت تغني بالمدينة.

سؤال ختامي

عزيزي القارئ: بعد هذه المقالة ترى ما واحتك في صحراء حياتك؟ أنا شخصيًا أميل إلى التنويع فأنصح أن تكون لك ساعة لربك وساعة لقلبك وساعة لفكرك وساعة لأغلى غواليك، فكلها واحات متنوعة لتتنعم فيها فلا تفوّت لحظات النعيم.■



للنفس والبدن

الصحراء منتجع صحي

ياسر بكار * - الخبر

* طبيب نفسي .

هل تذكر ذلك اليوم حين تمنيت أن تجد مكانًا تخلو فيه بنفسك، أن تهرب من صخب الحياة وضجيجها إلى حيث الهدوء وراحة البال. لقد أهدت لنا المدنية الحديثة هدايا عظيمة، لكن ذلك لم يكن (مجانًا) فقد فرضت علينا نمط حياة دفعنا ثمنه من صحتنا الجسدية والنفسية والاجتماعية. وكان الثمن غاليًا!

لقد كانت الصحراء على مر التاريخ - وما زالت - ملاذًا رائعًا للاستمتاع بطبيعتها الخاصة وجمالها الأخاذ. وهي مع ذلك تهدي لقلوبنا وأرواحنا دروسًا عظيمة.. دعنا نطل عليها عبر الحروف التالية:

- تمنحنا الصحراء فرصة رائعة للتأمل في خلق الله واستشعار عظمته سبحانه وتعالى وبديع خلقه. إنه التسبيح الصامت الذي نشترك فيه مع كل المخلوقات خضوعًا لله عز وجل واعترافًا بعزته أمام ذلنا، وقوته أمام ضعفنا، وحاجتنا إليه أمام استغنائه عنا. لقد غابت عن حياتنا هذه الفريضة العظيمة (أي التفكر في خلق الله تعالى) رغم حرص الكثير منا على اتباع أدق السنن النبوية وأجلها. واسمع معي إلى وصف الله عز وجل لعباده المؤمنين: ﴿الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلًا، سبحانك فقنا عذاب النار﴾ (آل عمران: ١٩١). وبغياب هذه العبادة الروحية ضعفت أرواحنا وجفت قلوبنا.

- الصحراء بكثبانها العظيمة ومخلوقاتها المتعددة، تذكرك بأنك مخلوق صغير ضعيف في هذا الكون، وأنك جزء من أسرة كبيرة تعيش فوق هذه الأرض. وما أشد حاجتنا إلى هذا الدرس الهام في وقت انتشر فيه داء عضال هو (تعظيم النفس) حيث الحساسية المتنامية لـ(الأنا)، والتمركز حول الذات التي لا تقبل النقد أو النصيحة، وحيث البحث اللامتناهي عن المزيد من الانتصارات التافهة، والمكاسب التي لا تعرف الحدود. لقد أورثتنا هذه النظرة (المريضة) كبرًا أعمانا عن أخطائنا وعيوبنا، وأدخلتنا في دوامة لا تنتهي من الصراعات حيث نرى الحياة وكأنها معركة (كرامة) تنتهي إلى نصر (ساحق) أو هزيمة (ماحقة). ووراء كل ذلك هوى النفس الذي طرد إبليس من رحمة الله تعالى.

وهنا تأتي الصحراء لتعيدنا إلى حجمنا الطبيعي وروحنا الأصيلة، وتصالحنا مع بقية أفراد هذه الأسرة الكونية.

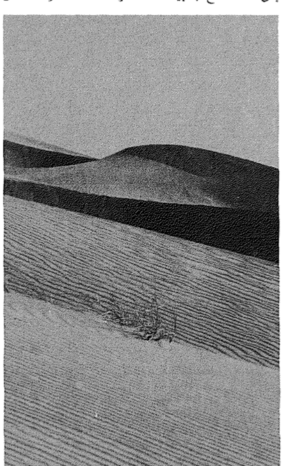
- الصحراء درس عملي للقدرة على (التأقلم). تلك القدرة الهائلة التي منحها الله عز وجل لكل مخلوقاته وعلى رأسها (الإنسان). إنها مهارة نفسية عظيمة تزودنا بالطاقة اللازمة للتحلي بالإصرار والمثابرة في مواجهة أقسى الظروف وأصعبها، وتساعدنا على الضغط على محبوباتنا، وتأجيل إشباع مسراتنا في سبيل تحقيق ما نريده وما نطمح إليه. وللأسف تحاول المدنية الحديثة كل يوم أن تسلبها منا عبر ما ترسله من رسائل خفية مفادها: (عش حياة سهلة أو لا تعش). ولقد وقعنا في شراكها مرات ومرات! فكم وقفنا في رحلة الحياة أمام مفترق طرق وكان أمامنا خياران مصيريان فاخترنا (الأسهل).. ليس شيء سوى لأنه الأسهل.. فهذا شاب أعرض عن السفر للدراسة والتدريب لما فيه من معاناة ومشقة، وآثر القعود والركون إلى الراحة والدعة، ودفع ثمن ذلك فيما بعد غاليًا! وآخر تردد في الخوض في مشاريع جديدة أو مغامرات شيقة خوفًا ووجلًا من التنازل عن نمط حياته الرغيد أو تأجيل الاستمتاع بها. والأمثلة على هذا كثيرة تفوق الحصر.

- أصبح القلق سمة هذا العصر وآفته. وكم يعاني الكثير من الناس من الهموم وكثرة التفكير مما أفسد يومهم وأرّق منامهم. هذا مع ما يعانونه من عوارض جسدية كآلام البطن وانتفاخه. وهو ما نسميه نحن الأطباء (القولون العصبي)، الذي أصبح وباءً كالزكام ونزلات البرد. عمق فكرة القلق تكمن في الشعور بالتهديد.. الشعور بأن الأمور لن تسير على النحو الذي يرضينا. وما فشا ذلك فينا إلا لغياب درس تُعلمنا إياه الصحراء بكل وضوح وبساطة. ففي أرض جدباء قاحلة، تعيش الآلاف من الكائنات حياة آمنة مطمئنة يأتيها رزقها

رغدًا.. الصحراء تعطي أجمل الدروس في التوكل وتسليم الأمر لله عز وجل. فرزقنا أمر مكتوب سيأتي إلينا رضي من رضي، وسخط من سخط. وما من حدث ينزل بنا إلا بأمر الله وقضائه النافذ. لقد منحنا هذا المبدأ الرباني العظيم قدرة كبيرة على مواجهة أسوأ الظروف وأقساها. وما أجمل أن نتأمل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير.. تغدو خماصًا وتروح بطانًا) وقوله: (عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير. وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر وكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له).

الصحراء.. منتجع صحي

(هل تعرف.. أنني أغسل تعب الأسبوع كله بهذه الرحلة).. هكذا وصف لي أحد الشباب خروجه الأسبوعي إلى الصحراء وقضاءه بعض الوقت هناك. فالصحراء هو المكان الأنسب للتخفيف من الضغط النفسي الذي نتعرض له كل يوم في حياتنا المدنية المعاصرة، والذي يفتك بصحتنا الجسدية والنفسية بصمت! فبالإضافة إلى الاستمتاع بطبيعة الصحراء الخاصة واستنشاق



هوائها النقي، يمكنك أن تستفيد أكثر من هذه اللحظات (الصحراوية) عبر ممارسة تمارين (الاسترخاء)، و(التنفس)، و(التأمل) وجميعها ستمنحك طاقة وحيوية وشعورًا بالهدوء والسلام الداخلي. ولهذه التمارين سند علمي قوي تثبت فاعليتها في التخفيف من الضغط النفسي وآثاره الضارة. وفي هذه العجالة سأتحدث عن طريقة سريعة للاسترخاء وتمارين التنفس والتأمل (لن يكون هذا التمرين هو تمرين الاسترخاء الرسمي والمتعارف عليه إذ يصعب ممارسته في الصحراء):

- اختر مكانًا بعيدًا عن أصدقائك الذين خرجوا معك، اجلس على كرسي أو على الأرض، وجه تفكيرك نحو جسمك.
- أغلق عينيك.
- خذ نفسًا عميقًا وبطيئًا واحبسه في صدرك. عد إلى العشرة أو ابق هكذا عشر ثوان. ثم اترك الهواء يخرج من الصدر والرئتين إلى آخره وأنت تقول: «الحمد لله».. لاحظ المشاعر اللطيفة والمريحة المرافقة لذلك. تخيل كيف ينساب التوتر والانزعاج مع كل زفير.. أعد القيام بذلك لمدة أربع دقائق.
- ابدأ بإرخاء العضلات حول العينين، أرخهما. تخيل أن التوتر ينساب خارجًا منهما.
- ابدأ بإرخاء عضلات جسدك بالتدريج. تخيل أن التوتر ينساب خارجًا منها.
- أثناء الاسترخاء تنفس بشكل طبيعي. ردد مع كل زفير كلمة أو جملة تمنحك الهدوء مثل ذكر الله تعالى.
- ركز انتباهك وتفكيرك على الهواء عندما يدخل إلى الصدر وعندما يخرج منه. وامنع تفكيرك من التشتت.
- تأكد من أن قلبك يدق بشكل هادئ ومنتظم.
- استدع إلى مخيلتك صورًا من المشاهد التي أمامك من الصحراء، تأمل تفاصيلها، وتفكر في عظم خلق الله وقدرته. والراحة والأمان الذي ينزل بك عند التوكل عليه والاستعانة به والالتجاء إلى ركنه الشديد.
- عندما تريد الانتهاء والتوقف.. عد من خمسة إلى أربعة إلى ثلاثة إلى اثنين ثم واحد وافتح عينيك وقم إلى أمورك الأخرى.

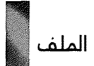
ختامًا: هذه خواطر ودروس ترسلها لنا الصحراء لتدق قلوبنا وعقولنا.. ولكن أين المتعظون؟ ربنا اهدنا إلى سواء السبيل.■



مدارس العليا الأهلية ... بيتك إلى النجاح

بنين - هاتف ٤٥٣٨٩٠٧ - ٤٥٣٨٩٠١ فاكس ٢٢٥٥٠٤٧ بنات - هاتف ٤٥٣٨٨٩٤ - ٤٥٣٨٨٧٢ فاكس ٤٥٣٠٨٧٠

www.alolayyaschools.com



تريح من القيود والهموم اليومية . . .

الرياضات الصحراوية

وديع عبد النور* - لبنان

* صحافي متخصص في الشؤون الرياضية .

الرياضة الصحراوية... قيمة وانجذاب، عالم يغرف من «بحيرة» التراث والقيم والأرث الثقافي الكبير، مكملاً أو بالأحرى مضيفًا إلى هذا المحور على تعدد أوجهه وتشعّب فقراته ومعارجه وتداخلها الكثير، حقولاً وأمورًا تتنوع وتتطور وتتفرع منها اختصاصات جديدة وابتكارات لا سابقة لها مع تنوع عصرنا وتطور أساليبه في عصر السرعة القياسية والانتشار الخاطف بسرعة الضوء. عصر العالم قرية واحدة وحي صغير ودسكرة متلاصقة المنازل بفضل رقميات التواصل، ما جعل بالتالي الصحراء، مثلاً، مقصدًا لأشكال وألوان من البشر تعدّى اهتمامهم بها حب الاكتشاف وروح المغامرة إلى احتراف بعضهم نشاطات غير ممكنة إلا في رحابها.

الصحراء جزء كبير من كرتنا الأرضية، شاسعة واسعة برمالها الذهبية وكثبانها المتموجة وأسرارها وأحوالها. «ملاذ» لكثر، قصدها بعضهم حبًا بالمغامرة وشغفًا بهواية تحولت إلى مثابرة دائمة وطقس أو أسلوب عيش، ووجد فيها آخرون متنفسًا للترويح عن النفس وتجديد النشاط، على غرار ما يجده البعض في أماكن أخرى في الطبيعة كالجبال أو شواطئ البحر.

في هذه الأماكن تنمو رياضات مختلفة وتتسع وتتطور بعدما باتت في الأعوام الأخيرة مجالات اختصاص واستثمارات مجزية.

فنون تخصصية

وحين نتناول الصحراء في الحديث عن رياضات رائجة فيها، يتعدى الأمر ألعاب تسلية تقليدية متجذرة في التاريخ والتراث، إلى ألعاب وفنون تستقطب مزاولين وروادًا من أماكن خارج مناطقها ومحيطها وبلدانها.

وإذا كان مثلاً صيد الصقور وفنونه من ضرورة الرياضات الصحراوية بالنسبة للبعض لا سيما «أبناء الصحراء»، فللجري على الرمال أو التزحلق وسباقات التحمل في الفروسية وراليات «الرايد» (المشتقة من غارة أو غزوة) الخاصة بالسيارات والدراجات النارية والشاحنات، مسابقاتها الموسمية وسباقاتها الدولية وبطولاتها العالمية.

وتقتفي هذه الاختصاصات أثرًا تلو آخر. وتنتشر بفضل المواكبة الإعلامية على أنواعها لا سيما المجلات المتخصصة ومواقع الإنترنت والتغطية التلفزيونية، إلى الكتب والمجالات السياحية المتعددة التي تفتح لها «نوافذ» مختلفة الأحجام والأشكال و«أبوابًا» تشرّعها أمام الراغبين والمتحمسين، من خلال رحلات وحملات استكشاف ومخيمات. وإنتاج أدوات ولوازم وألبسة ومعدات وماركات لها تسوّق وتروّج وتحقق عائدات مجزية. فضلاً عن أن مصممين كثرًا يستوحون منها خطوط مجموعات الموضة وأزيائها.

الإثارة والغرابة

وللرياضات الصحراوية مفهوم خاص لا «يتقنه» أو يشرح «فلسفته» إلا «المغرم بها» الشغوف بأجوائها ومفاعيلها، وبالتالي «لا يدرك حقيقتها إلا من جرّبها وتلمّس «ألوانها» ومشقاتها ومخاطرها أحيانًا، واستمتع بإثارتها اللذيذة وعالمها الغريب». وما تقدّم يلخّص شعور عدد من «الرياضيين الصحراويين» وغالبيتهم من الأوروبيين والأميركيين، على غرار بطل العالم للراليات الصحراوية الفرنسي ستيفان بيترهانسيل، الحائز على ألقاب عدة في سباق

«داكار» الشهير ورالي الإمارات الصحراوي، الجولة الأخيرة من كأس العالم لراليات «الرايد»، إضافة إلى خبرته العميقة وإنجازاته في مشاركات في تونس والمغرب. حيث هناك «أجزاء» من الصحراء الإفريقية «الصحراء الكبرى» المترامية. فضلاً عن كثبان مصر وطرقها الترابية.

لقد أحاط بيتر هانسيل ومثله مواطناه برونو سابي وجان لوي شليسر بهذه الخصوصية. ولسان حالهم يقول: «نعشق الأماكن المتوحشة (تعبير مجازي بالطبع). وهي فرصة للاكتشاف والمعرفة».

في الماضي، كان الرحالة والباحثون والمنقبون عن الحضارات والأماكن الأثرية يلهثون وراء حدسهم تقودهم روح المغامرة والفضول. إلى هذه الأماكن (الصحراء). وفي غالب الأحيان كانت المغامرة تغري الباحث كما صرّح مرة المكتشف رينيه غلوب في حديث صحافي... ويبدو أن هذه الخلاصة، وهي «عصارة تجربة طويلة» تنطبق على ما تشهده أماكن صحراوية كثيرة من أنشطة رياضية، باتت عامل جذب وإغراء وباب ارتزاق.

سحر الصحراء

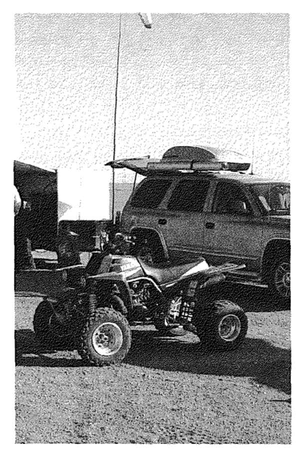
«سحر الصحراء» جزء من «سحر الشرق». ومن رياضة الأجداد «الدهرية» الفروسية وسباقات القدرة والتحمّل فيها إلى التكنولوجيا المتقدمة الخاصة في عالم الراليات... بطولات متعددة ومحطات موسمية دائمة، مزيج من المتعة والمنافسة والاكتشاف والسياحة والحسابات الدقيقة والتحضير المتقن. مسارات وجولات واهتمامات تتعدى «المكان والزمان» إلى الآفاق الرحبة. ومجال ابتكار واختبار لقطع غيار وتكنولوجيا متقدمة في أداء المحرّك وأجهزة الرصد والاتصال والتعقّب.

وعمومًا، لم تعدّ الرياضات الميكانيكية ذات «الوجه الصحراوي» مقتصرة على هذه الناحية وخصوصيتها، بل باتت جزءًا من البرنامج العالمي، وجولات أو حلقات من روزنامته وأبرزها حاليًا، وفق ما ذكرنا، راليات الإمارات، مصر، تونس، المغرب، فضلاً عن سباقات دولية في قطر للسيارات والدراجات النارية.

والجدير بالذكر أن السيارات المستعملة في هذه النشاطات رباعية الاندفاع، تعدّ المصانع الكبرى غالبيتها وفق خطوط إنتاج حصرية تؤمّن متطلباتها وشروطها وظروفها وتجهيزاتها... وتفتح بالتالي مجالاً رحبًا لعمل الشركات الدعائية وتسويقها، إذ تصبح الصحراء وحقولها الرياضية المتعددة الخلفية المطلوبة – المميزة أو مسرح البطولة لـ«البطلة» أي السلعة التي تروّج، وعنينا هنا السيارة. ومن وحي السباقات وحملات الاكتشاف والتعرف، نشأت رحلات الجوّالة والجولات السياحية، وأربابها الكثر حاليًا مكاتب السفر والسياحة، والدوائر المتخصصة التي تلحظها ضمن برامج الجذب لقضاء العطلات والاستمتاع بالشمس المشعة والرمال المتلألئة في قلب البرّ، وليس على الشاطئ اللازوردي.

مواسم مربحة

ولا عجب إذا تطرقنا إلى موازنة أحد الأنشطة مثلاً، «رالي الإمارات الصحراوي» الذي يؤمن حركة طيران كثيفة وحجوزات فندقية كبيرة فضلاً عن تأجير السيارات وأجهزة الاتصال والبرامج الموازية، واستقدام طواقم المشاركين والفرق التقنية ومجموعات الصيانة وكبار الضيوف وشركات الدعاية ومؤسسات الرعاية ومئات الإعلاميين، فضلاً



عن حملة الترويج والعلاقات العامة. والحصيلة إنفاق يتجاوز عشرات ملايين الدولارات ومداخيل عامة تعادلها أو تتخطاها. أي أن الفائدة أو الجدوى تكمن عمومًا في المداخيل غير المباشرة خلال الحدث وبعده. ولا ننسى أن مثل هذه النشاطات هي أيضًا دعاية مجانية غير مباشرة لهذه البلدان والمناطق. حتى إن مشاركين كثرًا في هذه السباقات امتهنوا لاحقًا التنظيم والإعداد من خلال وكالات ومكاتب وشركات، وباتوا يوظفون رؤوس الأموال ويجنون الأرباح.

الباب الجديد

وظاهرة الراليات الصحراوية التي «تمددت» وانتشر «غزوها» منذ منتصف عقد الثمانينيات من القرن الماضي. تسير على خطاها هضاب ووهاد الرمال حاليًا، من خلال التزحّلق عليها، وطبعًا بمزالج خاصة. وباتت الباب الجديد للفقرات المميزة التي تتقاطر على تنظيمها شركات وتضعها مؤسسات دعائية ضمن جدول الفقرات الترويجية لتسويق منتجات تدير وكالاتها...

ولأن لكل جديد «رهجة» أضحى التزحلق على الرمال الموضة الحالية. غير أن لبعض الرياضات وتحديدًا سباقات الرمال حيث تصل الحرارة إلى ٥٠ درجة مئوية، والراليات الخاصة بالسيدات الشهيرة في دول المغرب العربي، والـ«ألترا ماراثون» في الأردن، جانبًا اجتماعيًا، إذ يهدف بعض المشاركين من خلالها إلى جمع تبرعات لمؤسسات إنسانية وخيرية أو يقدم الجائزة المالية التي يحصل عليها لهذه الغاية. والمناطق التي تمرّ بها الأحداث الرياضية تنمو «وتزدهر»، وكثيرًا ما تشهد إقامة مرافق لخدمة زوارها وقاصديها وتشغيل أبنائها.

في السابع من نيسان (أبريل)، الموافق ٩ ربيع أول ١٤٢٧ هجرية، انطلق ماراثون الرمال المغربي في نسخته العشرين البالغة مسافته ٢٥٠ كيلومترًا والذي يستمر عشرة أيام، وبمشاركة ٧٧٧ شخصًا من ٣٦ دولة، سيضافون إلى ٧٠٠٠ متبار خاضوا جولاته السابقة، وبات قيمة معنوية بحد ذاتها تسهر عليها كتيبة تضم حوالي ٤٠٠ اختصاصي وخبير ومئة متطوع، وتستلزم ١٠٠ ألف لتر من المياه ونصب ١٥٠ خيمة في الصحراء و«حشد» ١٠٠ سيارة دعم بدفع رباعي وطائرة مروحية للمواكبة وطائرة استطلاع «سيسنا»، إضافة إلى ست طائرات شحن واستنفار ٤٠ شخصًا في الطاقم الطبي، إلى أجهزة الاتصالات والنقل التلفزيوني ومعداتها وكميات الطعام والأدوية والمنظّفات.

هذه النشاطات لا تستند إلى معايير وأنظمة «مغلقة» لا سيما تلك الموجّهة إلى الهواة والمجموعات السياحية، بل تترك الحرية لمزاوليها أن يطوروا الأجهزة ويبتكروا تعديلات مناسبة ترضي طموحاتهم وتطلعاتهم

وتكتسب هذه النشاطات ميزة خاصة لا بل استثنائية أيضًا، مفادها تقريب المشاركين أكثر إلى الطبيعة والغنى البيئي والمحافظة عليه. إذ إن جمعيات عدة اكتشفت هذه المناطق من خلال البرامج التلفزيونية ونشرات التغطية الاخبارية لهذه السباقات والأفلام الوثائقية. واطلعت على جزء من حاجاتها وأوفدت مندوبين عنها لإجراء تقصّ ميداني، وباشرت لاحقًا توفير المطلوب وفق أولويات محددة، فمثلاً استفاد بدو رحّل في المغرب من مأوى وزرائب لقطعان ماشيتهم. وأسهم «رالي الغزالات» في توفير مضخات مياه لعدد من القرى النائية... فضلاً عن أن هذه النشاطات وضعت من دون شك عددًا من القرى والبلدات والمناطق على الخريطة العالمية.

ولا تُتوج هذه الرياضة من دون الحديث ولو سريعًا عن الفروسية، وتحديدًا سباقات التحمل التي يتميّز العرب فيها، كونها «ابنة الصحراء»، ومنها خرجت لتغزو العالم أجمع. سباقات تتخطى معدل مسافة الواحد منها مئة كيلومتر، وميزتها الأولى الخيل العربية الأصيلة التي شجعت وساهمت في تعزيز تربيتها والاعتناء بها وتأصيلها، حتى إنها انتشرت في دول أوروبية وأمريكية. كما دخل في جانب من نشاط هذه «المزارع» باب جمال الخيل شكلاً ومظهرًا وأناقة القسمات والتفاصيل البنيوية، وباتت هناك مسابقات خاصة به.

أما الجمال «سفينة الصحراء» فعالمها متكامل، غير أنها لم تعرف «العالمية» بالحجم التي ازدهرت بفضله رياضة الخيول.

شهادات

ولعل مختصرًا لواقع حال شابين عربيين «شغوفين برياضات الهواء الطلق وجديدها وتحدياتها وميزاتها الاستثنائية من ناحيتي الإنجازات ومصدر للرزق، يقودنا لاعتمادهما مثالين حيين عما استعرضناه أعلاه. الشاب المغربي الحسن أحنصل الذي انتظر طويلاً لتتاح له فرصة الحصول على رعاية اتحاد بلاده لألعاب القوى، ما يؤمن لاحقًا بروزه الدولي في سباقات الجري على غرار مواطنيه العالميين، لكن الانتظار ذهب هباء. إلا أن ثقة أحنصل بموهبته وكفايته لم تتزعزع، وأصرّ على تجاوز العثرات وما أكثرها، وفرض وجوده وأثبت جدارته في مجالات أصعب رياضيًا وشبابيًا، محققًا إنجازات تعدّت المألوف وفتحت أمامه باب الاستثمار المجدي في رياضة أحبها، ووفرت له التحدي والبروز. واتبع في ضوء ذلك نمطًا جديدًا من الرياضات الجريئة وفروعها، ودخلت الصحراء في إطارها وميدانها.

أتقن أحنصل عمله، وتعدّى مجال الفوز



وتحقيق الألقاب لا سيما حصده المركز الأول ثماني مرات متتالية في سباق «ماراثون الرمال» المغربي الشهير، إلى تنظيم سباق زاغورا المغربي، مستفيدًا من التكوين الطبيعي للمنطقة ومسهمًا في إطلاق الرياضة السياحية وأنشطتها المتنوعة التي على حدّ تعبيره «تستقطب الجمهور والإعلام والشركات الراعية. وتؤمّن فرص عمل كثيرة تنعش أبناء المناطق التي تقام فيها». وبعضهم بات يملك شركات متخصصة تُعنى بهذا المجال، وتسهر على الشؤون التنظيمية واللوجستية والفنية، وتعمل على خطين متوازيين تنافسي صرف ورياضي - سياحي يدران عليها مداخيل كبيرة، وغالبية العاملين فيها من الشباب المتحمّس الذين لا يتعدى عمر أفراده سن الخامسة والثلاثين، أي السن المناسبة لبدء مرحلة الاستقلال في مشاريع وتطويرها.

والسعودي عبد الباري آل عبدالله، شاهد ميداني على ما تقدم. وصادف أن التقيته في مدينة كيب تاون في جنوب إفريقيا، إذ كان في عداد الفريق العربي الذي شارك في مسابقة «رد بُل رجل كيب تاون» المركبة، أي المتضمنة رياضات عدة، والتي تجمع أصحاب ألقاب ومحترفين من مختلف أنحاء العالم.

ويزاول آل عبدالله الطيران الشراعي مدربًا ومتباريًا، ويرى في منطقة الشرق الأوسط، وتحديدًا الأماكن الصحراوية في دول الخليج العربي «أرضًا جديدة لهذه النشاطات التي تعبّر بمدلولها الاجتماعي عن التخلّص من الضغط اليومي وإيقاع الحياة السريع، كما ترمز ربما إلى نزعة الاستقلال عند الشباب، وأعتقد انها ستبلغ آفاقًا كبيرة في العقد المقبل لأن المناخات مهيأة كلها».

وما يميّز الاتجاهات الجديدة في الهواء الطلق والصحراء جزء منها، أن هذه النشاطات لا تستند إلى معايير وأنظمة «مغلقة» لا سيما تلك الموجّهة إلى الهواة والمجموعات السياحية، بل تترك الحرية لمزاوليها أن يطوروا الأجهزة ويبتكروا تعديلات مناسبة ترضي طموحاتهم وتطلعاتهم. إنه مجال «التفلّت» من القيود، والاتجاه إلى اعتماد ألعاب وأدوات وفق تصميم خاص Tailor Made، ما يعزز شخصية صاحبها ويمنحه الاختيار الأفضل والمبادرة المطلوبة.



دعوة

إلى كل العاملين والعاملات في الميدان التربوي «معلمين ومشرفين ومديرين»

* هل توجد لديك تجربة صفية أو غير صفية جديدة ، وتود إطلاع زملائك عليها ، بغرض صقلها ثم تعميمها ؟

هل تواجه مشكلة أو عقبة عملية في سبيل إنجازك لعملك التربوي ، وتود عرضها على زملائك والاستفادة من آرائهم ومقترحاتهم بشأنها ؟

المعرفة تفتح صفحاتها لك . أخي المعلم ، اختي المعلمة .

لمناقشة ذلك ، نرجو إرسال المشاركة على

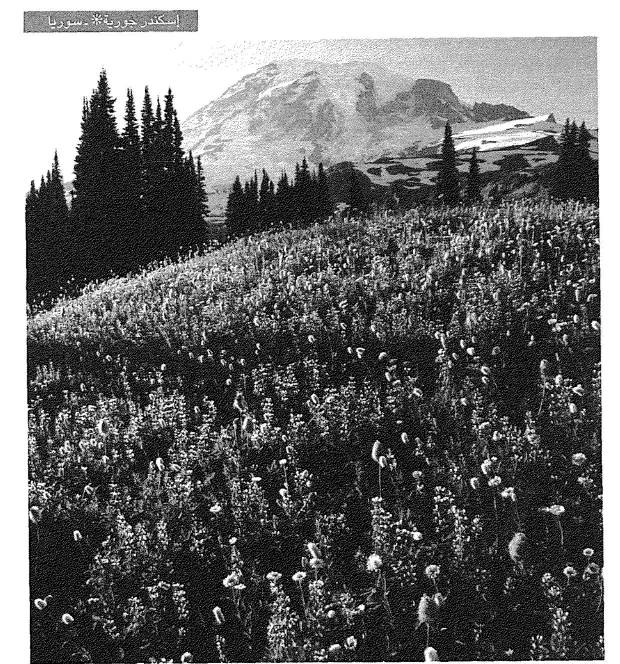
Info@almarefah. com

أو : ص .ب٢٣٠٠٧ الرياض ١١٣٢١مجلة المعرفة

من خطاب زعيم الهنود الحمر المفاوض للحكومة الأمريكية عام ١٨٥٤م

لماذا نقتل من الجواميس ما يزيد عن حاجتنا إلى الغذاء؟!

إسكندر جورية* - سوريا



*موجه أول للعلوم الطبيعية في وزارة التربية .

في مطالعتي لكتاب Astudy of interr re lation ships الذي يعنى بالعلاقات البيئية وتداخلها وجدت أنه يهتم كثيرًا بما يسمى بالفلسفة البيئية، ويستعرض أعمال وآراء بعض الفلاسفة البيئيين أمثال: Ralph Emerson Alppold Rachel Carson وغيرهم. غير أني لاحظت أيضًا أنه تعرض لخطاب ألقاه رئيس وفد الهنود الحمر المفاوض للحكومة الأمريكية في مدينة سياتل عام 1854م نظرًا لما يحويه هذا الخطاب من قيم وآراء جديرة بالملاحظة ويتعلق بموضوع الكتاب. وعندما قرأت هذا الخطاب أثار اهتمامي ودفعني لترجمته والتعليق عليه. وها أنا أثبت نص الخطاب كما ورد في الكتاب.

«لقد سمعنا خطاب السيد الرئيس في واشنطن وفهمنا أنه يريد أن يشتري أراضينا، وسمعنا عبارات الصداقة والودّ التي تشعرنا ولو بدرجة خفيفة بحاجته إلى صداقتنا، وقد أخذنا بعين الاعتبار رغبته في شراء أراضينا لأننا إذا لم نلبي هذه الرغبة فسوف يأتي بجنوده ويأخذونها عنوة.

كيف لنا أن نشتري أو نبيع السماء ودفء الأرض. إنّ هذه الفكرة بدت غريبة بالنسبة لنا، فإذا كنت لا تملك لطافة الهواء المنعش ولا صفاء المياه تحت أشعة الشمس فكيف لك أن تشتري أو تبيع أيًّا منهما؟!

أيّ قطعة من هذه الأرض مقدّسة بالنسبة لنا، فكل إبرة صنوبر لها إشعاعها وكلّ حبّة رمل على شواطئنا وكل غشاوة ضباب في غاباتنا وكل صفاء أو طنين أية حشرة له قداسته في ذاكرتنا وفي وجدان شعبنا، كل نسغ يأخذ طريقه في عروق أشجارنا يحمل ذاكرة كل فرد في أمتنا.

إن موتى الرجل الأبيض ينسون الأرض التي ولدوا فيها حين ذهبوا هائمين بين النجوم. لكن موتانا لن ينسوا هذه الأرض الجميلة لأنها أم الرجل الأحمر. نحن جزء من هذه الأرض وهي جزء منّا. فكل زهرة فوّاحة هي أخت لنا. الغزال والحصان والنسر العظيم. كل هؤلاء إخوة لنا. هذه الصخور الصلبة ونسغ المروج، حرارة جسم الجواد أو الإنسان. منّا كلهم ينتمون إلى عائلة واحدة.

ولذلك فإن رئيس واشنطن عندما يريد شراء أراضينا فإنه يطلب منّا الكثير. وعندما يقول رئيس حكومتهم إنه سيخصص لكلّ منا قطعة أرض يستطيع أن يعيش فيها بكلّ راحة فيما بيننا. وحتى يحق له أن يقول هذا يجب أن يكون أبًا لنا ونحن أولاده، ولئن أخذنا بعين الاعتبار رغبتكم في شراء أراضينا عليكم أن تعرفوا أن ذلك ليس سهلاً بالنسبة لنا، لأنها مقدّسة عندنا.. لقد تراجع الرجل الأحمر أمام الرجل الأبيض مثل تراجع الضباب أمام شمس الصباح، لكن رماد آبائنا وحُفر قبورهم تزيد أرضنا قداسة. هذه التلال، هذه الأشجار، قطع الأرض هذه كلها محاطة بهالة من القداسة. ونحن نعرف أن الرجل الأبيض لا يفهمنا من هذه الناحية. فكل قطعة أرض هي مثل الأخرى بالنسبة له، لأنه غريب. عندما ينتصر ويأخذها يغادرها، فهو ترك قبور آبائه خلفه ولم يأبه بها. فهو يخطف الأرض من الأطفال

ولا يرعوي، لأنه نسي قبور آبائه ومحاط ولادة أبنائه، فهو يتعامل مع الأرض أمه والسماء أخيه، كأشياء اشتراها فقط، نهبها ليبيعها كما يبيع شاة أو خرزة لامعة وتبقى شهيته فاغرة لافتراس المزيد من الأرض ليغادرها صحراء يبابًا. لست أفهم هل أساليبنا تختلف عن أساليب البيض؟! إن مشاهدة مدنكم تبهر عيون رجالنا فهل السبب هو أن الحمر متوحشون لا يفهمون.. فلا هدوء في أي جزء من مدن الرجل الأبيض، ولا مكان لسماع حفيف الأوراق في نسيم الربيع أو طنين جناحيّ حشرة. إنّ الضجيج في مدنكم يصمّ الآذان، وما نفع الحياة إذا كنّا لا نسمع صراخ السّبْد (طائر أمريكي جميل الريش) أو نقيق الضفادع على ضفاف الجداول ليلاً.. أم هل أنا رجل متوحش ولا أفهم أننا نفضّل نفحة الريح الناعمة على وجوهنا حاملة ذرات الغبار الذي يحمل رائحة البركة والذي يغسله مطر الظهيرة ويعبق برائحة أوراق الصنوبر والدردار. للهواء أثره عند الرجل الأحمر لأن جميع الأحياء تتنفس الحيوان والشجرة والإنسان كلها متشاركة فيه، في حين أن ذلك لا يعني شيئًا بالنسبة للرجل الأبيض.

وإذا بعناكم أرضنا فعليكم أن تتذكّروا أن الهواء أثير لدينا لأنه يشارك جميع الأحياء التي يحمل إليها الحياة. هذا الهواء الذي أعطى أجدادنا النفس الأول للحياة وتلقّى آخر زفراته عند الموت. هذا الريح الذي سيعطي آبائنا نَفَسَ الحياة، فإذا بعناكم أراضينا فعليكم أن تتذكروها وتحتفظوا بها كجزيء مقدس بالنسبة لكم أو مكان يذهب إليه الرجل الأبيض ليشمّ هواءه مضمّخا بعبير أزهار المروج. نحن سننظر في طلب شرائكم أراضينا عندما نقرر قبول ذلك ولكن لنا شرطًا واحدًا هو أن يعامل البيض وحوش أرضنا كإخوة له.

فأنا متوحش ولا أفهم أي أسلوب آخر للحياة.. لقد شاهدت آلاف الجثث مطروحة في البراري التي قتلها الرجل الأبيض من أجل مرور قطار. فأنا متوحش لا أفهم كيف أن هذا الحصان الحديدي الأدخن الجامح هو أهم من الجاموس الذي لا نقتله إلا من أجل الكفاف لدوام حياتنا.. كيف للإنسان أن يعيش بدون بهائم الطبيعة؟ لنتصوّر ذهاب كل حيوانات البريّة، ففي هذه الحال سيموت الإنسان في عزلة روحية هائلة. إنّ ما يحدث على حيوانات الطبيعة ينعكس بصورة آلية على البشر فكل الأشياء مترابطة إلى حد لا يمكن إنكاره.

حسنًا نحن سنأخذ بعين الاعتبار رغبتكم في شراء أراضينا وفي حال موافقتنا عليكم الالتزام بالعهد الذي وعدتم به. عند ذلك لربّما عشنا خلال حياتنا القصيرة كما نرغب. وعندما سيموت آخر رجل أحمر تاركاً هذه الأرض فإنّ ذاكرته ستبقى محتفظة بطيف غلائل الضباب في المروج. هذه الشواطئ وهذه الغابات ستبقى الحامل الوحيد لروح شعبنا لأنه يحب هذه الأرض كما يحب الوليد نبضات قلب أمه. وعليه فإنه عندما نبيعكم أرضنا عليكم أن تحبوها كما أحببناها، وأن تعتنوا بها كما اعتنينا بها، ليكن في عقولكم وذاكرتكم أن تبقى

هذه الأرض كما استلمتموها منا، وبكل قواكم، وبكل عقولكم، وقلوبكم. احتفظوا بها لأولادكم وأحبوها كما أحببناها جميعًا وكما يحبنا الله جميعًا. وكما نعلم فإنّ إلهنا واحد، وهذه الأرض أثيرة عنده وليس الرجل الأبيض مستثنى من القدر. ويمكننا أن نكون إخوة بعد كل شيء ولسوف نرى.

وفي معلومنا أن الأرض لا تنتمي إلى الإنسان بل هو الذي ينتمي إليها، والكل مترابطون كما تربط قرابة الدم أفراد العائلة الواحدة، فكل ما يحدث على الأرض ينال من أبنائها فالإنسان لا ينسج شبكة الحياة بل هو خيط في نسيجها فقط. وما يصنعه لهذا النسيج فهو يصنعه لنفسه فحسب.

سنأخذ بعين الاعتبار العهد الذي قطعتموه لشعبنا ومدى إخلاصكم له. سنعيش معزولين ولكن بسلام، إنها ليست ذات شأن. أين سنقضي أيام راحتنا.. لقد رأى أولادنا بعيونهم كيف يسقط أباؤهم في الهزيمة.يشعر محاربونا بالخجل والعار مما قد يدفعهم إلى الإحباط ويسقطون في شهواتهم للطعام الطيب والمشروبات القوية. إنها ليست بذات قيمة. أين سنقضي أيام راحتنا، فالقبائل مكونة من الرجال ليس أكثر. وهم يأتون ويرحلون كأمواج البحر.

وحتى الرجل الأبيض حين يكلمه ربّه ويسير معه كرفيق لا يستطيع أن ينجيه من القدر. ونحن يمكننا أن نعيش كإخوة بعد كل شيء ولسوف نرى. نحن نعرف شيئًا واحدًا يمكن للرجل الأبيض أن يعرفه في يوم ما هو أننا جميعًا ندين لإله واحد. ويمكن أن تفكروا الآن أنكم ملكتم رضاه كما ملكتم أراضينا لكنكم غير قادرين.

إنه إله البشر وحنوّه متساو بالنسبة للجميع وهذه الأرض أثيرة عنده، وإذاً نحن أذينا هذا التراب فنحن إذًا نزدري خالقها. وسيمضي البيض أيضًا وربمّا بسرعة أكثر من كل القبائل الأخرى. وفي مضيكم قدماً لتلويث فراشكم فيمكن أن يأتي اليوم الذي تدفنون فيه نفاياتكم، ولكن في فنائكم ستتألقون وستحرقكم القوة الإلهية التي جلبتكم إلى هذه الأرض ولفرض ما أعطتكم السيطرة على هذه الأرض وإنسانها الأحمر.

إن قدركم لغز بالنسبة لنا لأننا لا نفهم أنه عندما تباد الجواميس وتروّض الجياد البرية ستصبح زوايا الغابة مثقلة برائحة البغض ويصبح منظر الروابي ملطخاً بأسلاك الهاتف. وأين ستصبح الأدغال والأجمات؟ هل ذهبت؟ أين النسر؟ وكيف سنقول وداعًا للحصان السريع وللصياد؟ تلك هي نهاية الأحياء وبداية البناء».

إن القراءة الأولى لهذا الخطاب تدهشنا بما تثيره من أحاسيس جمالية لا تقل روعة عما يثيره نثر بليغ أو شعر مشحون بالعواطف والخيال البديع. أفلا يمكن أن نسمي ذلك أدبًا بيئيًا أو نسميه فلسفة بيئية عندما نعطي مفردات الطبيعة صورًا تنطق بمفاهيم وقيم قل أن نجدها في مجالات أخرى. فالنسر ونسغ المروج والحصان والإنسان كلها متشاركة في تنفس هواء واحد وتربية واحدة نستمد منها حياتنا ونؤمن استمرار حياتها.

ألا يحق لنا أن نسمي جملة هذه الطروحات بأنها تربية بيئية، فلماذا نقتل من الجواميس ما يزيد عن حاجتنا من الغذاء؟! ألا يجب أن نحترم بقاءها ليخدم بقاءنا نحن. أليست العزلة الروحية بعينها أن نعيش في طبيعة لا أحياء فيها، أو أن نتعامل مع هذه الأحياء كأشكال صمّاء لا حياة فيها؟!

نستنزفها إلى حد النفاد، حيث سنجد أنفسنا وجهًا لوجه، أمام بيئة متدهورة فاقدة للتوازن. أليست الطبيعة أمنا الأولى ومكمن مواردنا؟ ألا يكتشف الفكر الخلاق كل يوم مكمنًا جديدًا فيها. يرفد حضارتنا ويعزز وجودنا واستمرارنا.

ألا تهب البيئة الغنية ساكنها ترفًا ونعمة، وتعطي مصداقية القول بأن الجغرافية تصنع التاريخ. بهذا علينا أن نتعامل معها بوعي واحترام وإلا فلن يخدم البقاء البقاء.■

مترجمة عن كتاب Enveronmental sciece
Study of interr elationships
تأليف: Eldon D.Enger
Bradley F.Smith

تنمية الموهبة في التعليم

بقلم: John. F. Feldhusen
ترجمة: د.جمال الجزيري *

* أستاذ مساعد بقسم اللغة الإنجليزية ـ كلية المعلمين بالمدينة المنورة

شهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين نمو كم هائل من الأبحاث والتطورات الخاصة بمفهوم الذكاء. وتمخضت المفاهيم الجديدة عن تسهيل ظهور مناهج جديدة لتعيين الموهبة وتنميتها لدى الشباب. ويقدم لنا هذا العرض الموجز نموذجًا لتربية الأطفال والشباب الموهوبين بالاعتماد على مفهوم تنمية الموهبة، كما يناقش أيضًا طرقًا محددة لتعيين الموهبة وتنميتها.

هناك تقليد راسخ في مجال تربية الموهبة يقول إنه من الممكن بل المستحسن أن نطلق على الأطفال صفة «الموهوبين» بناء على الدرجات العالية التي يحصلون عليها في اختبارات الذكاء و/أو الدرجات المرتفعة التي يحصلون عليها في اختبارات التحصيل. ونجمت برمجة الموهوبين عن فكرة الذكاء العام والثابت وأدت إلى ظهور برامج دراسية حصرية وتعميمية. وأغفل مثل هذا المنهج جوانب القوة والقدرات الفردية لبعض الطلاب الموهوبين.

في المقابل، ولدت الدراسات التي أجراها ستيرنبيرج (١٩٩١م) وجاردنر (١٩٨٣م) منهجًا تشخيصيًا في تناول القدرة صارت به مواهب أو كفاءات معينة بؤرة التعيين والخدمات. وقدمت نظرية ستيرنبيرج عددًا من مكونات الذكاء يقع في ثلاث فئات رئيسية: ما وراء المكونات (التخطيط والتحكم والتقييم) ومكونات الأداء (المهارات والقدرات) ومكونات اكتساب المعرفة (المعالجة والتشفير). وطورت نظرية الذكاءات المتعددة (في الأصل الذكاء اللغوي والذكاء الرياضي المنطقي والذكاء الفراغي والذكاء الموسيقي والذكاء الحركي والذكاء المتعلق بالعلاقات بين الأشخاص والذكاء المتعلق بالعلاقات داخل الشخص نفسه) عند جاردنر النظرة إلى القدرات البشرية بوصفها متعددة الأبعاد.

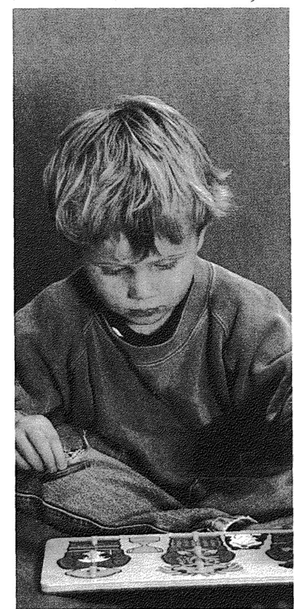
مهدت الأبحاث التي أجراها جاجني (١٩٨٥م، ١٩٩٣م) والنموذج الذي وضعه لتنمية الموهبة الطريق بلا لبس للتركيز على المواهب. واقترح مجموعة كامنة من الكفاءات أو المواهب الفكرية والإبداعية والوجدانية الاجتماعية والحركية الإدراكية والعديد من القدرات الأخرى غير المحددة. ويتفاعل الطفل بهذه القدرات الأساسية مع عوامل الحفز مثل المدرسين أو الآباء ويشارك في التعلم والتدرب وتجارب الممارسة. وبالتشجيع والدعم تتولد مواهب الطفل من هذه التجارب.

نموذج للتعرف على الموهبة وتنميتها في المدارس

يمكن للبرامج والمناهج والخدمات التي تقدم للشباب الموهوب أن تلبي احتياجاتهم على أكمل وجه وأن تزيد من تحصيلهم في الحياة وتساهم في تحسين مجتمعنا عندما تضع المدارس يدها على جوانب قوة معينة في مواهب الطلاب وتركز الخدمات التربوية على هذه المواهب. فالمدارس تحظى بموقع فريد يمكّنها من أن تعين وتنمي مواهب الطلاب في أربعة مجالات أساسية: وهي المجال الأكاديمي والمجال الفني والمجال المهني التقني والمجال الشخصي الاجتماعي. ويشمل المجال الأكاديمي العلوم والرياضيات واللغة الإنجليزية والدراسات الاجتماعية واللغات. ويحوي المجال الفني الرقص والموسيقى والتمثيل المسرحي والتصوير الفوتوغرافي وفنون الرسم والتصوير.

وتتمثل المجالات المهنية التقنية في الاقتصاد المنزلي والمجال التجاري الصناعي ومكتب العمل والزراعة وتقنية الحاسبات. وأخيرًا في المجال المتعلق بالعلاقات بين الأشخاص تعتبر القيادة والرعاية والخدمات الإنسانية مجالات ممكنة يمكن فيها تعيين مواهب معينة وتربيتها.

وتفيدنا العديد من مقاييس ومعايير التقييم في تعيين المواهب في كل هذه المجالات الأربعة. وتشتمل هذه المقاييس على المقاييس العشرة لتقييم الخصائص السلوكية للطلاب المتفوقين التي وضعها رنزولي وآخرون (١٩٩٧م) ومقاييس جامعة بيرديو للتقييم الأكاديمي ومقاييس جامعة بيرديو للتقييم المهني (فلدوسن وهووفر وسيلر، ١٩٩٧م). ويمكن استخدام



مجموعة كبيرة من اختبارات الكفاءة والتحصيل في تعيين المواهب الأكاديمية وبعض المواهب المهنية التقنية. وتعتبر اختبارات الأداء الطريقة المفضلة لتقييم الموهبة في الفنون التي تقوم على الأداء، بينما تعتبر حافظة الرسوم الطريقة المفضلة لتقييم الموهبة في فنون الرسم والتصوير. والحافظة مفيدة أيضًا في تحديد المواهب في المجالات الأكاديمية عندما تحوي هذه الحافظة نتائج مشروعات الطفل ونشاطات حل المسائل التي يقوم بها وإنتاجه الإبداعي.

ولكن لا ينبغي لنا أن ننظر إلى عملية التعرف على المواهب وتنميتها على أنها تعيين يحدث في جلسة واحدة ولمرة واحدة بالاعتماد على الاختبارات ومقاييس التقييم التي تصنف الطلاب على أنهم «موهوبون» أو «غير موهوبين». فهي عملية طويلة المدى يتعرف فيها الآباء والموظفون في المدرسة والطلاب أنفسهم على المواهب الفريدة لدى الطلاب ويفهمونها ويعملون سويًا على تسهيل تنميتها. وقدم لنا فلدوسن ووود (١٩٩٧م) أسلوبًا لإشراك الطلاب والآباء والمدرسين والمرشدين في التعرف على موهبة الطالب وتنميتها. وهذا الأسلوب عبارة عن نظام «لتخطيط النمو» يقوم فيه الطلاب من الصف الثالث حتى الصف الثاني عشر بالتخطيط في أواخر الفصل الدراسي الثاني لبرامجهم في العام التالي. ويقوم الطلاب بتصنيف ومراجعة تحصيلهم بأنفسهم ويقيّمون اهتماماتهم وأساليب تعلمهم ويصوغون أهدافهم الشخصية (الأكاديمية والمهنية والاجتماعية). ثم يختارون موادهم الدراسية ونشاطاتهم التي تقع خارج المناهج الدراسية وتجاربهم خارج المدرسة التي تتوافق مع تحصيلهم السابق وتعكس الأهداف التي وضعوها لأنفسهم وتفرض تحديات مناسبة.

استخدم فلدوسن ووود هذا النظام مع المئات من الطلاب الموهوبين وتوصلوا إلى أنه منهج فعال في إشراك الأطفال والشباب في عملية تنمية المواهب. ففي العادة يستطيع الطلاب الموهوبون المشاركة في نشاطات التعلم مع اقتصار مشاركة المدرس على قدر ضئيل أو حد أدنى. وتوصل فلدوسن إلى أن قدرة الطلاب على توجيه الذات في العمل الفردي والعمل الذي تقوم به مجموعات صغيرة كانت مرتفعة جدًا عندما قام معلموهم بتقديم مادة تعليمية جيدة

وإرشادات أولية. ونمت قدرة الطلاب بسرعة على القيام بالتعلم ذي التوجيه الذاتي والطابع الفردي.

استراتيجيات التعرف على الموهبة وتنميتها

لدى الطلاب من كل الأعمار قوى موهبة نسبية وينبغي للمدارس أن تساعدهم على تعيين قدراتهم الخاصة وفهمها. ويجب أن يكون في متناول الطلاب ذوي المواهب المرتفعة بشكل متميز عن أقرانهم موارد ونشاطات تعليمية تتوافق مع مواهبهم (فلدوسن، ١٩٩٨م). إذ إنهم في حاجة إلى قدر كبير من المساعدة والدعم الوجداني من آبائهم، وكذلك إلى زاد وموارد تربوية واسعة من المدرسة، هذا بالإضافة إلى وسط الأقران المؤازر. كما أنهم في حاجة إلى معلمين بإمكانهم أن يظهروا ويشكلوا مستويات متقدمة من الخبرة العملية والإبداع في مجالاتهم الخاصة بطاقة الموهبة الكامنة (بلايس وفلدوسن، ١٩٩٥م).

ويمكن للمعلمين والموظفين الآخرين بالمدرسة أن يستخدموا الاستراتيجيات التالية للمساعدة على تفعيل هذه النموذج (فلدوسن، ١٩٩٦م):

- كونوا متنبهين لدلائل الموهبة في مجالات الموهبة الأربعة. بيّنوا جوانب القوة للطالب وأبويه، وأجروا الاختبارات للتحقق من الموهبة الناشئة الممكنة.
- قوموا بتصميم نشاطات التعلم التي ستعطي الطلاب الفرصة لإظهار طاقة موهبتهم.
- استخدموا المديح للتعرف على دلائل الموهبة وتدعيمها.
- ساعدوا الطلاب الذين لديهم موهبة في مجالات معينة على وضع أهداف تعلم لهذا المجال.
- حددوا مكان الموارد المتاحة في المدرسة والمجتمع التي بإمكانها المساعدة على تنمية مواهب الطالب.
- استعينوا بالآباء في تحديد وتغذية مواهب أولادهم من خلال تزويدهم بالموارد والخبرات وتشجيعهم على عادة وضع الأهداف.
- يتمثل الهدف النهائي للتعرف على الموهبة وتنميتها في مساعدة الطلاب على فهم جوانب قوة مواهبهم وإمكاناتها ومعرفة كيفية تتبع أفضل نشاطات تنمية الموهبة والاشتراك في هذه النشاطات وإلزام أنفسهم بتنمية مواهبهم.

المراجع

Feldhusen, J. F. (June 1998). Programs for the gifted few or talent development for the many? Phi Delta Kappan, 79(10), 735738-.

Feldhusen, J. F. (1996). How to identify and develop special talents. Educational Leadership, 53(5), 6669-.

Feldhusen, J. F., Hoover, S. M., & Sayler, M. F. (1997). Identification and education of the gifted and talented at the secondary level. New York: Trillium Press.

Feldhusen, J. F., & Wood, B. K. (1997). Developing growth plans for gifted students. Gifted Child Today, 20(6), 24-28.

Gagne, F. (1985). Giftedness and talent: Reexamining a reexamination of the definition. Gifted Child Quarterly, 29(3), 103112-.

Gagne, F. (1993). Constructs and models pertaining to exceptional human abilities. In K. A. Heller, F. J. Monks, & A. H. Passow (Eds.), International handbook of research and development of giftedness and talent (pp. 6987-). New York: Pergamon Press.

Gardner, H. (1983). Frames of mind: The theory of multiple intelligences. New York: Basic Books.

Pleiss, M. K., & Feldhusen, J. F. (1995). Mentors, role models, and heroes in the lives of gifted children. Educational Psychologist, 30(3), 159169-.

Renzulli, J. S., Smith, L. H., White, A. J., Callahan, C. M., Hartman, R. K., & Westberg, K. L. (1997). Scales for rating the behavioral characteristics of superior students. Mansfield Center, CT: Creative Learning Press.

Sternberg, R. J. (1991). Giftedness according to the triarchic theory of human intelligence. In N. Colangelo & G. A. Davis (Eds.), Handbook of gifted education (pp. 4554-). Boston, MA: Allyn & Bacon.

تفهم طفولتك تتخلص من مخاوفك

ترجمة: أحمد عثمان البسام - الرياض
المصدر: The Psychologist - Magazine - London

مخاوفك.. إنها تتسلل إليك بحذر أثناء النهار، وتظهر لك شبحًا مفزعًا في الليل، فتستنزف قواك وتحرمك النوم وتجعلك تخاف الحياة. وقد تمر بك أوقات تبدو لك هذه المخاوف سخيفة تافهة، وقد تضحك من نفسك لاستسلامك لها، ولكنها سرعان ما تعودُ لتزعجك مرةً أخرى!

إن هذه المخاوف التي تستحوذ عليك ليست بالمخاوف الطبيعية، بل هي أوهام لا يمكن التحكم بها، ناتجة عن أمور كان الأحرى بها ألا تخيف، ولكنك تستطيع أن تتحرر منها إن أنت أردت ذلك حقًا. وإليك أربع خطوات تُفضي بك للخلاص منها:

أولًا: تفهم ماهية مخاوفك

هناك ستة أنماط شائعة من الخوف تنغص حياة المبتلين بها وتشل قواهم، فلنبحثها لنعرف شيئًا عنها:

- كثير من الناس يعذبون أنفسهم لاعتقادهم أنهم صائرون إلى الجنون، إما بسبب ضعف الذاكرة أو بسبب أحلام اليقظة المزعجة، أو لأن عقولهم تزدحم بالأفكار الشريرة فيخشون حينئذ أن تصبح هذه الهواجس حقائق، وعند ذاك يقول أحدهم: «لابد أنني سأكون مجنونًا!».

فهذه امرأة تقرأ نبأ في صحيفة عن أحد قتلة الأطفال، فيلازمها الخوف من أن ترتكب حماقة تؤدي إلى الإضرار بطفلها هي فتجدها تقشعر فزعًا لدى رؤيتها سكين المطبخ على المائدة، أو موسى الحلاقة الخاص بزوجها في الحمام!

وهذا رجل ما يكاد يغادر بيته في الساعة الثامنة والدقيقة الأربعين صباحًا (وهو الوقت الذي تزدحم فيه المدينة عادة بالناس) حتى يلازمه خوف شديد من أن يدفع أحدًا من المارة نحو طريق سكة الحديد أثناءِ قدوم القطار، فيتصبب جبينه عرقًا بمجرد تفكيره في هذا الأمر المخيف، فتجده يتراجع مذعورًا مبتعدًا عن رصيف المحطة بأعصابه المتوترة وأوصاله المرتجفة لئلا يرتكب هذه الحماقة.

فمثل هذا الرجل يعتقد في نفسه أنه غير طبيعي، فإن كنت تشكو من مثل هذا النمط من الخوف فلك أن تطمئن من أنك طبيعي جدًا، وما عليك إلا أن تعرف فقط ما قد حدث لك في طفولتك. فعندما كنت صغيرًا بتفكيرك الساذج حدثت لك متاعب مؤلمة كشجار أو سوء تفاهم أو أصابتك خيبة أمل مريرة كانت سببًا في إيجاد

شيء من نوازع المقت عندك للآخرين!

ومن المعروف أن نوازع المقت عند الأطفال تتحول آليًا إلى رغبات في الانتقام أو التعذيب. ولكن رغبات الطفل هذه لا تجد لها مجالاً للتحقيق بل تُكبت، وحينئذ تترسب في أغوار اللاشعور. ومن الطبيعي أن تحاول في حياتك اليومية أن تبدو جيد السلوك وأن تفكر تفكيرًا سويًا، ولكن اللاشعور أو «العقل الباطن» ليس بـ«الوعاء المحكم»، لذا عندما تصبح رجلاً ويعود الفشل يعذبك من جديد تتحول ردود الأفعال البدائية للكره أو القتل إلى رغبات شريرة تجوس خلال الشعور أو «العقل الواعي»، وهكذا نجد أنفسنا ضحايا هذه الأفكار الحمقاء، ولكن ما إن نعرف أن هذه المخاوف ليست سوى رد فعل للمتاعب التي صادفتنا ونحن صغار حتى نستخف بها ونتصرف إزاءها بحكمة.

- وبعض الناس يساوره فزع لا معنى له من أن يصبح وحيدًا يومًا ما. فهذه سيدة تبكي بمرارة وتقول: «ماذا قد يحدث لي لو مات زوجي؟» مع أن زوجها هذا يتمتع بكامل صحته، بل هو أفضل منها صحة وأقوى بنية. فلماذا كل هذا الفزع الذي لا مبرر له؟! لقد ترمل كثيرون ومع ذلك فقد عاشوا سعداء، أما بالنسبة لهذه المرأة فإن وفاة زوجها ستكون لها مصيبة المصائب.. لماذا؟ السبب أنها عندما كانت طفلة اعتادت أمها تركها في البيت وحيدة لتذهب هي إلى عملها. فأحست بالإهمال، وصارت حياتها بعد ذلك مبنية على هذا الأساس، ثم أخذت تتشبث بكل وسيلة كيلا تُترك وحدها. ولما كان من العسير على الطفل ضبط عواطفه فقد أصبح همها متركزًا في منع حدوث أمر مُشابه، ومرة أخرى ما إن تدرك هذه المرأة سبب مخاوفها حتى تستطيع التحرر منها وأن تبدأ حياة هادئة.

- وكثير من الناس يستحوذ عليهم الخوف من أن كارثة ستنزل بساحتهم في أية لحظة، وهذا يؤدي بهم إلى أن يصبحوا هيّابين مترددين، ولو أمعن هؤلاءالنظر في سني طفولتهم لوجدوا أنها كانت تزخر بالتحذيرات المخُوفة والنواهي المفزعة، فما من أمر يزاوله الطفل إلا وكان في رأي والديه عملاً غير صالح، وما من شيء يجد فيه متعته إلا واستحق من أجله العقاب! كانت الكلمة المفضلة لدى أبويه والتي ما ينفك أحدهما أو كلاهما يقذف بها في وجهه هي كلمة «لا تفعل» فامتلأ عقله الغض بتخيل «المصائب» التي ستحل به إذا ما أتى عملاً يجد فيه البهجة. وفيما بعد، عندما يصبح رجلاً ناجحًا مستقلاً يجد نفسه ضحية الشعور بالإثم ويصير شديد الخوف من أن القدر له بالمرصاد، وأن النكبة ستنزل به عقابًا له على ما اقترف من ذنوب!

- وبعض الناس يلازمه من المرض، وبخاصة خشية الإصابة بالسرطان أو العدوى من مرض تناسلي. والخوف من الأخير يداهم عادة أولئك الذين يتصفون بالخلق الحميد والسلوك المستقيم، أو أولئك الذين يبالغون في الاهتمام بالنظافة إلى حد الإفراط، وهؤلاء هم أبعد الناس احتمالاً لإصابتهم بالعدوى! إن هذا النمط من الخوف ناتج طبقًا من التحذيرات الزائدة عن اللزوم والتي يسمعها الطفل من أبويه اللذين يحبانه فيفرطان في القلق على صحته والسهر على نظافته.

- وبعض الناس من يخشى أن يرتكب أحدهم عملاً يؤدي به إلى الإضرار في نفسه وإيذائها، أو أن يُقدم على الانتحار مثلاً!

قالت امرأة يومًا: «إنني أخاف البقاء وحدي في البيت، فأبتلع أقراصي المنومة ثم أطفئ المصباح!»، ولدى بحثي في طفولتها تبيّن لي أنها لم تكن تجد المجال الكافي للتنفيس عن مشاعرها العدوانية الطبيعية، لذا فقد ترسبت في أعماق اللاشعور، وتحولت هذه المشاعر إلى كره لنفسها ورغبة في تدميرها، فاستنزف هذا الكره حيويتها، وعندما كبُرت وصادفت بعض المتاعب العاطفية وجدت نفسها فريسة هذه الأحاسيس الخبيثة، ولكنها ما إن أدركت جذور مخاوفها حتى عادت إليها طمأنينتها!

ثانيًا: صل مخاوفك الحالية بطفولتك

إن هذه خطوة لازمة لحل مشكلتك. إن الخوف الذي يلازمك لابد أنه يمُثل مشكلة عاطفية حدثت لك وأنت صغير، فانظر إليه على هذا الأساس وغالبًا ما تكون كل حالة من هذا النمط ناشئة عن العلاقة بين الطفل وأحد أبويه. إن خوف الطفل من



عقاب أو تأنيب والديه بقي يجوس في عقله وينمو مع نموه، ومازال يعذبه، وما إن تدرك الصلة بين مخاوفك الحالية ومرحلة الطفولة حتى تستطيع أن تتحرر من شبح هذه «اليد الأبوية» وتكف عن معاقبة نفسك بمثل هذه المخاوف التي لا جدوى منها.

ثالثًا: تحرر من عادة الخوف

في الحقيقة إن حياتك كلها تظلُّ تحت رحمة مشكلتك التي حدثت لك أثناء طفولتك، فإن استطعت أن تتحرر من الخوف الناشئ عن تلك المشكلة فسوف تبدأ حياة جديدة تمامًا، وعلى حد تعبير علم النفس «تولد من جديد!».

لا تحاول أن تقلل من شأن عادة الخوف المستحوذة عليك، وقد يبدو لك أنك قادر على التخلص بسهولة من هذه المخاوف، ولكن التحرر من عادة قديمة ليس بالأمر اليسير. عليك أن تعزم على أن تصبح إنسانًا جديدًا، وأن تكون مستعدًا لأن تُدهش أقاربك وأصدقاءك بالتصرف بطريقة مختلفة تمامًا وأن تختار لك عادات جديدة أخرى. ليست عادة الخوف وليدة الخوف نفسه وحده ولكن استسلامك لمخاوفك هو سبب سيطرة هذه العادة عليك، وقد حان الوقت للتخلص من كل ذلك بالثقة من أن حياتك المقبلة ستكون أكثر سعادة وبهجة!

رابعًا: استخدم طريقة الإيحاء الذاتي

لا تُوحِ بالخوف لنفسك، بل زوّدها بكل ما من شأنه أن يزيدك ثقةً بها واطمئنانًا إليها. لا تحاول أن تحارب الأفكار السلبية المزعجة، بل عليك أن تبحث عن جذورها وأسبابها ثم استبدل بها الأفكار الصائبة المفيدة.

تأكد من أن هذه المخاوف التي تنتابك ليست منطقية ولا معقولة، وما هي في أساسها سوى امتداد لمشكلات حدثت لك أثناء مرحلة الطفولة، وقد آن الأوان لأن تُحدث تغييرًا كاملاً في حياتك.

غَذِّ نفسك بالثقة، ولينبض قلبك بالإيمان بالله، ولسوف تبرأ مما تشكو منه عندما تزود عقلك وعواطفك بالآراء السديدة والأفكار المجدية.

قبل أن تبدأ يومك خصص لنفسك فترة من خمس إلى عشر دقائق من التأمل والإيحاء الذاتي. قل لنفسك بهدوء، أو حتى بصوت عالٍ إن كنت في غرفة خالية إلا منك:

- إن الله معي هذا اليوم يساعدني ويوفقني. أنا مطمئن أن التوفيق حليفي والسعادة من نصيبي!
- إنني لم أعد طفلاً.. أنا رجل.. وإنني مصمم على التمتع ببهجة يومي هذا حتى الثمالة.
- إنني قوي ومعافى والحمد لله، وسوف أواجه أية مشكلة بشجاعة وصدر رحب.
- افهم نفسك جيدًا.. وداوم على مزاولة هذا التمرين من الإيحاء الذاتي مدة شهر، ولسوف تصبح بعد ذلك إنسانًا آخر! ■



إحساس مرهف وعدوانية مؤلمة وحوارات صامتة

الطفولة الانطوائية

السيد عمار شرقية - سوريا

قد تكون معظم الحالات النفسية مجرد أعراض لأمراض ومشكلات اجتماعية واقتصادية، وهذا يعني أن هنالك سببًا بشريًا يقف بشكل مباشر أو غير مباشر وراء تلك الحالات ويعني أن هنالك ضحية كانت الطرف الخاسر في تركيبة اجتماعية ما. والانطوائية هي إحدى المشكلات الشائعة لدى الصغار والكبار التي تمثل إلى حد ما رفض الإنسان للواقع، وتدل على وجود خلل ما في علاقة الإنسان بالآخرين وعلاقتهم به، وهي مشكلة مصيرية يجب أن تؤخذ على محمل الجد وألا ينظر إليها على أنها مجرد طبع من طباع الأطفال أو الكبار.

يمكن أن تنبع الانطوائية من داخل الطفل دون أن يكون لها أسباب واضحة، وقد يكون سببها خارجيًا، أي أن يكون لدى الطفل استعداد لتقبل الآخرين لكن أولئك الآخرين يرفضونه ويعرضون عنه، وهي الحالة الأكثر شيوعًا. وفي هذه الحالة نلاحظ أن الصغير يحاول مرات ومرات أن يتقرب من الآخرين إلا أنه لن يكرر تلك المحاولات الفاشلة إلى ما لا نهاية، أي أن الصد الخارجي الذي يواجهه الصغير سيتحول إلى سبب داخلي يدفعه إلى تحاشي الآخرين، وذلك عندما ترتبط في مخيلته فكرة التقرب من الآخرين بفكرة الألم.

وهكذا فإنه سيضطر إلى الانسحاب من الحياة الاجتماعية. وفي الوقت الذي سينمو فيه زملاؤه من الناحية الاجتماعية من خلال اللعب والتفاعل الاجتماعي سيبقى ذلك الطفل بمنأى عن تلك التفاعلات، وعلى هذا الأساس سيتوقف نموه الاجتماعي مما يحدث فجوة زمنية في حياته وبينه وبين الآخرين كنتيجة لعجزه عن تجاوز مرحلة معينة من الحياة على المستويين النفسي والاجتماعي، وستشكل النقاط التي لم يتمكن الطفل من تجاوزها محورًا ستدور حوله حياته المستقبليه بأكملها مما يضطره لاتخاذ شخصية يرضى عنها المجتمع تمثل عمره الزمني ليغطي بها شخصية أخرى حقيقية توقف نموها عند مرحلة عمرية معينة!

وغالبًا ما تظهر تلك المشكلة بشكل واضح في المدرسة، حيث تكون العلاقات الاجتماعية ضمن المدرسة على درجة عالية من الحدة والتناقض ويزداد هذا التناقض في المدارس التي تجمع تلاميذ ينتمون بالأساس إلى شرائح اجتماعية متناقضة، حيث إن الصغار يستخدمون تقريبًا الآليات والمعايير الاجتماعية نفسها التي يستخدمها الكبار فيما يتعلق بالقبول والرفض الاجتماعيين. فعندما يطلب الآباء من أطفالهم ألا يلعبوا مع طفل ويشجعونهم على اللعب مع طفل آخر (لاعتبارات اجتماعية) فإن أولئك الصغار يتعلمون بعد فترة من الزمن أن يتجاهلوا جميع الأولاد الذين تنطبق عليهم المواصفات التي لا يفضلها الكبار، وعادة ما يرفض الصغار تقبل الأولاد الذين لديهم مشكلات اجتماعية أو نفسية أو إعاقات جسدية، وقد يتصرفون بشكل عدائي تجاههم.

ومن جهة أخرى فإن كون مجال تركيز الصغار الانطوائيين مختلفًا عن مجال تركيز أقرانهم، وذلك يرجع إلى استغراقهم المفرط في ذواتهم، يجعل منهم لاعبين سيئين، وهذا بحد ذاته يشكل

سببًا كافيًا حتى لا يرغب الصغار في طفل انطوائي بينهم أو ضمن فريقهم، في الوقت الذي يتهافتون فيه على ضم صغير اجتماعي يملأ الملعب صراخًا ومشاكسة.

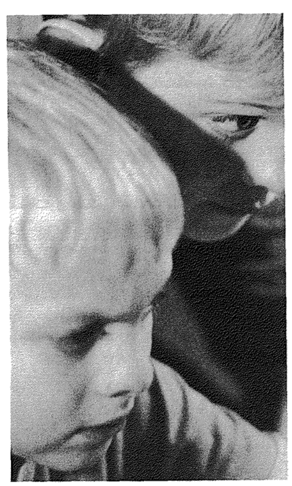
والحقيقة أن وصف الأولاد لصغير ما بأنه ماهر في اللعب هو وصف غالبًا ما يكون غير دقيق، إذ إن جرأة الصبي الاجتماعية وصراخه المرتفع هما اللذان يجعلان منه لاعبًا ماهرًا في نظر أقرانه.

وهكذا فإن وجود ميول انطوائية لدى الطفل يمكن أن يدفع الآخرين إلى الإعراض عنه مما قد يسبب تفاقم تلك الميول لدى الصغير. ولعل الصد الذي يكون مصدره أحد الوالدين أو كلاهما هو من أخطر أنواع الصد الذي يمكن أن يتعرض له الطفل. ويحدث ذلك في حالات نادرة يكون فيها أحد الوالدين أو كلاهما فاقدًا للعواطف الطبيعية تجاه ذلك الصغير. ويحدث ذلك لأسباب عدة كأن يكون أحد الزوجين قد أرغم على الزواج بشخص يكرهه. أو في حالات الخلل النفسي والعاطفي الشديدة وحالات الانهيار الخلقي والاجتماعي والإدمان الشديد على المخدرات والخمور ووجود خلل في تربية الآباء والأمهات كأن تربى الفتاة كصبي الأمر الذي يمكن أن يقتل فيها عاطفة الأمومة في المستقبل.

حوارات صامتة

نميز الطفل الانطوائي دائمًا بنظرته الشاردة الحزينة وبصوته الخافت وتصرفاته الحذرة المترددة. إنه الصغير الذي نراه ملتصقًا بجدار الملعب في الوقت الذي يتدافع فيه زملاؤه ويتراكضون ويملؤون الملاعب بهجة وحياة!

والكآبة تترافق غالبًا مع الانطوائية حتى إنه يصعب التمييز أو تحديد العلاقة بينهما على أرض الواقع وفيما إن كانت الكآبة إحدى أعراض الانطوائية أم أن الانطوائية هي إحدى أعراض الكآبة، أو أن الانطوائية هي الوجه الاجتماعي والكآبة هي الوجه النفسي للمشكلة عينها فإنه لا يمكن تخيل وجود إحداهما دون وجود الأخرى. كما أن النجاح في علاج أي منهما كفيل بالتخفيف من أضرار الأخرى.



ولكي نقترب أكثر من فهم الطفل الانطوائي علينا أن نلاحظ أن الفاعلية لديه تتجه بشكل شبه تام نحو ذاته. وذلك لأن ذلك الطفل - غالبًا - لم يجد من يفهمه ويمنحه القدرة على التعبير الفاعل عن ذاته. فهو ليس بأي حال من الأحوال طفلاً بليدًا كما قد يتصور البعض، لكنه يخوض صراعات نفسية شديدة تستنفد طاقاته وتفوق مقدرته الضئيلة على المقاومة والاحتمال رغم ما يبدو عليه من مظاهر الاستكانة والدعة. وإن لم نمكنه من تجاوز قلقه الذاتي ونمنحه السكينة الداخلية فلن يستطيع أن يتفرغ لمواجهة تحديات العالم الخارجي، فالإنسان لا يستطيع أن يترك عدوًا ما في بيته ويخرج لمواجهة عدو في الشارع فكيف يكون الحال لو كان ذلك العدو في داخل الإنسان؟!

ولعل تلك الصراعات التي تنشأ في نفوس الانطوائيين قد ترجع إلى أن الإنسان عندما ينسحب من الحياة الاجتماعية يجد نفسه مجبرًا على الخوض في حوارات صامتة ومراجعات مع الذات حتى ولو كان طفلاً صغيرًا. وهذه الحوارات

غالبًا ما تكون حوارات انتقائية، أي أنها تركز على النقاط السلبية والذكريات الحزينة وتقوم بإحيائها وتضخيمها وتكرارها المرة بعد المرة مما يضاعف من آثارها السلبية عشرات بل مئات المرات. أما بالنسبة للأطفال الاجتماعيين فإن انهماكهم في اللعب يخرج تلك الرسائل السلبية من دائرة تركيزهم، ولاسيما أن الطفل لا يستطيع إلا أن يركز على موضوع واحد فقط، مما يقلل كثيرًا من تأثير الرسائل السلبية التي يتلقاها، حيث إن ردة الفعل السلبية لموضع سلبي ما تقل كلما احتل ذلك الموضوع حيزًا أقل من تركيز الإنسان. فالحياة الاجتماعية الحافلة بالأحداث والمناسبات الاجتماعية والزيارات العائلية لها مفعول إيجابي جدًا على صحة الطفل النفسية. وفي عالم الكبار تلعب مجلس العزاء الدور ذاته تقريبًا، حيث إن إشغال ذوي المتوفى بالطقوس والترتيبات المعتادة إضافة إلى اجتماع عدد كبير من الناس يبعد ذوي الفقيد إلى حد كبير عن الاستغراق في أفكار مرعبة عن الموت وما بعد الموت، وخصوصًا في الأيام الأولى للصدمة.

احتقار الذات

وقد يصاب الصغار بحالة من الانطوائية المفاجئة (وهي حالة يمكن أن يصاب بها أي طفل) والتي تخفي حادثة غير سارة أو موقفًا يفوق درجة تحمل وإدراك الصغير. وفي هذه الحالة يجب أولاً (وقبل كل شيء) إخراج الصغير من تلك الحالة قبل أن تتمكن منه، ومن ثم يتوجب معرفة الحادثة التي تقف وراء تلك الحالة. كما يمكن أن تحدث تلك الحالة كنوع من احتقار الذات ومعاقبتها أو كنوع من رفض الجسد وذلك عندما يرفض الطفل أو المراهق مواجهة الآخرين بجسد لا يرغب فيه، حيث يشعر المراهق أن جسده لا يناسبه أو أنه قد فرض عليه فرضًا.

ويمكن للأهل اكتشاف تلك الظاهرة من خلال ملاحظة تصرف المراهق حيال الصورة الشخصية والمرايا، فبسبب النمو السريع وغير المتوازن في تلك المرحلة الحرجة يرى المراهق أن ملامحه غير مقبولة لدى أولئك الصغار كتحول الأنف الطفولي إلى أنف بحجم وشكل لا يناسبان الوجه، أو ظهور حب الشباب أو عدم التناسب بين أبعاد الجسم وغيرها في مرحلة يكون الجمال الجسدي فيها موضوعًا على درجة كبيرة من الأهمية (وينسحب ذلك على الأطفال المعوقين وقصار القامة). وتجب عدم السخرية من الطفل أو المراهق أو انتقاد ملامحه، وخصوصًا من قبل الأشخاص المقربين الذين يثق بهم وبحبهم له رغم أنه قد يبدو على الصغار عدم الاكتراث لهذه السخرية، فعدم الاكتراث بحد ذاته قد يكون مؤشرًا على احتقار الذات. وهذا الشعور يمكن أن ينبع من داخل الصغير ويمكن أن يقوم الآخرون بزراعته فيه، وذلك عندما يتعرض الصغير للسخرية الدائمة من شكله أو من تصرفاته. علمًا أن أخطر أنواع الأذية التي يمكن أن يتعرض لها الطفل هي الأذية التي قد تصدر عن أشخاص مقربين؛ ذلك لأنه سيقنع نفسه بأنه يستحق ما حدث له وسيقوم دائمًا بلوم واحتقار نفسه، وهو ما لن يحدث على الأغلب عندما يتعرض الصغير للإهانة من أشخاص لا يحبهم ويعتقد بأنهم يبادلونه المشاعر ذاتها.

وعلى كل حال يجب أن تؤخذ شكاوى الصغار على محمل الجد ويجب إقناعهم أن الحياة أكبر من أن توقفها تلك المصاعب الصغيرة وأنه لا يوجد إنسان كامل حتى ولو بدا كذلك، فلكل إنسان نقطة ضعف وعليه أن يتغلب عليها.

بالإضافة إلى ما تقدم فإن عدم التناسب الحاد بين الصغير وزملائه في المدرسة أو في الجوار (من الناحية الاجتماعية) يمكن أن يكون أحد أسباب ابتعاد الصغير عن الآخرين.

فالأولاد لا يتقبلون فكرة أن يكونوا مختلفين عن أقرانهم أو أقل منهم، وخصوصًا فيما يتعلق بمظهرهم وبحاجاتهم الشخصية. وبالتالي يفضل أن يسجل الصغير في مدرسة تضم تلاميذ مقاربين له في الوضع الاجتماعي.

كما يجب الانتباه إلى مسألة عدم التناسب الاجتماعي بين عائلتي الزوجين، وخصوصًا فيما يتعلق بالطرف الذي سيتولى الإنفاق على الأسرة، إذ إن عدم التناسب بين الصغار وأقاربهم قد يكون أحد أسباب تجاهل ونبذ أولئك الصغار في

المستقبل، وهكذا يمكن أن تكون الانطوائية إحدى أشكال رفض الواقع والاحتجاج عليه.

تصرفات عدوانية

ما يلاحظ أن ما يدفع ببعض الأولاد إلى الابتعاد عن الآخرين يمكن أن يدفع بالبعض الآخر منهم إلى القيام بالأفعال العدوانية. فالأولاد الذين يشعرون دائمًا أنهم أكبر سنًا أو حجمًا من رفاقهم في الصف - أي أنهم مميزون بصفة سلبية عن رفاقهم - يمكن أن يدفعهم ذلك الشعور إلى القيام بتصرفات عدوانية تجاه الأولاد الأصغر سنًا أو حجمًا وتجاه المعلم والمدرسة، فهم سيرفضون التعلم لأن المدرسة هي المكان الذي يشعرون فيه بأنهم أكبر من الآخرين أو متأخرون عنهم: لذا فإن تجميع أولئك الأولاد العدوانيين الأكبر سنًا أو حجمًا في غرفة صف مستقلة قد يكون ذا أثر إيجابي.

وهكذا فإن عدم قدرة الأولاد على التعبير عن مشكلاتهم بالكلمة يدفعهم إلى التعبير بالفعل. وأفعال الأولاد العدوانية (إن لم يقم أحد الكبار بتحريضهم) هي أفعال عدوانية بالقدر الذي تهدف فيه إلى التسبب في الألم للآخرين، وهي أفعال تعبيرية بالقدر الذي تهدف فيه إلى التعبير عن مشكلات أولئك الأولاد. فقد يميل بعض المراهقين أو حتى البالغين إلى النيل من القيم الروحية أو الاجتماعية، وبالرغم من أن هذا الهجوم يتم تحت مسميات وذرائع مختلفة، فإن معظم تلك الحالات تكون وسيلة للاحتجاج أو للتعبير عن الذات ولفت الأنظار، وقد تخفي جروحًا نفسية عميقة لا علاقة لها بتلك القيم ولا بالذرائع التي باسمها هوجمت تلك القيم، حيث ينسب ذهن المراهق سبب آلامه إلى إحدى تلك القيم وهي منه براء. وبالتالي فإن مشاعر الألم التي سيسببها للآخرين كلما نال من تلك القيم ستعوضه عن الألم الذي لم يستطع أن يتسبب به لمسبب آلامه الحقيقي! والمشكلة هنا هي أن توجهات الإنسان ومواقفه في مرحلتي الطفولة والمراهقة لا تتبدل ولا تتغير عندما يكبر لكنها تتنكر بأسماء ومسميات تناسب سن وثقافة الإنسان.

والحقيقة هي أن أفعال الصغار الانطوائيين العدوانية لا تكون عادة موجهة نحو الأذية أو التسبب في الألم، إذ إنها غالبًا ما تكون ذات طبيعة تعبيرية كالكتابة مثلاً على الجدران، خصوصًا أن الانطوائيين هم من أكثر الأولاد حاجة للتعبير عن أنفسهم، كما أنهم من أكثر الصغار الذين يساء فهمهم.

ويمتاز الأولاد الانطوائيون بالحس المرهف، فهم دائمًا بحاجة إلى من يفهمهم ويبادلهم المودة والمعروف بأنه كلما ازداد تعاطف الإنسان مع الآخرين وازداد إحساسه بآلامهم انخفض احتمال أن يمارس ذلك الإنسان العنف تجاههم والعكس صحيح. ويذهب البعض إلى القول إن عتاة المجرمين لا يتميزون فقط بانعدام تعاطفهم مع الآخرين بل يتعداه إلى ضعف (إن لم نقل انعدام) الإحساس بآلامهم النفسية (هم أنفسهم). فالإنسان يمارس على الآخرين مقدارًا من العدوانية بالقدر الذي يتحمل أن يقوم الآخرون بممارسته عليه أو بالقدر الذي تمت ممارسته عليه في وقت من الأوقات!

مهارات الكر والفر

أما المستقبل فإنه يحمل للأولاد الانطوائيين من المتاعب والمشاكل، فالصوت الخافت والحرمان من المهارات الاجتماعية وصعوبة التواصل مع الآخرين، كل تلك العوامل تحرم الانطوائيين من الكثير من فرص الحياة الجيدة، كما تحرمهم من الاستفادة من مواهبهم وإمكاناتهم. علمًا أن اكتساب الصغير للمهارات الاجتماعية يتطلب من جهة توفير أجواء اجتماعية ومن جهة أخرى يتطلب قيام الأبوين بمراقبة تفاعله مع الآخرين وتفاعل الآخرين معه. غير أن اكتساب تلك المهارات يمكن أن يتاح بشكل تلقائي في بعض الأوساط كما هي الحال في الأسواق وفي بيئة الأرياف. وتتمثل تلك المهارات في المقدرة على إقامة العلاقات الاجتماعية مع الآخرين بشكل سريع وفق ما تقتضيه المصالح والمقدرة على التحكم في نبرة الصوت طبقًا للمواقف، إضافة إلى المقدرة على القيام بتحليل سريع لشخصية الإنسان الذي يتم التعامل معه من خلال طريقته في الكلام والحركة، وذلك لمعرفة نقاط ضعف ونقاط قوة ذلك الشخص. ويعني اكتساب تلك

المهارات المقدرة على القيام بالمناوشات اللفظية التي تهدف إلى دراسة استعدادات الطرف الآخر ودرجة تحمله للضغوط النفسية ومستوى تدريبه بشكل غير مباشر وتقريبًا بذات الآلية التي يقوم فيها مهاجمو كرة القدم باختبار حارس مرمى الفريق الخصم وذلك بتسديد كرات متتالية إلى زوايا المرمى المختلفة لمعرفة إمكانات ونقاط ضعف حارس المرمى قبل الإقدام على شن هجمات قوية ومنظمة. وللمعلومية فمثل هذه المهارات يصعب اكتسابها بعد تجاوز مرحلة الصبا، وهي على درجات ومستويات طبقًا للبيئة التي نشأ فيها الإنسان، ورغم أن وسائل الاتصال الحديثة قد حلت الكثير من مشكلات الانطوائيين الذين يفتقرون إلى مثل تلك المهارات الاجتماعية بأن مكنتهم من التواصل مع الآخرين دون أن يتعرضوا لاستغلال نقاط الضعف في شخصياتهم، حيث تنقل تلك الوسائل مضمون الرسائل دون أن تنقل الحالة النفسية أو مستوى تدريب مرسلها - فإن مجتمعاتنا ما زالت لا تأخذ هذه الوسائل على محمل الجد، وما زالت تعتمد على جلسات (البازار) التقليدية التي تستعرض فيها المهارات الاجتماعية في الكر والفر.

ذكريات الصبا

يساهم تشجيع الصغار ومساعدتهم على تكوين صداقات مع الأطفال في الجوار أو مع أبناء الأقارب على التقليل من أضرار النبذ الذي قد يلاقيه الصغير في المدرسة، وخصوصًا أن العلاقات الاجتماعية ضمن إطار الجوار أو العائلة أقل حدة وتعقيدًا من العلاقات الاجتماعية ضمن المدرسة؛ لأنها تشكل امتدادًا لعلاقات الكبار الاجتماعية المتبادلة، ولأن هناك تمهيدًا لهذه الصداقات من قبل الكبار وتدخلاً دائمًا لتوجيهها إلى المسار الصحيح. كما أنها تمتاز بأنها علاقات دائمة واستراتيجية وتبنى دائمًا انطلاقًا من تلك النظرة، بينما غالبًا ما تكون الصداقات ضمن المدرسة عابرة وقصيرة الأمد نسبيًا.

تلعب مرحلة رياض الأطفال دورًا هامًا في دمج الصغير مع الأولاد الآخرين في سن مبكرة جدًا بوصفها بيئة ملطفة ومخففة عن بيئة المدرسة ولذلك تشكل تلك المرحلة أولى حلقات الوصل الهامة بين بيئة البيت وبيئة المدرسة.

إن إشراك الصغار في القيام ببعض الأعمال التي تناسب أعمارهم بالإضافة إلى القيام بتنمية مواهبهم وتشجيعهم على اكتساب وممارسة المهارات المتنوعة يمكن أن تزيد من جرأتهم الاجتماعية ومن تقديرهم لذواتهم وتمنحهم طرائق صحية للتعبير عن أنفسهم. ويؤدي ازدياد مهارات الإنسان واهتماماته إلى ازدياد فرص التقائه السليم مع الآخرين الذين تجمعهم معه الاهتمامات نفسها عبر تبادل المعلومات، إضافة إلى أن التركيز على تعلم وممارسة هذه المهارات يبعد تركيز الصغير عن الرسائل السلبية والذكريات الحزينة. وليس المهم أن يكون الصغير موهوبًا حتى نشجعه على ممارسة هواية أو مهارة ما، ولكن المهم أن يحب تلك المهارة حتى يتمكن من الاستمرار في ممارستها. علمًا أن كثيرًا من تلك الهوايات والمهارات غالبًا ما تتلاشى مع انقضاء الطفولة وتصبح ذكريات الصبا.

أوهام ضعف الذاكرة

أحمد العمار - الرياض

يقع أغلب الناس تحت تأثير أوهام ضعف الذاكرة بدعاوى وذرائع مختلفة، ولعل أهم هذه الذرائع: خلقت هكذا ويصعب عليّ تقوية ذاكرتي.. لقد كبرت وشاخت الذاكرة.. هذا الضعف سببه مشكلات وضغوط الحياة اليومية.. أنا قوي الذاكرة وما من داع للتقوية.. وغير ذلك. فهل هذا صحيح، ألا توجد طرق عملية لتقوية الذاكرة؟ وهل قوة الذاكرة دليل ذكاء؟ وهل يوجد شخص أذكى من شخص آخر؟

تشكل قناعة الشخص بالوصول إلى ذاكرة قوية أهم دعامات نجاحه في ذلك، لذا يجب عليه بداية التخلص من الإيحاءات السلبية من قبيل: أنا لن أستطيع، ولن أتحسن في تقوية ذاكرتي، ولقد كبرت ولم يعد عمري يسمح بذلك، ظروفي وأحوالي لا تساعد على تطوير وتنمية الذاكرة.. وغير ذلك، وحتى يتسنى لنا الوصول لذاكرة قوية يجب إلغاء هذه القناعات السلبية كلها، والاستعاضة عنها بأخرى إيجابية مثل: أنا قوي الذاكرة، أنا أقدر، أنا أستطيع، لا شيء مستحيل مع التصميم والإرادة، إذا نجح شخص ما في أي مكان من العالم بتحسين ذاكرته فسوف أنجح بذلك لأن الناس متساوون في مهارات الذكاء والقدرة على الإبداع، وليس هناك شخص أذكى من آخر ولكن هناك شخص يسعى لأن يطور نفسه وآخر لا يفعل ذلك. وهذا سر تفوق إنسان دون آخر.

أنواع الذكاء

صحيح أن الناس متساوون في قدرات الذكاء، ولكن ثمة أنواع عديدة للذكاء وهي:

- الذكاء اللغوي: يمتاز صاحب هذا النوع من الذكاء بالقدرة على استخدام العبارات والأفكار، والتعبير عنها بطريقة شيقة ومؤثرة، كذلك الحديث المسترسل من خلال التلاعب بالألفاظ والتورية والفكاهة والبلاغة. كما يرغب الذكي لغويًا بقراءة ما يمر به من معلومات وإعلانات ولوحات شوارع ومحال تجارية. فضلاً عن أنه أكثر ميلاً لدراسة المواد الأدبية والاجتماعية، لأنه يعتبرها أكثر تعبيرًا وتشويقًا من المواد العلمية التي يعتبرها جافة.

- الذكاء المنطقي: هذا النوع من الذكاء يتعلق بالقدرة على فهم العلاقات بين الأرقام والقواعد والجداول، كما يتميز بقدرة كبيرة على حل الألغاز والألعاب المعقدة والتي تتطلب تفكيرًا معقدًا مترابطًا، إلى جانب ذلك يتمتع بقدرة كبيرة على فهم الأمور المجردة دون الحاجة إلى الوصف بالكلمات أو الصور. والذكي منطقيًا هو أكثر ميلاً للعلوم التطبيقية والطبيعية.

- الذكاء المكاني: نستطيع القول إن الذكي مكانيًا هو شخص صوري. بمعنى يستطيع تشخيص العالم والبيئة المحيطة به عبر الصور، بل ويستطيع أن يتعرف على الطرق التي يسلكها عبر الصور المطبوعة بذهنه للأشياء والأماكن، وهذا النوع من الأشخاص يستطيع تخيل الأشياء والأشكال بسهولة. فمثلاً عندما تصف للذكي مكانيًا عنوانًا أو موقعًا ما، فإنه يقوم برسم أو تخيل الرسم الكروكي للموقع، ويحدد كيفية الوصول إليه بأقرب وأيسر الطرق.

- الذكاء الموسيقي: الذكي موسيقيًا هو شخص

يملك قدرات كبيرة على سماع الأصوات والألحان والمؤثرات الصوتية، وعادة يرغب الأذكياء موسيقيًا بسماع الأصوات والتفاعل معها أكثر من قراءة الكتب أو استعراض الصور مثلاً، كما يكونون أكثر ميلاً لإصدار الأصوات والصفير والهمهمات أثناء ممارسة أعمالهم.

- الذكاء الوجداني: الأذكياء وجدانيًا هم أشخاص يتصفون بالقدرة على التعامل مع الذات والتواصل مع الآخرين عبرها، كما يكونون أكثر قدرة على فهم معاناة الآخرين، ويميلون للتضامن مع ما يقعون فيه من مصاعب ومحن. وهم شغوفون بالتأمل والتفكير الطويل المعمق، والتعبير الصادق. ويعتبر الشعراء الوجدانيون خير مثال على هذا النوع من الذكاء.

- الذكاء الاجتماعي: الذكي اجتماعيًا قريب من الذكي وجدانيًا، لكن التعامل هنا منصب ليس على الذات (كما في الذكاء الوجداني)، بل على الآخر. فالذكي اجتماعيًا مشغول بالجماعة وهمومها ومستقبلها، وهو يفضل قيادة الجماعة لأنه صاحب خطط، ويستطيع أن يوجهها الوجهة المثلى، كما أنه لا يرغب في الجلوس منفردًا، بل يجد نفسه مع الجماعة وبها، وهو لسان حالها، والناطق الرسمي باسمها. لذا تظهر أهمية الأذكياء اجتماعيًا أوقات الأزمات، وبلورة رأي عام حول مشكلة أو ظاهرة. كالانتخابات والأنشطة الجماهيرية والرياضية.

- الذكاء الحركي: الأذكياء حركيًا يميلون إلى استخدام حركات الجسم والوجه للمساعدة على التعبير، كما يميلون لمعاينة الأشياء باليد وتقليبها عند الشراء، وهم ماهرون باستخدام أطرافهم. ومن أوضح الأمثلة على هذا الذكاء الرياضيون، لأنهم يملكون قدرات كبيرة على التحكم مثلاً بالكرة عبر القدم أو اليد أو الرأس. ومثلهم أيضًا الحرفيون والمهنيون الذين يبرعون في استخدام مهارات اليد في صنع التحف والقوالب والأغذية وغيرها. وهناك أيضًا الفنانون التشكيليون والنحاتون والممثلون وخصوصًا ممثلو الأداء عبر الحركات والإيماءات (التمثيل الصامت).

الاستفادة من الحواس

رأينا كيف أن من الخطأ الاعتقاد أن الذاكرة تشيخ، كما أن من الخطأ أيضًا الاعتقاد بوجود شخص أكثر ذكاء من شخص آخر. ولكن يبقى السؤال الأهم هو: ما السبيل لتقوية ذاكرتنا؟ وكيف يمكن الاستفادة من الحواس في ذلك؟

لا بد عند تقوية الذاكرة من الاعتماد على عدة طرق تتمثل في الاعتماد على النظام الترقيمي. عندما نرغب بحفظ رقم طويل كرقم الهاتف أو بطاقة الفيزا، ويكون ذلك بمقابلة كل رقم بحرف، بحيث يتشكل الرقم في النهاية من مجموعة من الأحرف مكونة كلمة أو عدة كلمات تدل على صور معينة، ما يجعلها أكثر رسوخًا في الذاكرة. ولتوضيح ذلك، فإن هذا الترقيم يصبح كما يلي:

الرقم	الحرف الذي يقابله	الشكل الذي يدل عليه
0	هـ ة	كرة
1	و	شجرة
2	ب ت ث	بطة
3	ع غ	قلب حب
4	م	مركب شراعي
5	س ش	سنارة
6	ط ظ	خرطوم فيل
7	ج ح خ	جرف جبل
8	ك	ساعة رملية
9	ص ض	بالون (منطاد)

وما عدا ذلك من الأحرف فهو مهمل. أي أحرف (أ، ء، ؤ، ى، د، ذ، ر، ز، ن، ف، ق، ل، ي). بمعنى أنه يتم تجاهله عند تكوين الكلمات. ولك أن تستخدم الأحرف المهملة كيفما شئت، المهم ألا تكون في بداية الكلمات. فلو أردنا حفظ الرقم ١٣ فإننا نتبع الخطوات التالية:

- نجد أن رقم ٣ = ع، ورقم ١ =و.
- فيصبح لدينا حرفان هما: واو وعين.

- نبحث عن كلمة على شكل صورة وتحتوي على هذين الحرفين.
- نكتب مثلاً كلمة (وعل)، وهو نوع من أنواع الغزلان الجبلية.
- لاحظ ترتيب الواو (١) قبل العين (٣).
- أما حرف اللام فهو من الحروف المهملة كما مر معنا.

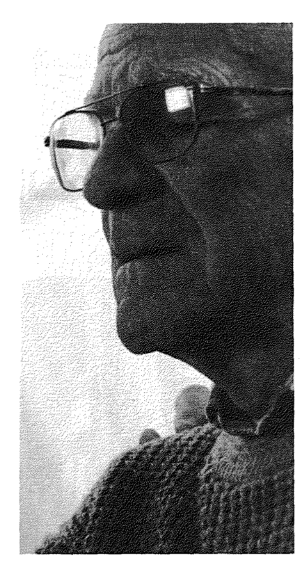
ولا يختلف الأمر مهما تعددت الأرقام طالما أننا نستخدم نفس القاعدة.

ومن الأشياء التي تساعد على الحفظ أيضًا الترميز. أي عندما تحفظ معلومة يجب أن تعطيها رمزًا ويفضل أن يكون الرمز على شكل صورة، لأنها أبقى في الذاكرة من المعلومة المجردة أو الكلمات. فمثلاً عندما أود أن أحفظ معلومة حول فرنسا، ربما أقوم بربطها من خلال برج «إيفل» بوصفه رمزًا لفرنسا، كذلك تساعد المبالغة في حفظ المعلومة مثلاً أن نتخيل نملة تحمل فيلاً. طبعًا هذا غير ممكن، ولكن طرافة المشهد تساعد على حفظه، وهناك أيضًا الربط بين الأسماء والأشياء. فمثلاً عندما نتعرف على شخص فيقول لك اسمي «حسن الحسين» مثلاً فإنك تستطيع على الفور ربط اسمه مع أولاد سيدنا علي الحسن والحسين- على أبيهما وعليهما رضوان الله- وهكذا بشأن المعلومات جميعًا.

ومن أهم العوامل المساعدة على تقوية الذاكرة الحواس بطبيعة الحال، إذ إنها البوابات التي تعبر منها المعلومات التي يختزنها دماغ الإنسان، وبالتالي فإننا نستطيع من خلال البصر والسمع واللمس والحس والشم والتذوق أن نربط بين المعلومات ونساعد أنفسنا في تذكرها، فعندما أقرأ معلومة عن الليمون مثلاً، فما الذي يخطر في بالي في المقام الأول؟ ربما يقول أحدهم الطعم الحامض. نقول إن مثل هذا الشخص اعتمد في التذكر على حاسة الذوق، بينما يخطر في بال شخص آخر اللون الأصفر لليمون. وهذا يعني أن هذا الشخص اعتمد على حاسة البصر، وهكذا.

تمارين التركيز

الحديث عن تقوية الذاكرة يستدعي الحديث عن وسائل وأدوات التركيز. ومن هذه الوسائل نذكر:
- الأصوات الطبيعية والمؤثرات الصوتية كصوت الأشجار وخرير المياه وصوت العصافير.



- شرب الماء ببطء على شكل رشفات وكأننا نشرب ماء ساخنًا.
- التمارين الذهنية والرياضية كحل الألغاز والمسابقات.
- تمارين التنفس، التي تساعد على الاسترخاء ويكون بسحب أكبر قدر ممكن من الهواء النقي ثم حبسه لأطول فترة ممكنة داخل الرئتين، ثم إخراجه من الفم ببطء.وميزة هذا النوع من التنفس أنه يؤمن كمية الأكسجين اللازمة للدماغ عبر الدم.

وهكذا، نجد أن تقوية الذاكرة ليست بالأمر الصعب، بيد أنها تحتاج إلى المران والممارسة، هذا إلى جانب التخلص من العادات غير الصحية في الأكل والشرب والنوم وطريقة الجلوس. إلى جانب التركيز أثناء الدراسة، أو أثناء التعرض للمعلومات التي نرغب بتذكرها عن طريق أي من الحواس. ■

النوم رفاهية أم ضرورة؟

هاني كرم - دبي

بعض الناس يعتبرون النوم مضيعة للوقت. فلا يستسلمون للنوم إلاّ إذا كانوا منهكين جدًا، مفضلين قضاء يوم حافل بالعمل والنشاطات الاجتماعية، بينما يتقلّب آخرون في فراشهم ليلة بعد ليلة حتى ساعات الصباح الباكرة، وهم مستعدون للقيام بأي شيء مقابل ليلة واحدة من النوم الهنيء.
فلماذا يجد البعض صعوبة في النوم، فيما يتوق غيرهم إلى البقاء مستيقظين؟ هل ينبغي أن نعتبر النوم رفاهية أم ضرورة؟ للإجابة عن هذين السؤالين، يلزمنا فهم ماذا يحدث أثناء النوم.

حتى الآن ليس معروفًا ماذا يجعل الشخص يفقد وعيه وينام. لكنّ الباحثين أثبتوا أن النوم عملية معقدة ينظمها الدماغ وتخضع لساعة بيولوجية من ٢٤ ساعة زمنية.

فيما نتقدمَ في السن، تتغيّر عادات نومنا. فالمولود الجديد ينام عدة فترات قصيرة يبلغ مجموعها ١٨ ساعة يوميًا. «أما الراشدون فيقول اختصاصيو النوم إن بعضهم يحتاجون على ما يبدو إلى ثلاث ساعات فقط من النوم يوميًا» فيما يحتاج آخرون إلى ما يصل إلى عشر ساعات.

وأظهرت أبحاث حديثة أن التغييرات في ساعتنا البيولوجية توضح أيضًا «لماذا يجاهد بعض المراهقين ليستيقظوا صباحًا». فعقارب الساعة البيولوجية في مرحلة البلوغ تكون كما يبدو متقدمة عما هي عليه عادة. مما يجعل الشباب راغبين في النوم متأخرين والاستيقاظ متأخرين. وهذا التغيير في عادات النوم شائع لكنه يختفي عمومًا بين أواسط وأواخر سنوات المراهقة.

إن ساعاتنا البيولوجية تنظمها مواد كيميائية، وقد حُدِّد العديد منها. تشمل هذه المواد «الميلاتونين»، (هرمون يُعتقد أنه يسبب النعاس). يُفرز «الميلاتونين» في الدماغ، وهو مسؤول كما يظن بعض العلماء عن تباطؤ الاستقلاب في الجسم الذي يحدث قبل النوم. فعندما يُفرز «الميلاتونين»، تنخفض حرارة الجسم ويخفّ تدفق الدم إلى الدماغ، وترتخي عضلاتنا تدريجيًا». وماذا يحدث بعدئذ عندما يغرق المرء في عالم النوم الغامض؟

عماد الغذاء في الحياة

بعد ساعتين تقريبًا من النوم، تبدأ عينانا بالتحرك السريع. وقد أدّت ملاحظة العلماء لهذه الظاهرة إلى تقسيم النوم إلى طَوْرَيْن: نوم الرَّيْم (تحرك العين السريع) ونوم اللارَّيْم. ويمكن تقسيم نوم اللارَّيْم إلى أربع مراحل يعمق فيها النوم تدريجيًا. وخلال ليلة نوم هنيئة، يحدث نوم الرَّيْم عدة مرات، بتناوب مع نوم اللارَّيْم.

أثناء نوم الرَّيْم، تحدث معظم الأحلام. وفي هذه المرحلة أيضًا ترتخي عضلات الجسم إلى أقصى حدّ، مما يجعل النائم يشعر بالانتعاش الجسدي عندما يستيقظ. بالإضافة إلى ذلك، يعتقد بعض الباحثين أن آخر ما يناله الشخص من معلومات يتخزن عميقًا في الذاكرة في هذه المرحلة من النوم.

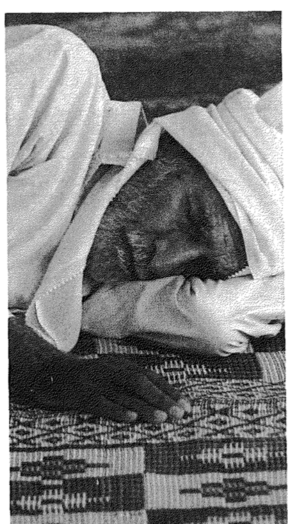
خلال النوم العميق (المرحلتين ٣ و٤ من نوم اللارَّيْم)، ينخفض ضغط الدم ويبطئ خفقان القلب، فيؤدي ذلك إلى إراحة جهاز الدورة الدموية ويساعد على الوقاية من الأمراض القلبية الوعائية. وخلال نوم اللارَّيْم أيضًا يبلغ هرمون إنتاج النمو ذروته، بحيث إن كمية هرمون النمو التي ينتجها

بعض المراهقين في الليل تصل إلى ٥٠ ضعفًا الكمية التي ينتجونها في النهار.

ويبدو أن النوم يؤثر أيضًا في شهيتنا. فقد اكتشف العلماء أن النوم هو فعلاً كما قال شكسبير «عماد الغذاء في مأدبة الحياة». فدماغنا يفسرّ النقص في النوم كنقص في الطعام. عندما ننام، يفرز جسمنا «اللبتين» (هرمون يُعلِم جسدنا عادة أننا أكلنا كفايتنا). وعندما نبقى مستيقظين أكثر مما ينبغي، يفرز جسمنا كمية أقل من «اللبتين»، فنشعر برغبة شديدة في تناول المزيد من الكربوهيدرات. وهكذا يمكن أن تؤدي قلة النوم إلى استهلاك كمية كربوهيدرات أكبر، مما قد يؤدي إلى السمنة.

قيلولة بعد الظهر

هل شعرت يومًا، بعد تناول وجبة الغداء، بنعاس لا يمكنك السيطرة عليه؟ ليس ذلك بالضرورة دليلاً



أنك تعاني قلة النوم. فمن الطبيعي الشعور بالنعاس في بداية فترة بعد الظهر بسبب الانخفاض الطبيعي في حرارة الجسم. بالإضافة إلى ذلك، اكتشف العلماء مؤخرًا بروتينًا يُدعى «الهيبوكريتين»، أو «الأوركسين»، ينتج في الدماغ ويساعد على بقائنا مستيقظين. فما علاقة «الهيبوكريتين» بالطعام؟

عندما نأكل ينتج جسمنا «اللبتين»، فنشعر بالشبع. لكن «اللبتين» يمنع إنتاج «الهيبوكريتين»، بكلمات أخرى، كلما زادت كمية «اللبتين» في الدماغ، قلّ «الهيبوكريتين» وزاد الشعور بالنعاس. ولهذا السبب ربما يأخذ الناس في بعض البلدان قيلولة - استراحة في يوم العمل تتيح للأشخاص أن يناموا قليلاً بعد الغداء.

حيوي للصحة

لكن ذلك ليس كل شيء، فالنوم يسهّل استقلاب الجذور الحرة في جسمنا، وهي الجزيئات التي يُقال إنها تؤثر في هرم الخلايا وتسبب السرطان أيضًا. في دراسة أجرتها مؤخرًا جامعة شيكاغو، سُمح لـ ١١ شابًا سليمي البنية أن يناموا أربع ساعات فقط في اليوم مدة ستة أيام. وفي نهاية هذه المرحلة، كانت خلايا جسدهم تعمل مثل خلايا أشخاص في الـ ٦٠ من العمر، ومستوى الأنسولين في دمهم مشابه لمستوى الأنسولين في دم المصابين بداء السكري! وتؤثر قلة النوم أيضًا في إنتاج خلايا الدم البيضاء وهرمون «الكورتيزول»، مما يجعل المرء أكثر عرضة للاخماج وأمراض جهاز الدورة الدموية.

إن النوم، دون شكّ، حيوي من أجل سلامة الجسم والذهن. وبحسب الباحث وليم دمْنت، مؤسس أول مركز لدراسة النوم، في جامعة ستانفورد في الولايات المتحدة الأمريكية، «يبدو أن النوم هو أهم مؤشر لطول الحياة التي يعيشها الإنسان». كما تعلق ديبورا سوشيكي، باحثة مركز لدراسة النوم في ساو باولو، البرازيل:«لو علم الناس ماذا يجري في جسم إنسان ينقصه النوم، لَفكروا مرتين قبل أن يستنتجوا أن النوم مضيعة للوقت أو أنه للكسالى فقط».

لكن هل يؤدي النوم إلى الانتعاش دائمًا؟ لماذا ينام بعض الناس طوال الليل ولا يشعرون رغم ذلك بالانتعاش؟ سأحاول الآن تحديد بعض اضطرابات

تأثيرات قلّة النوم	
على المدى القريب	على المدى البعيد
نعاس.	سمنة.
تغيّر فجائي في المزاج.	هرم مبكّر.
ضعف في الذاكرة القصيرة الأجل.	تعب.
ضعف في القدرة على الابتكار، التخطيط، والقيام بالنشاطات.	ازدياد خطر التعرض للاخماج، الداء السكري، الأمراض القلبية الوعائية، والأمراض المَعدية المَعوية.
ضعف في التركيز.	ضعف ذاكرة مزمن.

النوم الأساسية وكيف يمكنك ان تنام نومًا منعشًا.

كيف تُحسِّن نومك؟

يواجه ملايين الناس صعوبة في النوم. فبحسب أحد الاختصاصيين في النوم، البرازيلي روبنز رايماون، يُقدرّ أن ٣٥٪ من سكان العالم يعانون الأرق. (والأرق هو عدم القدرة على التمتع بقسط واف من النوم المريح). ويقول دايفد رابوبورت، من مركز معالجة اضرابات النوم في جامعة نيويورك، إن النوم السيئ هو «واحد من أخطر الأوبئة في مطلع القرن».

والأسوأ هو أن عديدين يعانون الأرق دون أن يعرفوا سببه. يقول باحثون في جامعة ساو باولو الفدرالية في البرازيل إن أسباب الأرق تُشخَّص بشكل صحيح لدى ٣٪ فقط ممن يعانونه. ويتقبل عديدون قلّة النوم كجزء من حياتهم، فيستسلمون لواقع قضاء ساعات يقظتهم وهم يشعرون بالتوتر والنعاس.

مأساة الليل

إن تقلب المرء ساعات في الفراش دون أن يغمض له جفن، فيما الكلّ نائمون بسلام، تجربة لا يتمناها أحد. والأرق الذي يحدث من وقت إلى آخر ويدوم أيامًا قليلة أمر شائع، وهو يرتبط عمومًا بالإجهاد وتقلبات الحياة. لكن عندما يصير الأرق مزمنًا، قد يؤدي إلى اضطرابات عاطفية وسريرية، ويصير ضروريًا طلب مساعدة طبية.(انظر إطار أسباب الأرق الرئيسية).

أسباب الأرق الرئيسية

- طبية: مرض ألزهايمر، انسداد أعلى مجرى الهواء خلال النوم، متلازمة تململ الساقين، داء باركنسون، اضطراب حركة الأطراف الدورية، الربو، أمراض القلب والجهاز الهضمي.
- نفسية: الكآبة، القلق، الهلع، اضطراب الوسواس القسري، اضطراب ما بعد الصدمة.
- أسباب أخرى: إساءة استعمال الكحول، والمخدرات التأثيرات الجانبية لبعض العقاقير.

فهل يُحتَمَل أن تكون ممّن يعانون اضطرابًا في النوم؟ إذا استنتجت ذلك بعد إجابتك عن الأسئلة في «اختبار النعاس»، فلا تيأس. فالإدراك أنك بحاجة إلى مساعدة إنما هو نصف العلاج. وبحسب طبيب الأعصاب البرازيلي جيرالدو ريزو، ٩٠٪ من الذين يعانون الأرق يمكن معالجتهم بنجاح.

لكنّ، من أجل إعطاء العلاج الملائم، من المهم تحديد سبب الأرق بدقة. وقد ساهمت مجموعة من الفحوص الطبية تدعى polysomnogram في تشخيص ومعالجة العديد من اضطرابات النوم.

تشخيص اضطرابات النوم

هنالك مجموعة من الفحوص polysomnogram تُنجز لتسجيل ما يحدث خلال النوم فيما تتوفر للمريض النائم ظروف طبيعية قدر الإمكان. وما يلي العناصر الأساسية

للتقييم:
- مخطط كهربائية الدماغ
electroencephalogram
يُظهر النشاط الكهربائي في الدماغ ويُستعمل لتصنيف وقياس مدة مختلف مراحل النوم.
- مخطط كهربائية العين electrooculogram
يسجل حركات العين المراقبة أثناء نوم الرَّيم.

اختبار النعاس

كم من المحتمل ان تغفو في الحالات المذكورة أدناه؟ باتباع المقياس التالي، ضع دائرة حول أجوبتك، ثم أجمع كل علاماتك.

- ٠ لا تغفو البتة
- ١ احتمال قليل بأن تغفو
- ٢ احتمال متوسط بأن تغفو
- ٣ احتمال كبير بأن تغفو

الحالة	العلامات
☐ أثناء الجلوس والمطالعة	٠ ١ ٢ ٣ ٤
☐ عند مشاهدة التلفزيون	٠ ١ ٢ ٣ ٤
☐ عند الجلوس دون حراك	٠ ١ ٢ ٣ ٤
☐ ركوب السيارة لمدة ساعة	٠ ١ ٢ ٣ ٤
☐ الجلوس بعد تناول الغداء	٠ ١ ٢ ٣ ٤
☐ عند التمدد بعد الظهر	٠ ١ ٢ ٣ ٤
☐ عند التحدث وأنت جالس	٠ ١ ٢ ٣ ٤
☐ خلال ازدحام سير	٠ ١ ٢ ٣ ٤

مجموع العلامات ☐

نتائج العلامات

١-٦ : لا داعي للقلق
٧-٨ : ضمن المعدل
٩ وما فوق: أطلب استشارة طبية
بحسب مقياس إبورث للنعاس، الذي وضعته جامعة ستانفورد في كاليفورنيا الولايات المتحدة الأمريكية.

- مخطط كهربائية العضل electromyogram
يُستعمل لمراقبة توتر عضلات الذقن والساقين خلال نوم الرَّيم.
- مخطط كهربائية القلب electrocardiogra
يُستعمل لمراقبة دقات القلب أثناء النوم.
- انسياب الهواء التنفسي والحركات التنفسية
تقاس بتسجيل تدفق الهواء عبر الانف والفم بالإضافة إلى تسجيل حركة البطن والصدر.
- قياس مستوى الأكسجين في الأوعية الدموية بواسطة جهاز مربوط بأصبع المريض.

أحد الأسباب الأكثر شيوعًا للأرق المزمن الذي يعانيه الراشدون يرتبط بالشخير. فإذا صادف أن نمتَ بالقرب من شخص يشخر، تعرف أن الأمر يمكن أن يكون مزعجًا جدًا. قد يكون الشخير من أعراض متلازمة انقطاع النَّفَس السادّة. حيث يَحول انسداد حلق النائم مؤقتًا دون إدخال الهواء إلى الرئتين. والخطوات الأولية لمعالجة هذه الحالة تشمل خسارة الوزن، عدم تناول المشروبات الكحولية، وعدم تناول العقاقير التي تُرخي العضلات. وقد يصف الاختصاصيون علاجًا خصوصيًا، أو استعمال آلة بلاستيكية للأسنان، أو آلة خصوصية تنفخ الهواء بنعومة في الأنف والفم لإبقاء مجرى الهواء مفتوحًا أثناء النوم. (يتدفق الهواء بواسطة ضاغط compressor ويمرّ عبر خرطوم ليّن موصول بقناع صغير يضعه المريض على وجهه أثناء النوم).

في حالات خطرة، قد يكون من الضروري إجراء عملية جراحية لتصحيح خلل في الحلق، الفك، اللسان، أو الأنف من أجل تسهيل دخول الهواء وخروجه أثناء عملية التنفس.

قد يعاني الأولاد أيضًا من الأرق. ويمكن أن تظهر علامات قلّة النوم في المدرسة - إنجاز دراسي رديء، توتر، نقص في التركيز - وتؤدي إلى التشخيص الخاطئ أن التلميذ مصاب بفرط النشاط.

ويحارب بعض الأولاد النوم، مفضلّين أن يغنوا، يتحدثوا، أو يصغوا إلى شخص يُخبر القصص - القيام بأي شيء عوض الذهاب إلى الفراش، قد يكون الأمر مجرد حيلة للفت انتباه الوالدين. لكن أحيانًا

يكون الولد خائفًا من النوم بسبب كوابيس تراوده دائمًا وتتعلق بأفلام الرعب، برامج الأخبار العنيفة، أو الشجار المنزلي. يمكن أن يساعد الوالدون على تجنب هذه المشاكل بتعزيز جوّ السلام والمحبة في البيت. ومن الواضح أن الاستشارة الطبية ضرورية إذا استمرت الأعراض. لا شكّ أن ليلة نوم هنيئة هي مهمة للأولاد بقدر ما هي مهمة للراشدين.

كيف تقضي ليلة نوم هنيئة

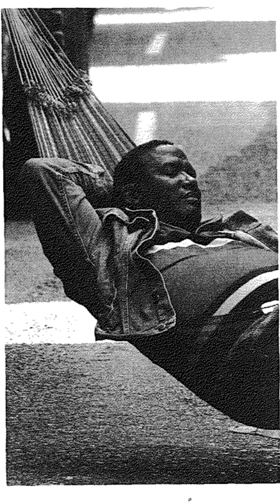
طوال قرون، عُرف أن ليلة نوم هنيئة لا تحصل صدفة. فالنوم الجيد ينجم عن سلسلة عوامل لا تقتصر فقط على ضبط القلق والإجهاد.

يرتبط قضاء ليلة نوم هنيئة بأسلوب الحياة. وهو يشمل القيام بالتمارين الرياضية في وقت مناسب. فالقيام بالتمارين الرياضية في الصباح أو بعد الظهر يمكن أن يساعد على الشعور بالنعاس حين يحين موعد النوم. لكن القيام بالتمارين قبل الذهاب إلى الفراش يمكن أن يؤثر في النوم سلبًا.

ويمكن أن يكون للأفلام المثيرة أو مواد القراءة التي تشغل الذهن تأثير منبه. فقبل الخلود إلى النوم، قد يكون من الأفضل قراءة مواد ترخي الأعصاب، الاستماع إلى موسيقى مهدئة، أو الاستحمام بالمياه الدافئة.

ويقول الخبراء إنه بإمكانك تعليم دماغك ربط فكرة الفراش بالنوم. وذلك بالاستلقاء على الفراش فقط عندما تنوي النوم فعليًا. فالناس الذين يأكلون، يدرسون، يعملون، يشاهدون التلفزيون، أو يلعبون ألعاب الفيديو في السرير قد يجدون صعوبة في النوم.

ويشمل تحضير الجسم لنوم مريح أيضًا الانتباه لنظامك الغذائي. ففي حين أن المشروبات الكحولية تجعل الشخص يشعر بالنعاس، يمكنها في الواقع أن تُفسد نوعية النوم. كما ينبغي تجنب القهوة، الشاي، الكاكاو، الشيكولاته، والمشروبات التي تحتوي على الكولا في الليل لأنها منبهات. من جهة أخرى، يساعد تناول كمية قليلة من المنغا، البطاطا الحلوة، الموز، الكاكي، براعم جوز الهند، الأرز، فروخ الحبوب، أو الجوز على تعزيز إنتاج «السيروتونين» ويمكن بالتالي أن يحث على النوم. ويلزم التحذير من إن الذهاب



إلى الفراش ليلاً بعد تناول وجبة ثقيلة يمكن أن يؤثر على النوم سلبًا تمامًا كالذهاب إلى الفراش والمعدة خاوية.

وللجوّ المحيط بنا عند النوم أهمية تضاهي أهمية عاداتنا قبل النوم. فحرارة الجو الملائمة، الغرفة المظلمة والهادئة، الفراش الوثير، والوسادة المريحة أمور تدعو إلى قضاء ليلة نوم هنيئة. حتى إن كل هذه الرفاهية قد تُصعّب علينا الاستيقاظ في صباح اليوم التالي. لكنّ تذكّر أن البقاء في السرير أطول من المعتاد، حتى في نهايات الأسابيع، يمكن أن يشوش نمط نومك ويجعل النوم في الليلة التالية أصعب.

طبعًا، أنت لا تحب أن تؤذي عمدًا ايًا من أعضاء جسمك الحيوية. والنوم هو بأهمية هذه الأعضاء، جزء من الحياة لا ينبغي إهماله أو الاستخفاف بأهميته. ولا تنسَ أن ثلث حياتنا نقضيها في النوم. فهل يمكن أن تُحسِّن عادات نومك؟ لِمَ لا تبدأ الليلة؟!

الكتاب: من تاريخ التعليم في مكة المكرمة
المؤلف: مجموعة من الباحثين
الناشر: مجموعة حسام ، مكة المكرمة ـ ١٤٢٦هـ



يهدف هذا الكتاب الذي تزامن صدوره مع تتويج مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية إلى التعريف بالحركة التعليمية في مكة المكرمة بالاعتماد على التسلسل التاريخي والوصف الإحصائي والتوثيق الدقيق عبر فصول، هي: التعليم في المسجد الحرام، التعليم العام، التعليم الأهلي، تعليم الكبار، مدارس تحفيظ القرآن الكريم، التربية الخاصة، المدارس الخيرية، صور ووثائق.

الكتاب: نحن والآخر
المؤلف: محمد بن علي الهرفي
الناشر: مكتبة دار المعالم الثقافية ،الأحساء ـ ١٤٢٦هـ



عبر ستة فصول تتوزع على أكثر من مئة وخمسين صفحة (من القطع الصغير) يقدم المؤلف الأكاديمي هذا المبحث مركزًا على فكرتين أساسيتين: الأولى هي أصالة مفهوم «الحوار» في التشريع الإسلامي من واقع نصوص القرآن الكريم، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم (القولية والفعلية)، ومن أحداث التاريخ الإسلامي في مختلف عصوره. والثانية تختص بمناقشة مفهوم «الحوار مع الآخر» على اعتباره البديل الأمثل لمفهوم «صدام الحضارات» الذي تفتق عن رؤية الباحث الأمريكي «صاموئيل هنتنجتون».

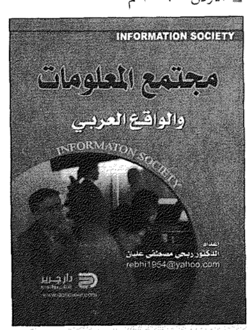
الكتاب: دليل المعلم لحل مشكلات الانضباط في المرحلة الابتدائية
المؤلف: كينيث شور
الناشر: مكتبة جرير - ٢٠٠٥م



للتخلص من مشكلات انضباط طلاب المرحلة الابتدائية داخل حجرات الدراسة وما يترتب عليها من إحباط للمعلمين، وضعف تأثير المناهج، واستنزاف أوقات الحصص، يقدم المؤلف الطبيب النفسي والباحث في شؤون الأطفال في متن هذا الكتاب كمًّا وافرًا ومتنوعًا من الإرشادات العلاجية لأكثر من ستين مشكلة سلوكية، مصدرًا كل مشكلة بتعريف لها وبتحليل لدوافعها.

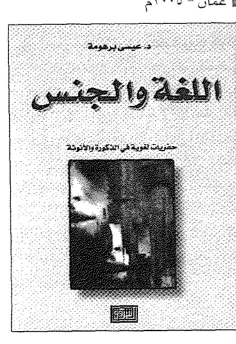
ولتحقيق أعلى درجات الفاعلية من هذا الكتاب المرجعي لابد من الرجوع إلى الافتراضات التي انطلق منها قبل تطبيق أيٍّ من الآراء والطرق التي وجه وأشار إليها المؤلف.■

الكتاب: مجتمع المعلومات والواقع العربي
المؤلف:ربحي مصطفى عليان
الناشر: دار جرير للنشر والتوزيع
الأردن - ٢٠٠٦ م



يشير المؤلف إلى أن النتاج الفكري الأجنبي يحفل بالكثير من البحوث والدراسات والمقالات حول «مجتمع المعلومات» سواء في أدبيات علم المكتبات والمعلومات أو الاقتصاد أو الحاسوب أو العلوم الإدارية... أما الحديث عن مجتمع المعلومات في النتاج الفكري العربي فلا يزال متوعكًا. من هنا تأتي أهمية الكتاب الذي يتكون من ٣٢٥ صفحة موزعة على تسعة فصول عالجت الموضوعات التالية: مجتمع المعلومات من خلال مفهومه، تاريخه، سماته، وخصائصه، الواقع العربي في مجال المعلومات والمعلوماتية، مؤثرات انتقال الدول العربية إلى مجتمع المعلومات: دراسة حالة للأردن، أخلاق مجتمع المعلومات، المتخصصون في علم المكتبات والمعلومات ودورهم في مجتمع المعلومات، وتوصيات انتقال المجتمع العربي إلى مجتمع المعلومات.■

الكتاب: اللغة والجنس
المؤلف: عيسى برهومة
الناشر: دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان - ٢٠٠٥م



اللغة مؤنثة، والثقافة مؤنثة، والمجتمع مذكر.. فأيها محايد؟ وأيها متحيز؟ وهل من سبيل إلى التدخل في اللغة لفض التحيز عن مقتضى الإبانة؟ وهل يكون التدخل في النظام اللغوي وحده تدبيرًا كافيًا لنفي التميز الثقافي أو الاجتماعي؟ هذه التساؤلات يجيب عنها الكتاب من خلال ٢٠٠صفحة من القطع الكبير موزعة على ثلاث أبواب حملت العناوين التالية : أثر العامل الاجتماعي في السلوك اللغوي، نظرة اللغة إلى الجنس، الخصائص اللغوية للجنسين. بالإضافة إلى الخاتمة وملاحق تتناول تقاسم الصفات المحمودة والمذمومة بين الجنسين.

هذا الكتاب الذي يمثل رحلة شيقة في عوالم الاجتماع الإنساني عبر الزمان والمكان يتحرى صورة المرأة في تلك العوالم ولغاتها وثقافاتها، ويقف باعتناء خاص على صورة المرأة في العربية وثقافتها، ويؤسس لحقل بيني ما يزال بكرًا في الدراسات العربية.

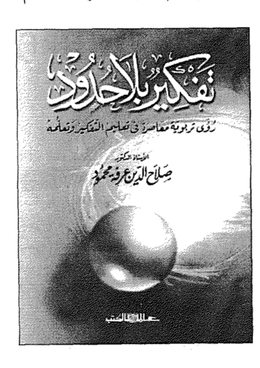
الكتاب: الإنسان المهدور
المؤلف: مصطفى حجازي
الناشر: المركز الثقافي العربي، لبنان، المغرب - ٢٠٠٦م



يطرح الكتاب ملف هدر الإنسان متعدد الأشكال والمستويات والألوان: بدءًا بهدر الدم، والتجريم، والتحريم، والنفي، والإبعاد (في الوطن وخارجه)، والاستبداد وآليات تحكمه بالسلوك وتجنيه على الطاقات الحية ومرورًا بهدر الفكر والوعي والشباب والمؤسسات، وانتهاء بألوان الهدر الوجودي في الحياة اليومية، هذا الهدر الذي قد يصل حد المرض الكياني يجعل كل حديث في الديمقراطية والتنمية مسألة نافلة ما دام الشرط المؤسس والملزم لم يتوفر، وهو الاعتراف بالإنسان قيمة ومكانة وحصانة وقدرات ووعيًا،

إن لكل إنسان في عالمنا نصيبه من الهدر الذي يتنوع في الشكل والمقدار مما يعطل أو يعيق مشروع بناء نوعية حياة وصناعة مستقبل. ويتمثل الهدف من هذا الكتاب الوعي بحالات الهدر الظاهرة منها والخفية، وكشف آلياتها كخطوة لازمة لمواجهتها وصولاً إلى القيام على مهمة استرداد إنسانية الإنسان. ولهذا الغرض يطرح المؤلف منظورًا مضادًا للهدر يتمثل في التفكير الإيجابي والمشاعر الإيجابية تجاه الذات بما يخدم بناء الاقتدار وحس الحال النفسي.

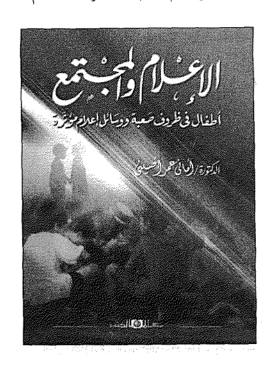
الكتاب : تفكير بلا حدود
المؤلف: صلاح الدين عرفة محمود
الناشر:عالم الكتب، القاهرة – ٢٠٠٦م



يصطحبنا المؤلف في رحلة مع العقل البشري وقوته وتركيبه وقواعد عمله وأساليبه التي تتيح لنا أن نفكر بعمق، وكيفية استخدامه. وذلك من خلال ٥٥٠ صفحة موزعة على عشرة فصول تناولت الموضوعات التالية: طاقة العقل وتنظيمه وإدارته. المخ البشري والتفكير، أنماط التفكير، نماذج التفكير وأساليبه. الذكاء الإنساني والتفكير، التعلم المستند للدماغ، تعليم التفكير وعوامل نجاحه. ٢٤ طريقة وأسلوبًا لتنميته، نماذج أسئلة وتمارين تقيس قدرات التفكير ومهاراته.

يمثل هذا الكتاب دليلاً لوضع منهج التفكير. بما يقدمه من رؤى للأفكار والنظريات التي تتناول عمل الدماغ البشري.كما يمثل محاولة لاستنهاض قوانا الكامنة نحو التغيير: تغيير الذات والأفكار مما يجعلنا مواطنين فعالين في نطاق عملنا ووطننا وأمتنا. ■

الكتاب:الإعلام والمجتمع
المؤلف:أماني عمر الحسيني
الناشر:عالم الكتب، القاهرة - ٢٠٠٦م

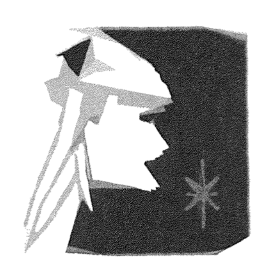


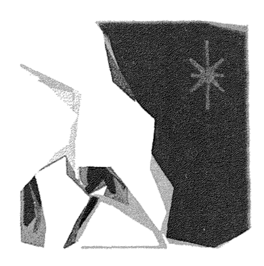
يعد هذا الكتاب استمرارًا لاهتمام المؤلفة بموضوع تأثير وسائل الإعلام على الأطفال. وتتناول هذه المرة شريحة خاصة من الأطفال وهم الذين يعيشون في ظروف صعبة، وبالتحديد أطفال الشوارع، والأطفال العاملين، والجانحين إذ إنهم في أشد الحاجة إلى الرعاية الثقافية والإعلامية التي ترسم لهم المسار الصحيح لحياتهم وتعوضهم عن غياب الرعاية الأسرية، وفرص التعليم التي فاتتهم. وتتجه المؤلفة في هذه الدراسة إلى تطبيق الأسلوب العلمي في بحث تأثير ثلاثة وسائل إعلامية: التليفزيون، الفيديو، السينما باستخدامها للمنهج الكمي في البحث متمثلاً في المسح الميداني بالعينة، والمنهج الكيفي متمثلاً في مجموعات النقاش المستهدفة وتوصيف المضمون. ويعد هذا الكتاب إضافة علمية في مجال بحوث الإعلام والطفولة، حيث يحتوي على مناقشة وافية لمفهوم إدراك الواقع الاجتماعي، وهو ما يحدد بشكل كبير نظرة الطفل لنفسه وللمجتمع، وكيفية نظرة المجتمع له، مما يؤثر بالتالي على ردود أفعاله تجاه المواقف المختلفة والسلوك عمومًا. ■

نظام الانتساب الموسع بكليات البنات.. بين الجهود والتسرب

صباح عيسوي* -الدمام









*كليات البنات - كلية الاداب.

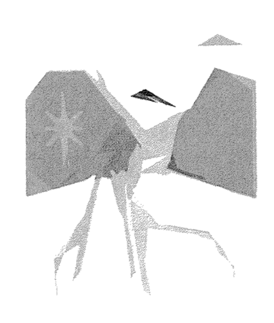
أدخلت كليات البنات بالمملكة نظام الانتساب الموسع في عام ١٤٢٣هـ وذلك بهدف استيعاب أكبر عدد من خريجات الثانوية العامة اللاتي لم يقبلن بكليات البنات إما لاكتمال الطاقة الاستيعابية أو لتدني معدل هؤلاء الخريجات. وعليه أنشئت شعبة إدارية خاصة بنظام الانتساب تتبع لكليات البنات في مناطق المملكة تقوم على متابعة دراسة الطالبات المنتسبات وتمهيد الطريق لهن لمتابعة مسيرتهن العلمية. وتعمل الوكالة العامة لكليات البنات جاهدة على توفير كل ما من شأنه تسهيل حصول الطالبة المنتسبة على العلم والمعرفة، كما تتابع سير الدراسة وتؤكد باستمرار ضرورة تذليل ما يواجه الطالبة من صعاب لتمكنها من نيل الدرجة العلمية أسوة بزميلتها المنتظمة.

وقد لاقت شعبة الانتساب الموسع منذ إنشائها إقبالاً كبيرًا من الطالبات وسدت حاجة ماسة لتوفير فرص التعليم الجامعي للفتيات ممن يحملن الشهادة الثانوية سواء كانت حديثة أم قديمة. وكان من ضمن من انتفعن بهذه الشعبة الموظفات وربات البيوت وسكان المناطق النائية اللائي وجدن في نظام الانتساب تلبية لرغبتهن في متابعة الدراسة بالأسلوب الذي يتوافق مع ظروفهن. وأكبر شاهد على هذا الإقبال أعداد الطالبات الملتحقات بشعبة الانتساب التي فاقت أعداد الطالبات المنتظمات في بعض الكليات، فقد وصل عدد الطالبات الملتحقات بقسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية الآداب بالدمام في أول عام يفتتح فيه نظام الانتساب أي في عام ١٤٢٤هـ - ١٤٢٥هـ ٥٥٨ طالبة، وفي العام التالي وصل عدد الطالبات المنتسبات في نفس القسم إلى ٧٢٥ طالبة. ومن المعروف أن قسم اللغة الإنجليزية هو أقل أقسام كلية الآداب كثافة من حيث عدد الطالبات ويتراوح أعداد طالباته المنتظمات في الفرقة الأولى بين ٣٥٠ إلى ٤٠٠ طالبة.

وبالطبع، فإن ارتفاع أعداد الطالبات المنتسبات في جميع الأقسام بالكلية يترتب عليه توفير تجهيزات وخدمات إدارية وأكاديمية هائلة، تعمل على تقديم التسهيلات اللازمة لهن، ابتداء من إجراءات التسجيل وإعداد توصيف المقررات وصولاً إلى إعداد نتائج الامتحانات. كل هذه التسهيلات تتطلب بلاشك جهودًا كبيرة من الهيئتين الإدارية والتعليمية ليتم حصول الطالبة المنتسبة على فرصة التعليم بأقل صعوبات؛ حيث إن طبيعة الدراسة عن طريق نظام الانتساب يضع على الدارسة مسؤولية التعلم، ويتمثل دور الكلية في توفير الإمكانات والتوجيه الذي يذلل الصعاب أمام الطالبة. ففي كلية الآداب بالدمام مثلاً، عينت هيئة إدارية متكاملة خاصة بإدارة شؤون الانتساب ترأسها عميدة الكلية ووكيلة الكلية لشؤون المنتسبات، ويضم الطاقم الإداري رئيسة القبول والتسجيل ومساعدات وموظفات إدارة شؤون الطالبات،

وقسم الإرشاد الأكاديمي الذي يضم أعضاء من الهيئة التعليمية يقمن بتقديم التوجيه للطالبات المنتسبات، ومساعدات للمرشدات، بالإضافة لمكاتب أخرى، يستلزمها وجود هذه الإدارة مثل مكتب شؤون الموظفات ومكاتب التصوير وغيرها. كما تقوم الهيئة التعليمية بكلية الآداب بأعمال إضافية من أجل الطالبة المنتسبة، أهمها: تخصيص ساعات مكتبية في جدول كل عضو لاستقبال الطالبة المنتسبة، المحاضرات الإرشادية،





وضع أسئلة الامتحانات وتصويرها، تصحيح أوراق الإجابة ومراجعة رصدها. ويقع على لجان الامتحانات المؤلفة من الهيئتين التعليمية والإدارية مسؤولية تجهيز القاعات وتنظيم عمل المراقبات ومتابعة نتائج الامتحانات واستلام الطالبة لإشعار النتيجة. وتقوم موظفات مركز المعلومات بكلية الآداب بالإشراف على التصحيح الآلي لأوراق الإجابة وإعداد النتائج. ومع الأعداد الكبيرة للطالبات المنتسبات في جميع الأقسام تتطلب هذه الاستعدادات جهودًا عظيمة لإتمام العمل بدقة وبصورة مرضية.

في مقابل هذا العمل الدؤوب، نلاحظ عدم رضا عدد كبير من طالبات الانتساب عن نظام الدراسة والخدمات المقدمة لهن. والذي سببه في الغالب طبيعة نظام الدراسة ومقارنة المنتسبة لنظامي الدراسة. ولكن المشكلة الحقيقية هي أن أعداد الطالبات الملتحقات بشعبة الانتساب تتقلص إلى أقل من النصف خلال العام الأول من الدراسة، وتواجه موظفات شؤون الطالبات عملاً (شاقًا) في استقبال وإنهاء طلبات سحب الملف التي تبدأ مع انتهاء التسجيل في بداية العام وتستمر إلى نهايته، إضافة إلى تلك الطالبات اللائي يتممن عملية التسجيل ولا يحضرن للكلية أبدًا، وتبقى الطالبة مجرد اسم تتعامل معه الكلية بجدية لمدة ثلاثة فصول دراسية، حتى يصدر قرار الفصل الذي يبقى في الملف دون أن يطالب به مطالب.

التسرب ظاهرة موجودة في مؤسسات التعليم باختلاف مراحلها، ولكنها تعد ظاهرة لافتة للنظر وجديرة بالدراسة في نظام الانتساب بكليات البنات نظرًا لنسبتها المرتفعة. فهي بلا شك إهدار ذريع لكل تلك الجهود المبذولة لدعم هذه الشعبة؛ وهي في نفس الوقت تجربة مريرة للطالبات اللاتي تفقدهن الكليات سنويًا، حيث تضيع معها سنوات من عمرها وقد تؤثر سلبًا على طموح الطالبة ومستقبلها. هذا التسرب تزيد نسبته في بعض التخصصات ذات الطبيعة الخاصة مثل قسم اللغة الإنجليزية وآدابها

نظرًا لما تحتاج إليه الطالبة من احتكاك مباشر مع اللغة وممارسة متواصلة لها. كما أن دراسة الطالبة لثقافة مختلفة عن ثقافتها تجعل من هذا القسم تجربة جديدة وهذا ما يشكل صعوبة لكثير من الطالبات الملتحقات بقسم اللغة الإنجليزية، خاصة المنتسبات منهن. إن فشل الطالبة في الدراسة يؤدي بها في النهاية إلى الفصل حسب أنظمة الكلية: وقد بلغ عدد طالبات الفرقة الأولى المفصولات من القسم بنهاية عام ١٤٢٥ - ١٤٢٦هـ (٢٧٥ طالبة).

وإذا نظرنا إلى أسباب هذا التسرب من وجهة نظر الطالبة نجد أن هناك أسبابًا مختلفة تدفع الطالبة إلى عدم إكمال الدراسة أو «سحب الملف» وهي العبارة المتعارف عليها في الكليات، قبل أن تصل إلى مرحلة الفصل من الكلية؛ إذ تطالب

أسباب سحب الملف	نسبة الطالبات
التسجيل في مؤسسة تعليمية أخرى	٪٤٢,٧٢
عدم الرغبة في إكمال الدراسة الجامعية	٪٩,٨٥
الرغبة في تغيير نظام الانتساب	٪٧,٥١
ظروف خاصة (غير محددة)	٪٧,٤٥
الرغبة في الحصول على وظيفة	٪٧,١٠
الانتقال إلى منطقة أخرى	٪٥,٦٣
الرغبة في تغيير التخصص	٪٥,٢٥
الفشل الدراسي	٪٣,٧٥
ظروف صحية	٪٣,٢٠
عدم التفرغ للدراسة	٪٢,٩٤
لم يحدد السبب	٪١,٨٧
أنظمة الكلية	٪١,٨٠
عدم توفر المواصلات	٪٠,٩٣

الطالبة الراغبة في عدم إكمال الدراسة بتعبئة استمارة تبين فيها سبب هذه الرغبة قبل إنهاء إجراءات تسلمها لملفها. ويمكن تلخيص نتائج دراسة تلك الأسباب في الجدول المرفق:

بعض هذه الأسباب التي تظهر في الجدول أسباب خارجة عن إرادة الطالبة، وتتعرض لها الطالبة المنتظمة أيضًا، مثل الأسباب من رقم ٤ - ١٣، بالإضافة إلى السبب رقم ٢. وكما يظهر من الجدول فإن أهم أسباب التحويل من شعبة الانتساب بكلية الآداب للبنات بالدمام هو نظام الدراسة التي أعلنت عنه ٧,٥١٪ من الطالبات صراحة، بينما أعربت عنه ٤٢,٧٢٪ ضمنًا بتحديد المؤسسة التعليمية التي يرغبن الانتقال إليها والتي تعتمد الدراسة في معظمها على نظام حضور الطالبة؛ أي أن هذا هو السبب الذي حددته نصف الطالبات المنتسبات (٥٠,٢٣٪)، وهي نسبة مرتفعة جدًا ولافتة للنظر ولذلك فهي جديرة بالدراسة. من هنا تتضح أهمية فهم الطالبة المتقدمة للتسجيل في شعبة الانتساب إلى فهم طبيعة الدراسة في الشعبة، واتخاذ قرار حيال ذلك قبل الالتحاق بالكلية.

إذًا ففتياتنا بحاجة إلى توعية جيدة بماهية نظام الانتساب حتى نساعدهن على اتخاذ القرار المناسب قبل التسجيل. ولتحقيق هذا الغرض يمكن توزيع نشرات في المدارس الثانوية تشرح طبيعة الدراسة في شعبة الانتساب بكليات البنات قبل التسجيل بفترة كافية، كما يمكن إلقاء محاضرات تعريفية في المدارس عند استلام النتائج، أو في الكلية قبل التسجيل بفترة وجيزة. وقد تسهم وسائل الإعلام بدور كبير في توعية الطالبات بنشر ملخص تلك المحاضرات. كما نستطيع تخصيص صفحة على موقع الكليات توضح نظام الانتساب وتستقبل الأسئلة من الزوار. بهذا نكون قد عرفنا الطالبة بالنظام وتركنا لها فرصة التفكير واتخاذ القرار المناسب لها. وبذلك قد نعمل على الحد من التسرب وتوجيه الجهود المبذولة لما يعود بالنفع على الجميع.

تجارب فرنسية

القراءة غير الصفية لطلاب المدارس الابتدائية

يوسف النبهاني - الخرطوم

بعد الحرب العالمية الثانية انحسرت لغة الحرب وازدهرت لغة السلام، بعد أن أدرك الإنسان أن لا فائدة من استخدام السلاح، خصوصًا بعد الخسائر الفادحة التي جلبتها الحرب القاسية. أدرك الإنسان ذلك يقينًا بعد ظهور القنبلة النووية وآثارها المدمرة على مدينتي «هيروشيما» و«ناكازاكي»، حيث أبادت نحو ٨ آلاف ياباني. وشوهت الآلاف. وما زالت آثارها ظاهرة في تشوهات الأطفال حديثي الولادة (خلقيًا وجسميًا).

مع ازدهار السلام ازدهرت الآداب والفنون والمسرح والسينما، وأصبح الإنسان المتحضر مؤمنًا بالديموقراطية وحرية الشعوب. وبالتالي انداح الاستعمار البغيض من على صدر الدول في قارات: آسيا، وإفريقيا، وأمريكا اللاتينية، وبدأت آثار الثقافة تنمو في كل الدول. وخصوصًا الدول التي نالت استقلالها حديثًا.

وأظهرت الدراسات النمو المتسارع في أعداد الطلاب الذين يقرؤون الكتب غير الصفية منذ عام ١٩٦٥م حتى عام ١٩٩٠م، حيث بلغت الذروة، ومن ثم بدأ معدل النسبة في الانحدار ليبلغ في عام ٢٠٠٥م أقل معدل له منذ عام ١٩٦٥م.

ويرجع هذا الانحدار في مستوى القراءة لدى الطلاب إلى ظهور القنوات الفضائية المتنوعة التي بهرت ألباب الأطفال بتنوع برامجها وجمال ألوانها وسطحية برامجها. وزاد الطين بلة ظهور الألعاب الإلكترونية التي يجلس عليها الطالب لساعات طوال ولا يستطيع مغادرة جهاز اللعبة أبدًا!

وبهذا صارت الغلبة لجهاز التلفزيون والألعاب الإلكترونية على حساب الكتاب وقراءته، الذي يتطلب جلوسهم محملقين منفردين في صفحاته في جو يسوده الهدوء والصمت، مفضلين على ذلك مشاهدة القنوات المتخصصة في برامج الأطفال وتقديمها والتي يسود برامجها برامج ترفيهية وكارتونية، إذ قلما نجد برامج ثقافية اجتماعية يستفيد منها الطفل.

وصار الطفل يقبل على مشاهدة هذه القنوات لأنها تتيح له الجلوس وسط أفراد عائلته وإخوته وأصدقائه وتتيح له مشاركتهم بالضحك والتعليق.

وتبعًا لهذا فقد كسدت تجارة الكتب وأقفلت مكتبات كثيرة، وأصبح الكتاب أرخص سلعة تباع بالأسواق، ورغم ذلك لا أحد يقبل على شرائه!

وحينما رأى المدرسون المهتمون بأمر القراءة ما حدث من تدني وهبوط في هذا المجال بدؤوا يتحركون حتى ينشط هذا المجال، حيث بدؤوا يفكرون في أنجع السبل لتشجيع الطلاب على القراءة والقراءة غير الصفية على وجه الخصوص. وهنا بعض التجارب الفرنسية في هذا المجال:

جمعية أصدقاء الكتاب

أسس «فلاديمير» المدرس بمدرسة ابتدائية بقرية تقع بالقرب من مدينة بواتيه بفرنسا (غرب فرنسا) جمعية أسماها «جمعية أصدقاء الكتاب»، وانضم إلى جمعيته عدد محدود من الطلاب الذين يعشقون القراءة والاطلاع، ونسبة لأن فلاديمير كان طموحًا ويحب الأدب، والاطلاع، ويتمنى أن يقرأ أكبر عدد من الطلاب الكتب الأدبية الشيقة.

ولهذا فقد خطرت له فكرة أن يستفيد من فرصة المهرجان السنوي الذي يقام خصيصًا لبداية العام الدراسي ويجمع الطلاب وأسرهم. أقام «فلاديمير» مهرجانًا مصغرًا للكتاب بالتعاون مع دار النشر التي يتعاون معها، ومن ثم طلب من مدير المدرسة أن

يتيح له فرصة بزيارة مؤلف مشهور بفرنسا لتقديم محاضرة للأطفال عن تجربته في التأليف في مجال الأدب القصصي للطلاب. ولقد اختار وقتًا بعد اليوم الدراسي لإلقاء تلك المحاضرة حتى يحضرها كل أفراد الأسرة.

حضر المؤلف الشهير وقدم محاضرة قيمة خلبت ألباب الأطفال وأسرهم، وكان أعضاء الجمعية يقدمون كتبًا للحاضرين عن كل قصة وكتاب يتحدث عنه المؤلف كهدايا. وحينما انتهى المؤلف من إلقاء محاضرته تجمعت لدى الأطفال نحو خمسة كتب. فرح الأطفال بتلك الهدايا أيما فرح وبدؤوا مسيرة القراءة. وكانت فاتحة شهية لمسيرة القراءة. لا سيما أن الكتب (المهداة) شيقة ومليئة بالقصص والمغامرات التاريخية والوطنية. فلقد حكى المؤلف ما مر به من عنت وتعب لأجل طباعة كتبه، وقصة النجاح التي بدأت بطباعة أول كتاب له، حيث تم طبعه نحو ٧ طبعات وترجم لنحو عشر لغات عالمية.

ولقد سعد الطلاب بتلك التجربة أيما سعادة وكذلك أسر الطلاب، حيث بدؤوا في مساعدة أطفالهم في شراء واقتناء الكتب القيمة، وظهرت مبادئ حب وشغف الأطفال لاقتناء الكتب وقراءتها. ومن ثم بدؤوا يتبادلون الكتب فيما بينهم ويقرؤون ويقرؤون. وامتد نشاطهم ليؤثر في طلاب المدارس الأخرى بالمنطقة، حيث شعروا بذلك النشاط الضافي الذي يضطلع به أولئك الطلاب، وشعروا بقيمة هذه الهواية النبيلة.

وبالتالي قويت شوكة جمعية أصدقاء الكتاب وقدمت عدة مؤلفين آخرين للطلاب، وأصبح المدرس «فلاديمير» رائدًا لنشاط الطلاب الأدبي. وهذا النشاط الدائب أهّله لكي ينال أرفع الأوسمة العلمية من قبل وزير الثقافة الفرنسي.

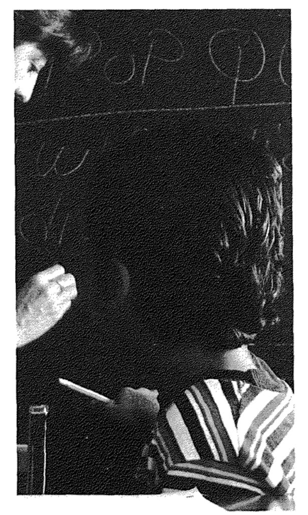
مكتبة متحركة

في إحدى ضواحي مدينة «بوردو» الميناء الكبير بغرب فرنسا اضطلعت مدرسة بالتعاون مع إحدى شركات النشر وبيع الكتب بتعيين مدرسين يعملون بالمدارس بتلك الضاحية كموزعين وبائعين للكتب الأدبية والتاريخية وقصص المغامرات العالمية والوطنية.

ولقد كانت تمنح المدرس المتعاون منحة تبلغ نحو ألف دولار، يرجع ذلك نسبة للبوار الذي خيم على بيع الكتب في أوساط الطلاب. وإن المدرس بحكم عمله يستطيع الترويج لصالح الكتب المعروضة من قبل الدار.

ولقد نجح بعضهم وفشل الآخرون، ولكن أكثر المدرسين نجاحًا في ذلك المسعى هو المدرس الذي يدعى «مستر لوشون»، حيث كان مدرسًا للغة الفرنسية، وكان يحب الأدب الفرنسي ويتحدث عنه بصورة لافتة للطلاب مما أهله لأن يقدم عدة كتب معروضة لديه للطلاب ويظهرها بمظهر شيق وخلاب، مما جعل الطلاب يقبلون على شرائها. وازداد عددهم قليلاً قليلاً حتى شمل معظم طلاب المدرسة، بل تعداه لمدارس أخرى.

ولقد نجح «مستر لوشون» في الفترة ما بين ١٩٩٣-٢٠٠٥م في توزيع نحو بليوني كتاب في معظم المنطقة، حيث عين هو (بصفته مدرسًا) بعض الطلاب النشيطين أدبيًا كمعاونين له، وخصص لهم راتبًا يفرحهم نهاية كل شهر، حتى يبيعوا له بعض الكتب.



ومن ثم تعدى ذلك مدارس أخرى بالمنطقة، وأصبح علمًا في كل المنطقة، وازداد دخله حتى صار دخل المعلم مبلغًا ضئيلاً بالنسبة لدخله من ريع بيع الكتب!

وفي العام الماضي احتفلت شركة بيع ونشر الكتب بذلك المدرس «مستر لوشون» وطلبت من مدير المدرسة تخصيص يوم كامل للاحتفال به. ولقد دعت كل الرجال والنساء المهمين بالمنطقة، ومنحته ميدالية ذهبية ولكل فريق الطلاب الذي عمل معه أثناء هذه الفترة ميدالية فضية، حيث ساعد في إنعاش مبيعات الشركة، ومن ثم عمل على رفع معدل الثقافة في أوساط الطلاب وأسرهم.

ونسبة للأثر الذي تركه «مستر لوشون» في المدرسة في كل المنطقة أمر مدير المدرسة بأن يصبح هذا اليوم يومًا سنويًا يحتفل به الطلاب وأسرهم بيوم الكتاب والترويج للقراءة والثقافة بالمدرسة، وحينما شاركت مدارس الضاحية بذلك النشاط عمدت للاحتفال بذلك اليوم مبدئيًا مع مدرسة «مستر لوشون»، ومن ثم أصبحت تعمل يومها الخاص بها كيوم للكتاب والثقافة.

الكمبيوتر يسأل

في مدرسة حديثة بباريس أقيمت تجربة تشييد مكتبة حديثة لمدرسة ابتدائية، وتعمل هذه المكتبة بالكمبيوتر، حيث تم تخصيص نحو عشرين جهازًا في غرفة خاصة لخدمة الطلاب في استخراج المعلومات الخاصة بالكتب المطلوبة.

ومن خلال هذه المكتبة الحديثة تعمل إدارة المدرسة على تشجيع القراءة بكل أنواعها سواء أكانت صفية أم غير صفية، وأثناء الدوام الرسمي للدراسة أم بعد الدراسة. وعمدت إدارة المدرسة على ترك أبواب تلك المكتبة مفتوحة في الفترة المسائية (حتى الساعة الثامنة مساء).

يأتي الطالب لاستخراج الكتاب من خلال استخدامه للكمبيوتر. يعين له الجهاز رقم الغرفة ورقم الرف، ومن ثم في أي صف يقع، ومن هو مؤلفه.

لا أحد يخدم الطالب، فالطالب هو الذي يسجل المعلومات الخاصة بالكاتب، ومن ثم يذهب للبحث عنه وحينما ينتهي من قراءة ذلك الكتاب يجب أن يرجع للكمبيوتر ويطلب الأسئلة المخصصة لذلك الكتاب ليجيب عنها.

وعمدت الإدارة المدرسية لاستخدام تلك الأجهزة حتى يدرك الطالب مدى استيعابه وفهمه لما قرأ. وحينما يستطيع الطالب الإجابة عن نحو ثلاثة أرباع الأسئلة فإنه يعتبر قارئًا متميزًا. والطالب بعد الإجابة عن جميع الأسئلة عن طريق اختيار الإجابة الصحيحة من كل أربعة أجوبة وبعد الانتهاء يدرك ما تحصل عليه، ويعمل الكمبيوتر على حفظ إجابة كل طالب في ملف خاص باسمه.

وهكذا يتجمع في ملف عدد الكتب التي قرأها الطالب وأجاب عن أسئلتها، وهل تحصل على نتائج جيدة أم لا؟ وبعد جمع النتائج الذي تحصل عليها كل طالب يستطيع المدرس تقييم كل طالب على حدة. وبذلك يتعرف الطالب على مدى فهمه واستيعابه، وهل يقرأ بتمعن ودقة أم بقلة فهم واستيعاب.

ولهذا بدأ الطلاب في إعداد برنامج قراءة أقوى وأشمل فهمًا وأسرع في التركيز، وبدؤوا عملية التركيز وبذل كل ما في وسعهم لأجل بلوغ أقصى درجات الفهم والاستيعاب بجانب التركيز.

وتتدرج البرنامج ليقيس سرعة القراءة بجانب التركيز لكل طالب، حيث بدأ البرنامج يقيس كل نصف ساعة مدى استيعاب الطالب لما قرأه، بحيث حدد درجة «C» للمتدرب ودرجة «B» للمتوسط، ومن ثم درجة «A» للطالب المتميز. أي حسب درجة استيعاب وسرعة القراءة.

وحينما يصبح الطالب دائمًا لنيل درجات عليا، ويصبح ذا سرعة قوية في القراءة يكافأ بإدخاله لغرفة مخصصة للطلاب المتميزين الذين يحسبون على عدد أصابع اليد، وتخصص لهم أجود أنواع الكتب، وتكون متوفرة بحيث يستطيع ثلاثة منهم اختيار كتاب واحد لقراءته.

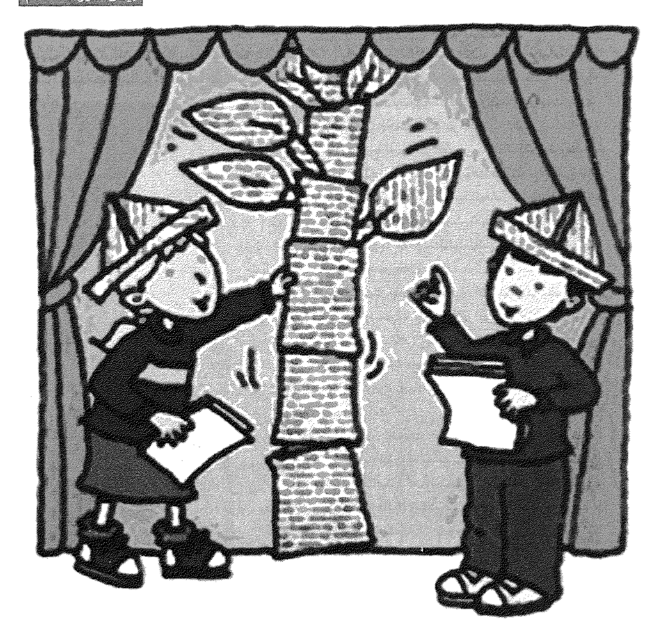
وحينما شعرت إدارة المدرسة بنجاح البرنامج المخصص للقراءة بدأت في تخصيص درجات تمنح لكل طالب يقرأ عددًا محددًا من الكتب وينال عليها درجات محددة من الأسئلة المطروحة.

وهكذا شجعت المدرسة الطلاب على القراءة فأصبحوا يحبون ويعشقون عالم الكتب، وأصبحوا ملمين بكل الكتب والمؤلفين، وأصبحوا دائمي القراءة بحيث لا يخلو يوم من قراءة لكتاب■

من أجل قراءة أفضل للصغار

مسرح القارئ

إيمان الكرود - الدمام




BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

ثمة أصوات تهمهم بكلمات غير مفهومة ورسائل تتناقلها الأيدي وطائرات تطير في الفضاء. صرخة تشق الأجواء. تتوقف الأصوات عن الهمس والرسائل عن التنقل والطائرات عن الطيران. يعلو صوت فتاة صغيرة تجلس في أقصى الغرفة وأمامها كتاب القراءة الذي تحاول جاهدة فك شفراته. تقرأ الفتاة كلمة، ثم تتوقف لدقيقة كاملة قبل أن تقرأ الكلمة الثانية. بعد دقائق تعود الحياة فتهمس الأصوات وتتنقل الرسائل وتطير الطيارات الورقية في فضاء الفصل ويغيب صوت الفتاة لتنطلق الصرخة من جديد «خلا!!!!!!!اص».

مشهد يتكرر في كثير من الفصول اليوم بشكل يكاد يكون يوميًا وفي حصص مادة القراءة خاصة، حيث يستغل الطلاب المشاغبون الوقت الطويل الذي يقضيه المعلم وهو يتابع أحد الطلاب المتعثرين في القراءة فيبدؤون بهزلهم ولعبهم. ويجد المعلم المسكين نفسه، وقد كان يحسب أنه يواجه مشكلة واحدة، يواجه مشكلتين. ولكن أما من طريقة يطور فيها المعلم من مستوى الطلاب الضعيفين في القراءة وفي الوقت ذاته يشغل باقي التلاميذ؟

القاعدة الذهبية في التعلم

عند تدريس مادة القراءة كثيرًا ما نصادف طلابًا يقرؤون في مستوى أقل من أقرانهم بمراحل وقد يستمر هذا المستوى إلى نهاية العام. وقد يصاب كثير من المعلمين بالإحباط فهم يبذلون كل جهدهم ولكن بلا فائدة تذكر. إلا أن العلاج ببساطة يكمن في القاعدة الذهبية المشهورة وهي الممارسة والتكرار.

نحن نعلم جيدًا أن السبيل الأول إلى إتقان أي مهارة هو ممارستها بشكل مستمر. ورغم أن هذه القاعدة من أقدم القواعد في علم التدريس إلا أنها من أصحها على الإطلاق. وما من معلم إلا ويدرك هذه القاعدة جيدًا سواء بشكل واعٍ أو غير واعٍ. ألا يفرض معلمو الإملاء مثلاً على طلابهم الضعيفين في هذه المادة أن يكتبوا الكلمات مرة واثنتين وعشرة؟ ألا يرسل معلم القراءة للوالدين في المنزل ملحوظة يوضح لهم فيها أن ابنهم متعثر في القراءة وأنه لابد أن يقرأ النصوص المنهجية مرات عدة حتى يتحسن في القراءة؟ ألا يوزع معلمو الرياضيات على طلابهم ملازم تحوي على عدد كبير من المسائل الرياضية ليتدربوا على حلها؟

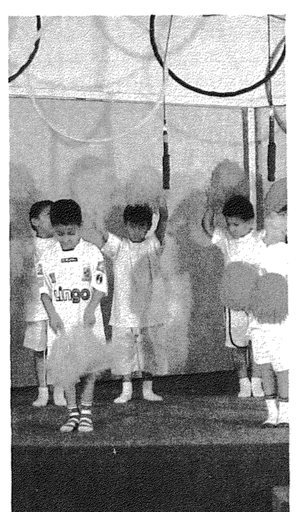
إذًا فكل المعلمين يعرفون هذه القاعدة تمام المعرفة ويستخدمونها بشكل أو بآخر. ولكن المهم ليس التطبيق ولكن في كيفية هذا التطبيق وهل ينتفع منه طلابنا؟ فلا أسهل على طالب الإملاء من أن يكل مهمة نسخ الكلمات المملة إلى أخته أو أخيه أو حتى الخادمة في المنزل وطالب الرياضيات سينسخ الجواب بالنقط والفواصل من زملائه. أما الطالب الذي لا يحب القراءة فسيرمي الكتاب بعد أول سطرين.

إذًا فعندما أتكلم عن الممارسة فإني لا أعني بذلك أن نطلب من التلاميذ بأسلوب مباشر أن يكرروا قراءة النص مرات عديدة لأنهم ببساطة لن يقوموا بذلك إلا عند الإجبار. حتى هذه الطريقة لن تحقق النفع المرجو. إذًا كيف نستطيع أن نجعل

التلاميذ يقرؤون النص عشرات المرات من تلقاء أنفسهم وبشغف أيضًا. هل يبدو أن الأمر يتطلب وصفة سحرية. ليس على الإطلاق. فالحل أبسط مما قد يتصور الكثيرون. إنه مسرح القارئ.

حقائق

مازلت أذكر كيف كانت تلميذاتي الصغيرات يتحلقن حولي عند التدريب للإذاعة المدرسية وكل واحدة تود أن تحظى بدور في المشهد التمثيلي. إذًا تلاميذنا يتمتعون بقدر كبير من الإيجابية يفوق تلك التي يتمتع بها الكبار. وعندهم رغبة كبيرة في المشاركة الفعالة وولع شديد بالتمثيل وتقمص الأدوار الذي هو نوع من أنواع اللعب. فلماذا لا نستغل هذا الميل عند أبنائنا فنستخدمه في التدريس عامة وتدريس القراءة خاصة؟ ولماذا-وهذا هو الأهم- لا نراجع آليات التعليم التي نتبعها قبل أن



نوجه أصابع الاتهام إلى أبنائنا؟

ثمة حقيقتان لا مفر منهما. الحقيقة الأولى هي أن كتب القراءة العربية التي تدرس لأطفالنا في المدارس تنفر طلابنا من القراءة أكثر مما تحببهم بها في كثير من الأحيان. كنت أدرس مادة القراءة باللغة الإنجليزية وكانت كتب هذه المادة تجلب من الخارج. وليسمح لي القارئ أن أسترسل قليلاً في ذكر مزايا كتاب القراءة ذاك فقد كان كتابًا جميلاً مطبوعًا على ورق فاخر ومليئًا- وهذا هو الأهم- بقصص ممتعة مزينة برسوم بديعة رسمها رسامون متخصصون بالرسم للأطفال. وقد كتب أعلى كل قصة اسم الكاتب والرسام اللذين يجد الطفل نبذة عنهما في نهاية كل قصة. كنت أنا المعلمة أختلس من وقتي بضع ساعات أقرأ خلالها قصص هذا الكتاب مستمتعة. إذ تعيدني هذه القصص إلى عالم الطفولة بكل ما فيه من سحر وخيال فأضحك على الضفدع الذي وضع البذرة في التراب وجلس بجانبها يغني لها ويقرأ لها ويوقد لها الشموع في الليل حتى لا تشعر بالوحدة وأحيي الفتاة التي ضاعت في مدينة الألعاب فتوجهت إلى الشرطي على الفور وأرى الحصان الصغير وهو يكبر يومًا بيوم حتى أصبح حصانًا قويًا. أي مقارنة بين ذلك الكتاب وبين كتب القراءة التي ندرسها في مدارسنا ستنسف الثاني وستهبط به إلى أسفل سافلين. لا أريد أن أسهب بالمقارنات وإلا سأنتهي بتأليف كتاب في التدريس المقارن على غرار الأدب المقارن والذي سيكون في صالح التعليم الأجنبي بدون أدنى تفكير.

الحقيقة الثانية هي أننا من غير قصد منّا نوحي إلى أطفالنا أن القصة تقرأ مرة واحدة لا غير. فمعلم القراءة يقرأ النص مرة واحدة. ثم بعد ذلك يطلب من كل تلميذ أن يقرأ جزءًا من النص وقبل أن ينتهي آخر تلميذ من قراءة السطر الأخير يكون الجميع ومعهم المعلم قد أغلقوا الكتاب ومعه أغلقوا باب هذه القصة إلى الأبد.

ما هو مسرح القارئ؟

قد يرتاب المعلم من كلمة «مسرح» فيتبادر

إلى ذهنه خشبة المسرح وما يتبعها من مؤثرات وديكورات وأزياء وساعات من الحفظ والتدريب والمران. بينما الأمر أسهل من ذلك بكثير إذ هو لا يعدو في الحقيقة مجموعة من التلاميذ يقفون على خشبة المسرح الذي هو في الحقيقة مقدمة الصف ويمثلون أدوارهم الصغيرة من دون حاجة إلى أي مؤثرات أو مشاهد أو ديكورات ماخلا ورقة النص التي يحملونها بأيديهم.

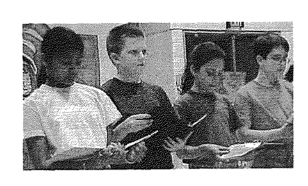
فمسرح القارئ Reader's Theatre هو مصطلح حديث يقصد به ذلك المسرح المصغر الذي تحول فيه القصص إلى نصوص درامية ويستخدم عادة في المدارس. وهو لا يتطلب ما يتطلبه المسرح العادي. و«مسرح القارئ» هو من أفضل الأساليب المستخدمة حاليًا في تدريس القراءة في الدول الغربية. وميزة هذا الأسلوب هو أنه يستغل ميل الطفل الفطري للعب والتمثيل فيدخلهما في تعليم القراءة وبذلك يحقق الطفل غايتي اللعب والتعلم.

لماذا مسرح القارئ؟

في دراسة أجريت عام ١٩٩٩م تحت مسمى «المعلم القارئ» قام بها كل من ستريكر وروز ومارتينز أثبتت أن طلاب الصف الثاني الابتدائي الذين مارسوا مسرح القارئ بانتظام اكتسبوا تطورًا ملحوظًا في القراءة حتى إنهم غدوا يقرؤون نصوصًا في مستوى أعلى من النصوص المخصصة لسنهم بما يزيد على عام.

كما لاحظت إحدى المعلمات في إحدى المدارس الأمريكية أنه بالرغم من أن طلابها يتمتعون بمهارات استيعاب عالية إلا أنهم يفتقدون إلى مهارة الطلاقة في القراءة. بعد عشرة أسابيع فقط من تطبيق مسرح القارئ مع طلابها اكتسب كل طالب تطورًا يعادل تطور مرحلة كاملة. وفي نهاية العام أصبح الطلاب يقرؤون نصوصًا معدة لمستوى أكبر من مستواهم بثلاثة أعوام.

وقد وجد أن مسرح القارئ يحقق الكثير من الفوائد، فإضافة إلى أنه يكسب الطلاب طلاقة لغوية ويطور من قدرتهم على القراءة وجد أنه أيضًا يفيد الطلاب في عدد آخر من المجالات فهو يحبب



الأطفال بعادة القراءة ويحولهم إلى قراء نهمين. وهو أيضًا يعزز من ثقتهم بأنفسهم ويساعدهم على التخلص من الخجل الزائد. وإضافة إلى كل ما سبق يطور مسرح القارئ من مهارات الاستماع والمحادثة والخطابة والفهم. ويعزز مفهوم العمل الجماعي وغيرها من الأمور. إلا أن أهم ما يميز هذه الطريقة هو أنها تجعل الأطفال يقرؤون النص مرات عديدة قد تصل إلى عشرين أو ثلاثين مرة باستمتاع.. إذ إنهم يرون لأول مرة القصة وقد دبت الحياة في شخصياتها فهم-أي شخصيات القصة- يتكلمون ويضحكون ويتحركون. ويتعلم الطالب مفاهيم جديدة في الأدب كالحبكة والشخصيات وغرض الكاتب من القصة.

كيف نعد مسرح القارئ؟

- قبل أن يبدأ المعلم مسرح القارىء يهيئ الطلاب له نفسيًا وذلك بأن يقرأ هو عدد من النصوص لطلابه بصوت مرتفع مع استعمال التعبيرات الصوتية والحركات والإيماءات.
- يشرح لهم فكرة مسرح القارئ.
- بعد ذلك يبدأ الطلاب بالقراءة الجماعية مع مراعاة التعبيرات الصوتية والإيماءات.
- يقسم الصف إلى مجموعات بحيث تقرأ كل مجموعة دورًا معينًا.
- بعد ذلك يبدأ المعلم تقسيم الأدوار على الطلاب الذين يتمرنون عليها فيما بينهم فيوزع على كل طالب منهم نسخة من النص الدرامي.

كيف نختار النصوص؟

يبدأ المعلم في البداية باستخدام نصوص درامية جاهزة وهذه النصوص متوفرة بكثرة باللغة الإنجليزية يمكن ترجمتها إلى العربية يجدها المعلم في كتب خاصة أو في مواقع شبكة الإنترنت

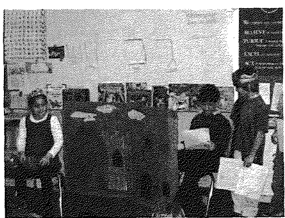
ويختار منها ما يناسب مستوى طلابه ويقوم بتوزيع الأدوار عليهم.

في مرحلة لاحقة يقوم المعلم مع تلاميذه بتحويل القصص إلى نصوص درامية وبذلك ندمج مهارات الكتابة ومهارات التفكير مع مهارات القراءة. واختيار القصص لا يتم بطريقة عشوائية. بل لابد أن تكون القصص مشوقة وغير طويلة فيها الكثير من الحوار والحركة. ولابد أيضًا أن تكون مناسبة للمرحلة العمرية للطلاب.

ومهمة تحويل القصة إلى نص درامي توفر للمعلم الكثير من المرونة. إذ يستطيع المعلم أن يغير في النصوص فيحذف ويزيد ويستطيع أيضًا أن يزيد في عدد الشخصيات أو عدد الرواة في القصة إذا كان عدد الطلاب كبيرًا، أو يدمج أكثر من شخصية مع بعضها في حال عدم توفر عدد كاف من الطلاب. والمثال التالي هو جزء من نص درامي مهيأ وجاهز:

الراوي ١: كان هناك صبيٌ اسمه أحمد.

الراوي ٤: كان أحمد صبيًا محبوبًا ووسيمًا أيضًا.





الراوي٢: لكنه لم يكن يريد أن يستمع إلى نصيحة أي شخص أبدًا.

الراوي٣: وكان يريد أن يفعل ما يحلو له فقط.

الراوي الأول: قال له والده:

الأب: إنه من الجيد أن تأخذ قراراتك بنفسك. ولكن من الأفضل أن تعرف عندما يعرف الآخرون أكثر منك.

الراوي ٤: لم يكن أحمد يرغب في سماع هذه النصيحة أيضًا فقال:

أحمد: سأسافر يا والدي إلى الخارج، حيث أستطيع أن أفعل ما يحلو لي.

وكما يظهر من النص أعلاه فإن الممثلين في النصوص الدرامية ينقسمون إلى راوٍ أو مجموعة من الرواة وشخصيات القصة المختلفة التي من بينها شخصيات صامتة وشخصيات تقوم بإصدار المؤثرات الصوتية. وتتركز أهمية الرواة في القصة في أنهم يقدمون وصفًا للمكان والزي والجو وغيرها من أشياء لا يراها المستمع.

طريقة العرض

الآن وقد تدرب الطلاب واستعدوا لم يبق إلا عرض المسرحية.

يقف الطلاب النجوم أمام الفصل على شكل خط مستقيم أو نصف دائرة ويحملون النصوص الدرامية التي يقرؤون منها في أيديهم أو يضعونها في حاملات مثل حاملات النوتات الموسيقية.

مسرح القارئ فكرة جميلة وبسيطة ومتى ما طبقناها فإننا لن نضرب فقط عصفورًا أوعصفورين بحجر، بل عصافير عديدة بنفس الحجر، وفي نهاية العام ستمتلئ شبكتنا بالعديد من العصافير الجميلة.

- مقرر اللغة الإنجليزية
- الأندية الصيفية بحاجة إلى تطوير
- المرشد الطلابي وطوق النجاة
- هوس «مهارات التفكير»

سبورة

مقرر اللغة الإنجليزية للصف السادس الابتدائي
الإيجابيات عديدة .. وكذلك السلبيات

محمد فيهم سيف الرحمن - حفر الباطن

تسعى وزارة التربية جاهدة لأجل تقديم مادة اللغة الإنجليزية لطلاب الصف السادس الابتدائي بصورة جادة ومشوقة. ومن وجهة نظري أنها تعتبر خطوة جادة وإن بدأ العمل بها متأخرًا أي بالصف السادس وليس الأول أو الثاني.

تتبوأ اللغة الإنجليزية المكانة الأولى بالعالم كلغة، وهي تمتلك إرثًا عاليًا من المعارف الإنسانية، العلمية والتكنولوجية. وفي هذا الصدد قال الفرنسي «أف جي»: «في غفلة من الأحداث، وفي ظل سرعة الانتشار المتقدم والمتسارع للتطور الصناعي والعلمي والتقني



بجانب التجارة العالمية، أصبحت اللغة الإنجليزية هي اللغة السائدة عالميًا».

وتعتبر اللغة الإنجليزية اللغة المتعامل بها في الاتصالات وليس ثمة لغة أخرى تنافسها من اللغات. وفي هذا المقال سوف أتطرق لنقد مقرر اللغة الإنجليزية للصف السادس الابتدائي الذي يحوي كتابين: الأول كتاب النصوص والآخر كتاب التمارين والتدريبات.

وكتاب التمارين والتدريبات مزود بوسائل إضافية منها: شرائط كاسيت ، سي دي ، ملصقات، بطاقات مشعة.

يعتبر كتاب النصوص من الأهمية بمكان، حيث لا يحتاج المدرس لبحث دروس جديدة يعلمها للطالب. وعندئذ يكمن التحدي - هل يجد المدرس ما يود تدريسه للطلاب؟

إن الكتابين المقررين لطلاب السادس الابتدائي يعتبران كتابين مشوقين، حيث يغطي كتاب النصوص، الحروف الأبجدية، وحساب الأعداد حتى ١٠٠، ومعلومات عن الشخصية، وبعض المعلومات الهامة. ومعظم الكلمات المستخدمة في الكتاب متداولة بالحياة العامة، إضافة لاحتوائه على الأساسيات في علم النحو.

المزايا

- تطرق كتاب النصوص في المواضيع الأولى لمواضيع واقعية ومقنعة، وبالتالي يسهل هضمها بواسطة الطلاب بمساعدة كتاب التدريبات والتمارين.

- تتوافق الموضوعات المختارة مع رغبات واهتمامات الطلاب الثقافية، حيث تمس المحيط الطلابي وكذلك المجتمع الذي من حوله، بالتالي

يستطيع الاتصال بمن حوله باللغة الإنجليزية.

- تعتبر الدروس بالمقرر متسلسلة ومتتابعة بطريقة حسنة، فهي تتدرج من الأسهل إلى الأصعب.

- يُحمد في المقرر عملية تدوير المعلومات، بجانب تدرجها من السهل إلى الصعب واتساعها لتشمل عدة مجالات وميادين أخرى.

- يوجد تناسق وتوازن بين النحو والكلمات المستخدمة.

- يتضمن المقرر صورًا مبهجة وبألوان مدهشة، وهذا بلا شك سوف يلفت انتباه الطلاب ويترك أثرًا جاذبًا في نفوسهم.

- يعتبر التلوين المستخدم في الملصقات المشعة إضافة جيدة لكتاب النصوص.

المثالب

- يعتبر الموضوعان الأخيران بكتاب النصوص أعلى مستوى من فهم الطلاب ومستواهم، حيث يمكن الاستفادة منهما في وسائل الإعلام والأماكن العامة، كالبنوك والمستشفيات.

- تم وضع النقاط والخطوط بكتاب التدريبات بطريقة غامضة ومغلوطة يصعب على الطلاب كيفية التعرف على تلك النقاط والخطوط بحيث يتم توصيلها لتكوِّن الحروف الأبجدية.

- في رأيي أن كتاب التدريبات لم يستوف التدريبات اللازمة الذي يحتاج إليها الطالب المبتدئ لتعلم اللغة. فالطالب يحتاج للكتابة المكثفة حتى تنطلق يده ويتعلم على كتابة اللغة وحروفها.

- يعتبر الإملاء من الضروريات لتعلم اللغة، ولكننا نجد أن دروس الإملاء غائبة في كلا الكتابين المقررين.

- هناك مساحة وفراغ شاسعان بين الكتابين المقررين ولا توجد نقاط تلاق بينهما. وفي رأيي أن مؤلفيهما لم ينسقا مع بعضهما.

الوصول للأحسن

في كل العالم المتقدم عادة ما يطرح أصحاب السجلات سجلاتهم الجيدة للفحص والمراجعة، وها نحن نحاول أن نفعل ذلك حتى نصل للأحسن بخصوص هذا المقرر:

- يجب جمع كتاب النصوص وكتاب التدريبات في كتاب واحد؛ وذلك لأجل الملاءمة والتوافق بينهما.

- تزويد الطلاب بكراسة ذات أربعة خطوط لأجل التدريب على كتابة الخط بالنسبة للحروف الإنجليزية. على أن يزود برأس كل صفحة بنقاط يعمل الطالب على توصيلها، بحيث تكوِّن الحرف المطلوب كتابته ببقية الصفحة. ومن بعد ذلك يمكن تدريب الطلاب على كتابة الجمل الصغيرة بنفس طريقة الخط الذي تدرب عليه سابقًا.

- يجب زيادة حصص الدرس بالنسبة للطالب في مقرر اللغة الإنجليزية كلما تقدم في تلقي الدروس، وخصوصًا لضعاف المستوى في التلقي.

- يجب أن يتضمن المقرر بعض الدروس الإملائية حتى يتعود الطالب الكتابة بالسرعة المطلوبة.

- احتواء كل درس على صفحتين: الأولى تحتوي على المعلومات الجديدة، والأخرى للمعلومات السابقة القديمة؛ بحيث يمكن مراجعتها.

- يجب كتابة كل التدريبات باليد، بحيث يتعود الطالب الكتابة على أن يزود الطالب بقليل من التعليمات قبل عملية البدء في مثل تلك الأنشطة.

- يجب وضع صور ملونة مبهجة بحيث تصف بعض الأحداث أو القصص الصغيرة، ويستطيع الطلاب من خلالها تكوين قصص صغيرة مستخدمين ذخيرتهم القليلة من الكلمات الإنجليزية.■

الأندية الصيفية بحاجة إلى تطوير

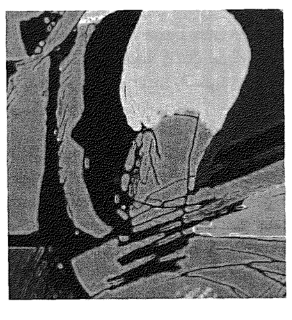
عبدالله عبدالرحمن الغبيوي - الدوادمي

تحرص وزارة التربية والتعليم على أن يستغل أبناؤنا الطلاب أوقاتهم بما يفيد، وعلى تعليمهم ما هو نافع لهم في حاضرهم ومستقبلهم. ولهذا يسعى العاملون فيها على رعاية الأندية الصيفية ودعمها. تلك الأندية التي أصبحت الحاجة لها ماسة في وقتنا الحاضر، لا سيما بعد الثورة في مجال العلم والاتصالات، حتى أصبح يصل إلى الشاب ما هو نافع من علم مفيد وآراء سديدة، وما هو ضار من أفكار سيئة وتوجهات خاطئة. وبالتالي أصبحت هذه الأندية الصيفية ذات فوائد عظيمة من أبرزها:

- حفظ أوقات الشباب من الفراغ وأصدقاء السوء واستغلالهم بما يعود عليهم بالفائدة.
- إكسابهم المهارات العلمية والعملية في مختلف المجالات كتزويدهم بأنواع المعارف وتعليمهم الحاسب الآلي، والحرف اليدوية المهنية والكهرباء، والنجارة والحدادة وغيرها.
- تعويدهم النشاط وحب العمل عن طريق إقامة بعض الألعاب الرياضية وبعض الدروس والمسابقات المفيدة.
- إكسابهم الأخلاق والآداب الإسلامية وحسن التعامل مع الآخرين.
- حفظ الطلاب من الأفكار الوافدة والمنحرفة، سواء كانت تدعو إلى الغلو والتطرف أو التساهل والتفريط.
- تنمية حب التعاون والعمل الجماعي والبذل من أجل الدين والوطن (وقد رأينا هذا جليًا في الحج عندما رأينا شباب الكشافة يقومون بمساعدة الحجاج وإرشاد التائهين بكل تفان وإخلاص).

ونظرًا لما لهذه الأندية الصيفية من أهمية فقد أحببت أن أقدم بعض الاقتراحات للقائمين عليها في هذا البلد المبارك:

- أن تعتني وزارة التربية والتعليم بالتخطيط لكل ناد صيفي حسب المنطقة التي يقع فيها وحسب الاحتياجات الأساسية في المنطقة من: زراعية وصناعية وتجارية.. ويكون تطبيق هذه الخطط بصفة مرحلية يتم تقييمها باستمرار.
- أن تقوم إدارة التربية والتعليم في المناطق والمحافظات بتقييم كل ناد صيفي بعد نهايته للتأكد من تحقيق الأهداف التي أنشئ من أجلها. مع وضع حوافز للأندية الصيفية المتميزة حتى يكون هناك تنافس إيجابي بين مختلف الأندية الصيفية.
- وضع لقاءات وملتقيات وورش عمل للمشرفين على الأندية الصيفية قبل بدايتها بمدة قصيرة حتى يتم من خلالها تبادل الخبرات بينهم، ويشرف عليها متخصصون لتعم الفائدة، ويتطور الأداء، وتتدارك الأخطاء.
- أن تتم في هذه الأندية الصيفية رعاية خاصة للموهوبين والمبدعين، وأن يوجد معلم متخصص في هذا المجال يكشف مواهبهم ويصقلها لهم. ولا يكتفى بذلك بل توضع للموهوبين والمبدعين خطط منظمة ومقننة يستفيدون منها طوال العام الدراسي.
- الاهتمام بتوفير المواصلات لجميع الطلبة خصوصًا الذين تقع منازلهم بعيدة عن الأندية



الصيفية. لأنها تعتبر حاليًا من العوائق في انتظام الطلاب في الأندية الصيفية. وذلك بأن توضع مناقصة (على سبيل المثال) لنقل الطلاب من قبل إدارات التعليم حتى لو كانت هناك رسوم رمزية يتكفل أولياء الأمور بدفعها.

- تخصيص كل مركز حسب الفئات العمرية ويكون له نشاطه المستقل.

- أن يتم تنويع الأنشطة في الأندية الصيفية إلى: أنشطة ثقافية، أنشطة رياضية، أنشطة اجتماعية، أنشطة كشفية، أنشطة فنية، دورات في التعليم المهني، تعليم حاسب آلي، تعليم اللغة الإنجليزية، وغيرها من الأنشطة.

- الحرص على أن يكون المدرسون متخصصين في مجال كل فن أثناء إقامة الدورات، فيدرس كل معلم في مجاله سواء في الدروس العلمية، أو المسابقات الثقافية، أو التدريب على الحاسب الآلي، أو تعليم اللغة الإنجليزية. مع دعم هذه الدورات بحوافز مادية أو معنوية أو شهادات إجادة ترغب الطلاب فيها وتحببهم فيها.

- دعوة أولياء أمور الطلاب إلى النادي الصيفي ليشاركوا أبناءهم في برنامج يوم كامل. وحبذا لو كرر مثل هذا البرنامج أكثر من مرة.

- أن تتواصل الأندية الصيفية مع وسائل الإعلام من: تلفاز، وإذاعة، وصحافة... للتعريف بالأندية الصيفية والمجالات التي تقدمها، ودعوة هذه الوسائل حتى تساهم في تشجيع وإنجاح هذه الأندية الصيفية حاضرًا ومستقبلاً.

- أن تحرص الأندية الصيفية على التفاعل مع قضايا المجتمع وإيجاد الحلول المناسبة لمشكلاته سواء بإخراج نشرات توجيهية أو مسرحيات اجتماعية أو مسابقات أسرية أو غير ذلك ■

المرشد الطلابي.. وطوق النجاة

عبدالله بن سافر الغامدي - جدة

إذا ما نظرنا إلى قرار وزارة التربية والتعليم المتمثل في إعادة العشرات من المرشدين للعمل معلمين في تخصصاتهم، فإننا نستشف من هذا القرار عدم تفهم صانعيه لجدوى المرشد الطلابي داخل المدارس. ولعل البعض منا لا يدرك ما هو دور المرشد الطلابي في المدرسة، والذي يعد وجوده في مقدمة احتياجات المدرسة الحديثة. فلقد أبرزت نتائج العديد من الدراسات والبحوث التربوية أهمية العمل الذي يتولاه، فهو يعد المحرك الرئيس لإرشاد الطلاب وتوجيههم بمتطلبات ومهارات وتحديات العيش بفاعلية وكفاءة. صحيح أن التوجيه والإرشاد مسؤولية جميع المعلمين، ولكن هل لدى معلمينا الوقت الكافي لمساعدة الطلاب في مشكلاتهم الشخصية؟ ثم من يتولى رعاية الطلاب المحولين منهم، والذين يعجزون عن إصلاحهم؟!

إن المرشد الطلابي يقدم طوق نجاة لأولئك الطلاب الذين يواجهون صعوبات في مشكلات نموهم أو الذين يعانون قصورًا أو إخفاقًا في التحصيل الدراسي. وهو الموجه لقدرات الطلاب وطاقاتهم، والداعم للسمات الإيجابية لديهم، وهو الذي يرسم مع الطلاب حاجاتهم وتطلعاتهم. ويمكنهم من المعرفة المهنية بسوق العمل ومتطلباته وتحدياته، بل يعد المنسق الرئيس بين الأسرة والمدرسة والمجتمع. فهو باختصار ذلك الرجل الذي يركز على تنمية الذات، وتنمية الوعي، وتقويم الفكر، وعلاج السلوك.

لقد كنا (وما زلنا) نتمنى من وزارتنا الموقرة تغذية مدارسنا باحتياجاتها من القوى المؤهلة تأهيلاً علميًا وتطبيقيًا في مجال الإرشاد المدرسي، بدلاً من زيادة العجز القائم، مما يعني حرمان أبنائنا من خدمات المرشدين. كما نرجو إبعاد النظرة الخيالية غير الواقعية عن المرشدين ومخرجاتهم، فهم أعضاء ضمن فريق مدرسي، يشترط فيه التجانس والتعاون والتكامل. وهم كغيرهم يحتاجون إلى الدعم والمساندة، وإزالة المعوقات التي تعترض رسالتهم، حتى نرى ثمرة جهودهم في أبنائنا الطلاب وقد آتت الأكل. ■

في القدس لا تشرق الشمس

قصة: سناء كامل شعلان - الأردن

كم تمنى أن يغرق عينيه في وهجها الأسطوري. كان يتمنى أن يتفرس في قسماتها السماوية، وأن يستلقي أرضًا على ظهره، وينبطح قبالتها تمامًا، ويسلم نفسه إلى دفئها، فتشتمله الشمس كما تشتمل باقي البشر دون الخوف من رصاصة غادرة أو هراوة ظالمة، ودون حصار أو حظر تجول، أو أعين غرباء.. أكثير على المرء أن يتمنى الاستلقاء أمام عين الشمس بسلام وهناء دون خوف؟!

كان يبحث عنها في السماء، ويتمنى لو أن شعاعها يداعب هدبيه الصغيرين، ولو أن أديمها السرمدي يسكن باحتراق في عميق عينيه، ويرسو في بحيرتهما إجلالاً لطفولته المسروقة، وأمنياته المؤجلة.

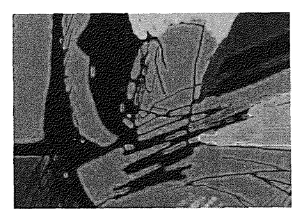
في الأرض، وبالتحديد حوله في مدينة القدس يسكن العدو والحصار والموت الأسود والظل، أما في السماء فكان البحث عن أمنية ضائعة تسمى الشمس. أجال نظرة عجلى في المكان، ومن جديد عاد يبحث عن الشمس بحثًا طويلاً دون فائدة، فقد تلاشت منذ زمن مخلفة الظل الأسود حيث يرتع العدو الذي يسحقهم. تمتم بخيبة توازي آلام طفولته المصلوبة على باب القرن العشرين، وعلى مرأى من الإنسانية، وقال في نفسه: «في القدس لا تشرق الشمس».

صوت اللهاث تطارده الأحذية الجلدية ، ودوي الرصاصات ينزعانه من دنياه الشمسية، ويعيدانه إلى أرض القدس، كان الجنود يطاردون بعض صبية حيه، عرفهم جميعًا، كانوا نوارس صغيرة تطاردها الوحوش، أخذ يهتف معهم: «الله أكبر.. خيبر.. خيبر يا يهود، جيش محمد سوف يعود» وأخذ يرشقهم ببعض الحجارة، وولى مع الصبية نحو البعيد، اختبأ في زقاق مع صديق له من الصف الخامس اسمه أحمد، يكبره بعام، لكنه يعرفه جيدًا، كان يصلي معه الفجر في المسجد الأقصى بحضرة المعلم «رفيق»، ولكن كان ذلك في الماضي، قبل أن يرحل معلمهم الطيب دون عودة، وقبل أن يعلو جدار الفصل، فيغلق الدروب دون المسجد.

كان الحائط اللعين يتمطى بظله، فيغرق القدس في الظلام، ويحجب ضوء الشمس، ويرسل المدينة شطرين حزينين. كان الجدار مرتفعًا لا يعرف الرحمة، تمتص جنباته الأسمنتية الصرخات والاشتياق، وتبتلعها إلى الأبد!

كان «محيي الدين» الباحث عن الشمس الأسطورية أقصر بقليل مما هو عليه الآن عندما بدأ العدو ببناء هذا الجدار العاتي. وسريعًا ما أصبح «محيي الدين» أطول بقليل، ولكن الجدر كان أسرع منه نموًا، وأشد منه فتكًا، فغدا كعقارب يشق السماء، فمنذ أن ربض هذا الوحش الأسمنتي في قلب المدينة حجب الشمس، وأغرق المدينة في الظلام. ومن يومها بات هاجس «محيي الدين» أن يجد الشمس المنتظرة التي رحلت بانكسار أمام الجدار.

كان يريد أن يجدها إكرامًا لآلاف الصور والأفكار الممتدة في ذاكرته الصغيرة المسيجة ببراءتها وبلون الدم، أراد بالتحديد أن يجدها إكرامًا لذكرى معلمه «رفيق» الذي علمه الصلاة، وهو ما يزال في الصف الأول، يومها قال لهم بدفء الإيمان يعلو قسماته السمراء: «يا أبنائي الشمس عادلة تغمر الجميع بنورها، ولا يحجبها ظلم». ثم غابت الشمس، وغاب معها المعلم «رفيق» الذي يسكن القرآن صوته، وعاد بعد أيام مدثرًا بكفن أبيض، أمه والجارات استقبلنه بالزغاريد، وقالوا: «جاء العريس». يومها شق جموع المشيعين، وحدّق في جسد معلمه المسجى بطمأنينة، تفرس في لحيته الرقيقة، وأراد أن يسأله عن



الشمس الغائبة عن القدس، ولكن... الشمس لا تشرق بالقدس!

كان الجري والهروب من زاوية إلى أخرى من العدو الصهيوني مضنيًا في مطاردة تبدو أسطورية، وبلا نهاية أمام جنود لا تعرف الرحمة. كان يلتقط أنفاسه بصعوبة في الزقاق. كان الرفاق يتناوبون على الجهاد، وعلى رشق العدو بالحجارة تارة. كما يتناوبون على الشهادة تارة أخرى! في كل مكان بحث عن الشمس وهو يركض، كانت سنينه العشر اليتيمة تركض معه. ويا للعجب! رأى شمسًا منيرة تمتد لتكتسح البريق الآثم لآليات وسلاح العدو الذي يشهر في وجوه الأطفال والنساء والشيوخ والعُزل، رأى بريقًا يمتد ليضيء المقدسات، ويمحو الجدار، ويضع حدًا لانتظار الأمهات الفلسطينيات إشفاقًا على أهاتهن. رأى شمسًا تمتد كما طائر الفينيق، تشعل نارًا تطهر المكان ولا تبيده، فتغرق المدينة في أسطورة طائر الفينيق الذي يولد في النار ولا يحترق، بل يتجدد ويتجدد! كان في ركضه وهروبه، ثم في إقدامه وإصلاء العدو بحجارته كأنما يفي بنذر مقدس مفاده زيارة أرجاء المدينة الغارقة في حزنها وفي قدسيتها.

في نظرة أحد الجنود الصهاينة رأى اشتهاءً قويًا لدمه، عيناه الزرقاوان الخرزيتان كانتا تلتهمانه بلا رحمة، رآه يقترب منه ومن الأصدقاء، كان جسدًا صغيرًا أعزل أمام دبابة مدرعة، أطلق قدميه للريح المسمم بالغاز المسيل للدموع، ودلف سريعًا إلى الحارة القديمة، كانت روح الإسلام وعمر بن الخطاب وصلاح الدين والوليد بن عبدالملك وسليمان القانوني تسكنها، وذكرى الأصالة تفترعها، ولكن الشوارع المسماة بالعبرية والوجوه الغريبة التي كانت تطالعه من واجهات المحلات ذكرته بلا رحمة بذلك الاحتلال الذي تفشى حتى في أسماء الشوارع، واغتصب المحلات القديمة التي تنتشر على طول السوق القديم المرصوف بالحجارة القديمة.

واجهات محلات التحف الشرقية القديمة سرقت نظره للحظات، الكثير من التحف الخشبية كانت مصنوعة من جذوع أشجار الزيتون، تذكر عمه «رزق» الذي قطع العدو قدميه بكثرة التعذيب في المعتقل، فأمضى حياته يصنع الأقدام الخشبية من أشجار الزيتون، وأقسم أنه سيستخدمها ليذهب سيرًا على الأقدام الخشبية للصلاة في المسجد الأقصى بعد تحريره، ولكنه مات قبل أن يبرّ بقسمه الدامي.

في البعيد القديم لاح بيته في ذاكرته. بيته الذي داهمه المستوطنون الإسرائيليون، وسكنوا الطابق العلوي منه، كم آلمه أنهم احتلوا غرفته وغرفة أخيه «زكي الدين» بالذات، ولكنه حقد عليهم عندما ألقوا بتلك المادة الكاوية على فناء بيتهم، فأحرقت رقبة ابنة أخته الصغيرة، وأهدتها بالإجبار تشويهًا يطوق وجهها الجميل، ولا يفارقه أبدًا، يومها تمنى من كل قلبه أن تصلي الشمس وجوهم بالنار، لعلها تطهرهم من آثامهم، وتشفي قلبه المكلوم، وإن كانت لن تشفي ابنة أخته من حروقها.

الحارة القديمة التي ابتلع المستوطنون اليهود الكثير منها باتت هي الأخرى بلا شمس، ركض «محيي الدين» خارجها، كان مشوقًا إلى الشمس، كانت الأرض تتباعد بين قدميه، البيت بدا بعيدًا، والشمس أبعد، أما الجدار الفاصل فكان في قبالته، توقف للحظات أمامه، كان العدو يقترب منه، قلة من الأصدقاء كانوا في الجوار يساندونه بحجارتهم الصغيرة. تثاءبت سنواته العشر، وتاقت بشوق الطفولة إلى النور، كانت مآذن الأقصى تدعوه بأذانها العذب إلى الاقتراب، وبدا له الجدار الفاصل أحقر من أن يوقفه، وبات العدو بكل جبروته وآلاته وموته أضعف من أن يسحق رغبة طفولته بالاقتراب. خطا خطوة.. اثنتين.. ثلاث.. أربع.. وركل بقدمه الصغيرة جزءًا من الحاجز الحديدي القائم على إحدى بوابات الجدار، وكاد يخطو خطوة خامسة نحو الباب، لكن الرصاصات سارعت إليه من كل صَوب، تماسك، وحاول بجسده المثقل بالجروح والرصاصات أن يكمل خطوته، لكن المزيد من الرصاصات الآثمة سارعت إلى جسده، بسرعة شعاع الشمس جالت روحه في أرجاء القدس، ورفرفت بسعادة في جنبات القبة والمسجد الأقصى.

قدمٌ إسرائيلية ركلت وجهه المسجى على الأرض، فكسرت فكه، لكنه لم يبال، الكثير من دمه تنزى في لحظات، بل رأى يدي معلمه «رفيق» تمتد إليه لقيادته في طريق النور، الشمس كانت تسطع في دنيا «رفيق»، سمع دبيب زغاريد أمه يتمطى في البعيد، أغمض عينيه، وبصعوبة فتحهما من جديد، في السماء لم تكن هناك شمس، كان يعلم أنها مسجونة خلف الجدار العازل. ■

سبورة

هوس «مهارات التفكير»

ماجد الرويثي - المدينة المنورة

تعد «مهارات التفكير» من المفاهيم الحديثة التي أصبحت تحفر في الصخر لكي تثبت وجودها في بلادنا الغالية عن طريق المتخصصين في هذا العلم وغير المتخصصين. فعلى الرغم من أهمية هذا العلم في تنمية جوانب الإبداع عند الموهوبين والمتميزين إلا أنه «للأسف الشديد» ظهر في الآونة الأخيرة ما أستطيع أن أسميه «بالهوس المادي» لهذا المفهوم وغيره من المفاهيم الحديثة كالبرمجة العصبية وغيرها، الأمر الذي أصبح يدفع بكل من هب ودب لكي يصبح فلتة عصره ووحيد زمانه في هذا المجال رغم قصر التجربة وقلة التخصص! فالملاحظ أن كثيرًا ممن يحاضرون في هذه البرامج تقتصر تجربتهم على أخذ دورة أو دورتين في هذا المجال داخل أو خارج المملكة. وهذا في رأيي ليس بكاف لكي يصبح المرء محاضرًا في كل مكان ولجميع المستويات. فلربما صادف هذا المحاضر في إحدى محاضراته من هم أكثر منه تخصصًا ومن هم أبلغ منه علمًا وبحثًا ودراية، ولربما وقع في الحرج الشديد. فهذا العلم كغيره من العلوم يحتاج إلى سنوات طويلة من البحث والدراسة. فالذين سبقونا في هذا العلم لم يعتمدوا على تجارب بسيطة، أو دورات شهرية، بل اعتمدوا على سنوات طويلة من إجراء البحوث والدراسات والتجارب العميقة. وربما يظن البعض أن هذا العلم يعتمد اعتمادًا كليًا على قدرة الشخص على التحدث بطلاقة مغفلين بذلك الجانب المهني والتخصصي لهذا المفهوم. ومن جانب آخر نجد أنه حتى في مراكز تدريب الموهوبين أصبح التركيز على مهارات التفكير وتجاهل كثير من جوانب الإبداع لدى الموهوبين والمبدعين. في الوقت الذي نرى العلم الحديث يركز على الذكاءات المتعددة والتميز ويرفض النظرة السيكومترية في تصنيف الموهوبين والمتميزين والتي تعتمد فقط على درجات عالية من الذكاء.

الردود الخاصة

الإخوة والأخوات:

نجلاء صالح محمد - مصر

خصوصية ملخص دراستكم «أسباب تدني الشباب المصري في التعليم الثانوي العام في محافظة بورسعيد وأساليب مواجهتها» وتركيزه على النسب الرقمية حال بينه وبين إمكانية تعميم التجربة ونشرها.

يوسف إسماعيل - المغرب

«الرحلة على الطريقة المقامية» مبحث فيه شيء من الطرافة والجدّة، لكنه بتفرعه في دقائق جزئيات السفر والترحال في فن المقامة (تحديدًا) خرج عن اهتمامات المجلة.

إيمان عبدالباسط محمد - الإسكندرية

غلب على المشاركات التي وصلتنا من قبلكم الطابع التاريخي السردي دون إشارات أو استنتاجات ثقافية - تربوية يمكن إفادة القارئ من خلالها. يمكنكم الكتابة مجددًا على أساس توجيه موضوعاتكم إلى هذه الإشارات والاستنتاجات، ولكم التقدير.

محمد علي الصويركي - الأردن

تناولكم لشخصية الأديب الكردي «ياشار كمال» جاء مثقلاً بوصف تفاصيل أعماله الروائية على حساب سيرته التعليمية وتجربته الحياتية، الأمر الذي جعله أقرب إلى الدراسات الأدبية المتخصصة.

مجدي محمد عيسى - القاهرة

تعتذر أسرة التحرير عن نشر تعريفكم بكتاب «مفاهيم جديدة لتطوير التعليم في الوطن العربي» الذي مضى على إصداره أكثر من أربعة أعوام، لكون المجلة معنية بتعريفات الكتب التربوية - الثقافية الحديثة فقط.



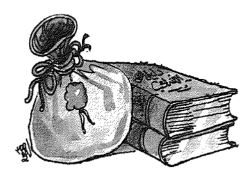
الصحراء العربية :

«التطعيس» أشعرني
بأن لا قيمة لي عند أحفادي!!



فالح العجمي

ثقافة الصحراء . .
ما زالت عصية على الفهم!



الإشراف التربوي

لغز «ابن عجلان»

حياة كل واحد منا جملة من النجاحات والإخفاقات . .
وأجمل شيء أن يترك الواحد منا الحديث عن نفسه، ويدع الآخرين يتحدثون عن إنجازاته ونجاحاته.
حسنا . . وعماذا هو يتحدث إذًا، عن إخفاقاته؟ ربما!
الفشل ليس عيبًا، فهو وقود الانتصارات . .
«المعرفة» تريد من هذا الباب أن تقول للشباب من الجيل الجديد إنه ليس هناك إنسان لم يذق طعم الفشل في حياته، نريد أن نقول لهم إن الجيل الذي سبقهم هو جيل إنساني يخطئ ويصيب . . ينجح ويفشل. ثم ينجح مع الإصرار.
ف: فرصة تمنحك إياها - المعرفة - لتسجيل اعترافاتك.
ش: شهادة.
ل: ليس عيبا أن تفشل . . ولكن العيب أن تزعم أنك لم تفشل في حياتك!
وضيف هذا العدد هو: الصحراء العربية.



الصحراء العربية :

أقترح على الأسر المبتلاة بشباب «الزبدة» أن يأتوا بهم إلى دورات «صحراوية»

- أعترف أنني فشلت في أن يقر الإنسان العربي بفضلي عليهم وأنني كنت الرحم الأول الذي احتضن بداياتهم وآمالهم وعبثهم الفوضوي فكنت لهم مسرحا مفتوحًا جرت عليه تجاربهم الأولى بأخطائها، والمدرسة الأولى التي علمتهم الصفات القوية المقاومة لمرور الزمن و أيضًا أحاسيس الشعر الجياشة، فهاهم ينكرون علي . كثير منهم . ذلك بالتغنج والميوعة في تعاملاتهم ولغتهم وبالزيارات المتقطعة للفرجة علي فقط وفي نهاية كل زيارة يتركون «زبائلهم» ونفاياتهم لقمة للريح ويولون الأدبار.

- «التطعيس» أشعرني بأن لا قيمة لي عند



- «التطعيس» أيضًا أشعرني بأن لا قيمة لي عند أحفادي!!

- «الضب» الرمز غير الرسمي لأبناء الصحاري حيوان يجب احترام صيده فمن خلق الضب خلق الغزلان والظبي وعرض أكتاف أجداد العرب من لحمه!

- «عاصفة الصحراء» ربط سياسي وتاريخي يشوه سمعتي التي حافظت عليها من أنجاس السياسة وأطماعها!!

- العلاج الأنجع هو في الطب البديل من أوراق أشجاري وجذور نبتاتي وأعشابي .

- جمعية «حقوق الرجل» التي لا تزال غير موجودة في بلادي وإن كانت دواعي وبوادر إنشائها بدأت تكبر .

- أخرجت أغلب «البترول» وأكثر «السيليكون» و«الغاز الطبيعي» في هذا العالم وأستطيع أن أخرج الإنسان الذي يحترم كلامه ولاينكث عهوده ويتقيد بأخلاق الفروسية ونبلها .



أحفادي، فهو لمجرد التضاحك واستعراض القوى النفسية الشبابية المتهورة وليس لاستكشاف مكنوزاتي الطبيعية. وفشلت حتى الآن في أن أقنع رجال الأعمال بأن هناك مشاريع خلاقة يمكن الربح منها تحتضنها أرضي وتخدم المجتمع وتنظم ألعابه ومسلياته وتقدم مادة علمية تثقيفية بدل «مشاريح» مقاهي «الشيشة» الملوثة للبيئة والصدور والمدعاة لـ«لهو الحديث».

- عجزت بكل ماأملك من صفاء الذهن ونقاء الأجواء أن ألفت أنظار الناس إلى أن «الضب» ذلك الرمزغير الرسمي لأبناء الصحاري حيوان يجب احترام صيده والحد من الحملات المهووسة بإفنائه أمام مرأى من هيئات الحماية الفطرية وإنمائها. فمن خلق الضب خلق الغزلان والظبى ومن خلق عشاق الضب خلق عشاق الغزلان والظبى فلا فرق بينهما، هذا الحيوان الذي كان عرض أكتاف أجداد العرب من لحمه !

- كنت سأقاضي «بوش» وحكومته في هيئة الأمم المتحدة حين أسمى حربه على العراق: بعاصفة الصحراء فذلك ربط سياسي وتاريخي باسمي يشوه سمعتي التي حافظت عليها من أنجاس السياسة

وأطماعها وقاذوراتها. لولا أنني عرفت أن كوفي عنان لا يرد أمرًا عند بوش فأقلعت عن هذه القضية ودفنتها في صدري مع ماتدفنه الدول الكبرى فيه من النفايات النووية والكيميائية بموافقة دول صغيرة باعت نفسها وصحتها للدولار.

- حاولت بكل ماأملك من أدلة دامغة أن أقنع الإنسان الذي منحه الله العقل بأن شركات الأدوية إنما هي مناشير للتربح على حساب صحة الإنسان تتاجر بها وتتلاعب بها من خلال إعلانات براقة لماعة خادعة تلتهم الملايين وأن العلاج الأنجع هو في الطب البديل من أوراق أشجاري وجذور نباتي وأعشابي، فتلك الشركات الطبية إنما هي زبائن لي ولكنها بائعات تمتهن النصب للناس بعد أن تزور بضاعتي وتغشها بالكيمياء التي تهلك البدن والنفس إن لم يكن في الأمد القريب ففي الأمد الطويل.

- كنت سأقترح لبعض الأسر المبتلاة بشباب «الزبدة» الذين يتمايلون كنسمة ويتغنجون كفيديو كليب أن يأخذوا أبناءهم في دورات صحراوية - كأن يضعوهم أمانة عند بدو شداد رحل- تشد من عضدهم وتقوي عظمهم وتقوم ألسنتهم التي أصبحت تتمطى كلعوب في الكوفي شوب وحتى في الشوارع العامة، ليس إكرامًا لهذه الأسر ولكن لأن في هذا العالم عددًا كبيرًا من النساء يكفي لتدميره، أقول كنت سأقترح ذلك إلا أنني لا أعرف الجهة التي يمكن أن تتبنى هذا الاقتراح غير جمعية «حقوق الرجل» التي لا تزال غير موجودة في بلادي وإن كانت دواعي وبوادر إنشائها بدأت تكبر.

- لم أعرف حتى الآن ماالمغزى من مصطلح «ثقافة الصحراء» الذي ابتدعه البعض فإن كان انتقادًا لذكورية هذه الثقافة فذلك أمر مختلف عليه لم تثبت خطيئته أو تثبت صحته فهو معلق لم نخلص منه ولن نتجاوزه بسرعة وبالتالي لم يحسم، وإن كان وصفًا فأنعم به من وصف ذلك أن لي؛ أنا الصحراء؛



ثقافتي اللغوية والاجتماعية الصلبة التي أنتجت عنترة بن شداد والشنفرى وامرؤ القيس والزير سالم والخنساء النادرة ومحسن الهزاني وحميدان الشويعر ومن على شاكلتهم البليغة الذين لم تمحهم من الذاكرة العربية أبهة ملايين المدن أوإغواءات الحداثة الشعرية.

- فشلت أن أؤكد أن الأشياء تعود إلى أصولها في الصحراء: الطعم واللون والحواس الخمس كلها؛ حتى الرياضة أجمل ماتكون في الهواء الطلق المتجدد بعيدًا عن ملوثات المدينة وصخبها المضر بصحة الجسم والنفس، وفشلت في أن أجد جوابًا على سؤالي القديم لماذا لا توجد أندية صحية ومصحات ترويحية في الصحراء حيث يتحقق الشرط الصحي لمثل هذه المنشآت؟ ولماذا لا يمارس الناس رياضاتهم المختلفة في الصحراء؟

- وأخيرًا فشل كل الناس أن يفهموا أنني مثل ماأخرجت أغلب «البترول» وأكثر «السيليكون» و«الغاز الطبيعي» في هذا العالم أستطيع أن أخرج الإنسان الذي يحترم كلامه ولاينكث عهوده ويتقيد بأخلاق الفروسية ونبلها ويحتزم بلغة لا تعرف المراوغة والمبالغة والتزلف.

الحياة جملة من الأحداث والمواقف..
ومع كل حدث هناك وجهة نظر..
وملامح الشخصية تحددها وجهات النظر..
و«المعرفة» تريد من هذا الباب أن تقول: إن اختلاف وجهات النظر طبيعة إنسانية ينبغي ألا تفسد للود قضية كما نردد دوماً.
وإذا كان تضاد وجهات النظر نقمة، فإن تنوعها نعمة يجب أن نحسن تناولها.
ضيفنا العزيز: د. فالح العجمي/ رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب- جامعة الملك سعود يقدم لنا شيئاً من وجهة نظره فيما يلي:



فالح العجمي

الصحراء علمت أهلها أن يكونوا ذئابًا حتى لا تأكلهم الذئاب؟!

- الصحراء... سياحة الباحثين عن المغامرة الباحثين عن التأمل والخلوة.

(بل هي سياحة المتطرفين الذين يرون في إعدام الكائنات الأخرى من نبات وحيوان متعة، وفي الخلوة تثبيت لعقيدة التميز ووحدانية الصحراويين بين البشر).

- الصحراء... أنثى فاتنة.

(عندما يكون المرء قادمًا من الغابة السوداء).

- الصحراء... إيحاء وطقس إبداعي فريد.

(من توحي له الصحراء فهو من الأوابد، ومن يبدع في طقوس صحراوية فهو فريد زمانه).

- الصحراء... جريمة وتهريب وقطع طريق.

(الصحراء ليست بالتأكيد كذلك، أما أصحابها فقد يكونون إذا أقفرت مصادرها، وجاءهم الوحي الذي تسأل عنه).

- الصحراء... حرية وتحرر وخروج عن التقليد.

(صفاء ينبع من التصاق ابن الصحراء بكل مصادر الطبيعة الخطرة، وصراحة تنبع من



مساكين الضب والجربوع ، كل التحليلات العلمية تتناسى دورهما في وعي السعوديين واقتصادهم!

ثقافة الصحراء . . ما زالت عصية على الفهم!

الصحراء هي سياحة المتطرفين الذين يرون في إعدام الكائنات الأخرى من نبات وحيوان متعة!

مكاشفة تامة بين المتصحر والصحراء. أما الصاد الثالثة فصدى لروح العزلة عن تقاليد المدينة – وليس التقليد – التي ربما لم تعد موجودة في ظل وجود الجوال والجي إس بي في كل ركن من صحرائنا المزيفة).

- «الرامتين» موقع فاتن في قلب نجد.. هام به طه حسين حبًا لما قرأ عنه في الشعر العربي القديم؛ بينما لا يعرفه كثير من السعوديين.

(لو رآه السعوديون لشبهوه بنهد امرأة، أو أطلقوا عليه اسمًا قبيحًا).

- «مدرسة الصحراء».. تعليم أفضل من التعليم النظامي.

(يتوقف على مكان التعليم النظامي).

- صحراء الجزيرة العربية موت ظاهر.. وحياة تحت الرمال.

(بل إنقاذ لحياة طوتها العصور، لو لم تبق عليها سوائل الرفات).

- صحراء الجزيرة العربية صحراء مجنونة... زمهرير في النهار صقيع في الليل (في يوم واحد).

(وليس هذا هو كل جنونها. هل يتوقع غير العارفين ظهور الأشباح فيها التي تهرب من قسوة المدينة وتطرفها؟).

- صحراء الربع الخالي سوف تمد منطقة نجران بالمياه العذبة في القريب العاجل. (خبر صحفي)

(هي كنوز لو يعلم القوم. ويصغي أصحاب القرار والرأي إلى التحليلات العلمية والتوقعات بشأنها ليس بشأن المياه العذبة فقط، بل لكشف التاريخ القديم، وجذب السياحة الفعلية ورفع اسم هذه البقعة من العالم عاليًا).

- في صحراء الربع الخالي أكبر منجم لأفضل أنواع السيليكون في العالم. (عنوان صحفي)

(لا يشك في ذلك أحد، لكن الأصح بحر وليس منجمًا).

- في مكان ما من صحراء الربع الخالي وتحت أحد كثبانه تقبع.. إرم ذات العماد!!

(وإرمات أخرى).

- «في الصحراء العربية وجدت معنى لحياتي... رغم أنني ابن عاصمة الضباب». (لورنس العرب)

(الله لا يلومه ! وجد لدى أبناء الصحراء الحافين ما لم يجد عند أبناء عاصمة الضباب).

- الصحراء العربية كانت أكبر مسرح لأجمل قصص الحب العذري في العالم.

(إن صح منها شيء، أوابد وأفاقون، والأنثى تشبه القمر، وليل الصحراء طويل).

- «رغم أنني ابن المدينة والحاضرة الحجازية إلا أنني عشت فترة من حياتي في الصحراء فتعلّمت هناك صفة المكر!». (طلال مداح في مقابلة مع التلفزيون المصري في الثمانينيات).

(الآن عرفنا السر وراء تشديده على القاف، ليبعد الأذن عن التقاط لثغة الراء).

- بعد نضوب النفط ليس للسعوديين سوى



الجوال والجي إس بي . . أفسدا صحراءنا!

لورنس العرب وجد لدى أبناء الصحراء الحافين ما لم يجد عند أبناء عاصمة الضباب!



فالح العجمي

استراتيجية النخلة والبعير. (عنوان صحفي)

(مساكين الضب والجربوع، كل التحليلات العلمية تتناسى دورهما في وعي السعوديين واقتصادهم؛ والدليل تحليلات سوق الأسهم خلال الأزمة المنصرمة!).

- نخرج إلى الصحراء للنزهة... ومع ذلك يرعبنا التصحّر.

(إلا إذا خرجنا يمينا كثيرًا أو يسارًا كثيرًا شمال الرياض، أو كنا في صحراء أوكلاهوما).

- السعودي أقسى زوج في العالم وهو الأبرد عاطفة والأقل تدليلاً لزوجته... للصحراء دور في ذلك.

(بالتأكيد، ولكن لها (الضمير يعود إلى الجماد) أيضًا دور في صقل عاطفة اللائي بالدار وعقولهن. الحال من بعضه؛ يرجع الباحث إلى نكتة رقم... في جوالات قلة من السعوديين، لاتتجاوز المليون عن المقارنة مع الفينيقيات).

- أتوق إلى الزواج من إحدى فتيات الصحراء البدويات... (مستشرق غربي)

(ما كل ما يلمع ذهب ! لو تمد الرحلة فقط ٢٥٠٠كم باتجاه الشرق، لكان توقك ذوقًا).

- «أيها الشباب الجاهل.. لو تعلمون ما منحتنا الصحراء لتقاتلتم علينا» (فتاة بدوية).

(قاله ابن عجلان أيضًا وسميرة توفيق، وهو ما تعد به الفنانة صباح في شبابها الحالي).

- بدو الجزيرة العربية.. مخلوقات صحراوية انقرضت بمجرد اكتشاف نفط الصحراء.

(الانقراض طيب: لكن تماهي بعض الحواضر مع طبيعة تلك المخلوقات خلق الأخرى البقراوية).

- بدو الجزيرة العربية... عائدون إلى الصحراء ومهنة الرعي، من مبدأ صنعة أبوك لا يغلبوك، مع تنامي ظاهرة البطالة في المدن.

(وهل أحسن الغراب مشيته الأولى بعد أن حاول تقليد مشية الحمامة ؟).

- بدو الجزيرة العربية... مأمورون شرعًا بالتحضّر خصوصا في هذا العصر.

(مصطلح التحضر سمعته قبل كذا. لكن وين وين وين؟)

- بدو الجزيرة العربية... اشتروا الجهل بالعلم، والفقر بالغنى، والتعب بالراحة، والاستقرار بنصب الترحال.

(هل صدر هذا القول عن تشرشل أو ابن خلدون، أم قرأته في معلقة النابغة الذبياني (دون ياء)؟

- بدو الجزيرة العربية... نزحوا إلى المدينة مصطحبين ثقافة الصحراء.

(العكس هو الصحيح : يرجع إلى كتاب ريز خان أو معسكرات النخب في غير جدة).

- بدو الجزيرة العربية... يمارسون البداوة بآخر صيحات التقنية في العالم (سيارات الجيب- تلفزيونات وقنوات فضائية- هواتف وحواسيب نقالة-أجهزة تحديد مواقع ترتبط بالأقمار

الصحراء .. صفاء ينبع من التصاق ابن الصحراء بكل مصادر الطبيعة الخطرة .. وصراحة تنبع من مكاشفة تامة بين المتصحر والصحراء .. وصدى لروح العزلة عن تقاليد المدينة!

الصناعية...).

(ذكرني تكفى بموضوع التعبير اللي كتبناه بعد عطلة الربيع !).

- ثقافة الصحراء.... كتاب نقدي للدكتور(سعد البازعي) لفت النظر في المنطقة العربية إلى وجود ثقافة مغايرة ومسايرة في الوقت نفسه للسائد في العالم العربي.

(وحتى لو كان الدكتور سعد البازعي صديقًا عزيزًا، إلا أن هذه الثقافة ما زالت عصية على الفهم ؛ في نهاية هذا القرن – فيما أظن –



سيكتشفنا الصينيون بعد أن يطوعوا صعوبات علوم الإدراك بقدرتهم الفائقة في الرياضيات. نتلاقى في ذلك الوقت، ونبدأ الحديث).

- ثقافة الصحراء... «مع أنها - في موروثها وعمقها - فيها خصال رائعة من الجَلَد وقوة التحمل، إلى الشهامة والكرم والنجدة، إلا أن فيها خصالاً منبوذة كالظلم وغريزة النهب وعدم الاهتمام بالمصلحة العامة» (عبدالله الجعيثن).

(صح لسانك! رسالة تحت الماء للدكتور سعد البازعي).

- ثقافة الصحراء... قد تُغطي ثقافة الصحراء في ظواهرنا قشورٌ من حضارة، ولكنها لا تزال قابعة في أعماقنا، كامنة في تصرفاتنا.

(غثيتنا يا أخي تسمي المدنية حضارة، ترى يصدقونك. وتصبح الخصوصية في تملك زمام الحضارة أكبر مشكلة على البسيطة).

- طبيعة الصحراء... علمت أهلها في أغلب الأحوال أن يكونوا ذئابًا حتى لا تأكلهم الذئاب.

(يا ليت ابن جعيثن قال هذه المقولة في أبيات نبطية يائية، حتى أمد معها الصوت. وأقول مد البساط!).

- فلسفة الصحراء... هي فلسفة (القوة) بذاتها قبل أن يُنَظِّر الفيلسوف (نيتنشه) لفلسفة القوة.

(لو سمحت: هي أولاً فلفسة وليست فلسفة، لأن الأخيرة أظنها فلوس. ثانيًا ويش ها النيتنشة اللي صجيتنا به، هذا يذكرنا بالانجلينزي. أما نيتشه اللي أظني أعرفه، فهو يتكلم عن عمرو خالد وعبدالرحيم شعبان) وسلامتكم!

فالح العجمي

الاشتراك في المجموعة كاملة لمدة سنتين بقيمة 1100sr



لمزيد من المعلومات الرجاء الاتصال على

روناء للإعلان والتسويق - الرياض

هاتف ٤١٩٧٣٣٣ تحويلة ٢٥٩ - ٢٦٠ فاكس ٤١٩٧٦٩٦

أحيانا المشاعر الكبيرة لا تحتاج إلا إلى عبارات صغيرة، كما أن بعض الأفكار الكثيرة تحتاج إلى كلمات قليلة للتعبير عنها.
هذه هي لغة السر في سر اللغة!
«ثرثرة» ..لا يقصد بها دوماً كثرة الكلام، بل قد تعني الكلام الذي يُلقى على عواهنه.. بكل بساطة.
هكذا «ثرثرة» هنا، كلام يلقى على عواهنه.. فخذوه أنتم أيضا على عواهنه.. بكل رحابة صدر.



«أسماء يا أستاذ.. أسماء»

صلاح عبدالستار الشهاوي- طنطا

«الست المديرة تريدك في مكتبها حالاً». تركت القلم يرتاح بعض الوقت على الأوراق التي تئن تحت صريره (فهم يقولون إنني أكتب بسرعة وعصبية) وأسرعت متجهًا إلى مكتب «الست المديرة»، ولكن خاطرًا انتابني وأوقفني أمام الباب في حيرة من أمري. فمرة أخرى أنسى اسمها وعلمي بها أنها دائمًا تعتد وتشمخ باسمها مقرونًا بـ«مدام». ولم تدم حيرتي طويلاً حيث فتحت الباب بعدما تذكرت اسمها قائلاً لها: «صباح الخير يا مدام هناء». فما كان منها إلا أن هبت واقفة تقول: «أسماء يا أستاذ.. أسماء».

انتزاع

لم ألاحظ لكثرة انشغالي اهتمامها المبالغ فيه بقلم الحبر الخاص بي عندما أجلس للكتابة، وأنها تكرر الحديث عن الدراسة التي سوف تستأنف بعد أيام وأنها تعد الأيام تنازليًا. الأمر الذي رسخ في ذهني أكثر وحرك عندي قوة الملاحظة بهذا الاهتمام بالدراسة. وعند عودتها من اليوم الدراسي الأول ألقت حقيبتها بجواري ورمت بنفسها في حضني وطوقت عنقي بذراعيها الصغيرتين، وأخذت تمطر وجنتي بقبلاتها الناعمة، ثم مدت يدها إلى جيب سترتي لتنتزع منها قلم الحبر قائلة: «ألا أستحق منك إهدائي هذا القلم لأكتب به مثلك.. يا بابا؟».

المخلص

ثلاث ندبات بالوجه وقطع بجيب القميص وقبضة أصابع تؤلم بالجهة اليسرى من القفص الصدري مع ألم بمفصل الحوض نتيجة الارتطام بالأرض، هي محصلة معركة دارت رحاها بين الأصدقاء، وكنت أنا المخلص الذي حاول أن يحول بين كل فريق وضربات الآخر، وللأسف الشديد كنت الوحيد الذي يتلقى هذه الضربات، وحين وصلت البيت ورأتني زوجتي بهذا الشكل قامت من فورها إلى درج المكتب وقالت وهي تناولني إبرة الخياطة عليك أولاً إصلاح جيب القميص.

صديقتها

كل لقاء تحدثني عن صديقتها وما بها من مميزات، وأحاول جاهدًا أن أصرفها للحديث عن نفسها إلا أنها تأبى. وما زلت أصرف وجهي عن أخبار صديقتها وهي تأبى إلا أن تسرد عليّ فضائلها وفتوحاتها وعبقريتها. ويومًا بعد آخر أصبح للحديث عن صديقتها وقع في أذني وأصبحت أطرب

لأخبارها. وأتشوق لرؤيتها. وحين رأيتها وجدت وصفها لصديقتها حقًا فهي لم تبالغ في شيء فيما يخص صديقتها، إلا أنهما اتفقتا في شيء واحد هي وصديقتها. دائمتا التحدث بنفس الحماس عن شخص واحد، فصديقتها لا تكف عن الحديث أيضًا عن نفسها!

لزقة

شيء فاق الحد. فمنذ عام وأنا أستجدي عداءه، وأصارحه دائمًا بأني لا أرحب به كصديق لصفاته الشخصية الغريبة. لكنه في كل مرة يضع يده على كتفي ويهزني بعنف قائلاً: «مش هتبطل هزارك التقيل ده».

فاطمة

خرج الاسم من الشفاه دون وعي بترديده ثانية- فاطمة- ما زلت أردد الاسم للمرة الثالثة ونظراتي تتلاحق إيقاعاتها على سعال داخلي يكاد يهزني اهتزازًا لا إراديًا. أحمل النظارة بالاعتناء والحرص المعهودين خشية أن يصيبها مكروه. أنظفها بقطعة القماش الناعمة التي أحملها في الجراب.

فاطمة.. أجوب «الطرقة» بخطوات مبعثرة تائهة، وبين الحين والحين أقف أمام باب غرفتها أسترق السمع لعلي أسمع صراخًا جميلاً يبعث الاطمئنان في قلبي! أخيرًا تحرك مقبض الباب وخرجت المرأة البدينة كاشفة عن ذراعيها وعلى وجهها ابتسامة كبيرة محدثة إياي: «مبروك بنت زي القمر» رددت على الفور «الحمد لله.. فاطمة.. فاطمة».

ثلاث محطات قبل الوصول

«اليوم عندك ذلها وحديثها

وغدًا لغيرك كفّها والمعصم»

قبل السفر: وقفت أمسح دموعها بإبهامي وأنظر مليًا في عينيها، كانت تقول لي أشياء عن ألم الفراق وكنت مشغولاً بدمعها أكفكفه بإبهامي داخل منديلي. عند قيام القطار وضعت المنديل داخل جيب قميصي بجوار القلب.

أثناء الغياب: كانت خطاباتها أول الأمر تصلني لتشعل النار التي خبت في البعد وتستعجل الوقت والمال، ثم فترت خطاباتها، ثم جاءت خطابات شقيقها تتهدد وتتوعد، ثم جاءت خطابات أخرى تشرح وتفند ولكن لم أقتنع!

محطة الوصول: لم تسكن العين على الرغم من أن الأيدي تهاوت للتسليم وحمل الحقائب والأذرع للأحضان والأفواه للقبلات. تأبط أخي ذراعي وأرغمني على مواصلة السير إلى بيتنا، وأخرج من جيبه «دبلة» أعرفها.. وضعها في كفي وأطبق عليها.. فسكنت العين وغمض الجفن! ■

الإشراف التربوي

لغز «ابن عجلان»

حصة الجربوع - رفحاء

لم يكن يدور في خلدنا نحن المتدربات (مساعدات مكاتب الإشراف) أن للإشراف التربوي وجوهًا أخرى غير تلك التي ألفناها وألفتنا خلال السنوات الماضية. إلى أن التحقنا ببرنامج الإشراف الفعال الذي نظم بمركز التدريب بالدمام.

لقد كان التدريب حدثًا بارزًا وجديدًا للأغلبية منا، ونحن اللاتي هجرن مقاعد الدراسة منذ مدد متفاوتة لا تقل في المتوسط عن سبع سنوات! لذا حاولنا التمشي مع البرنامج وكأننا لا نزال في بدايات التخرج بلا أدنى خبرة.

لقد رأت مجموعة منا أنه لا يمكن التسليم بما جاء في البرنامج باعتباره حلمًا قد يتحقق يوماً ولكن ليس على أيديهن في ظل ما تراه من تداخل في مهام الإشـراف التربوي وطغيان الجانب الإداري على العمل الفني. في حين رأى البعض الآخر أن التدريب ضرورة ملحة، وأن التدريب بعد التطبيق أكثر إلحاحًا لكن البرنامج عجز عن الوفاء بمطالبها، حيث دعا كثير من المشرفات إلى إصدار التعاميم التي تدعم تطبيق كل ما مر في البرنامج (وكان المدرب يعي ذلك ويتهرب منه بذكاء).

انتهى البرنامج وظل السؤال الذي غص في حلوقنا: هل نستطيع تطبيق كل ما تعلمناه في البرنامج ومواجهة عواقب ذلك؟

في تصوري أن الإجابة عن هذا السؤال هي التي تضع البرامج التدريبية الحالية والمستقبلية على المحك.. فإذا سلمنا بأن التدريب مهم بل ومهم جدًا فإن تطبيق ما تم التدريب عليه لا يقل أهمية. وذلك أمر يشغل بال المدربين والمتدربين. وإلا ما الفائدة من التوسع في التدريب إذا كان المتدرب يتعلم شيئًا، ثم بعد التدريب عليه أن يطبق في عمله شيئًا آخر مضادًا له في الاتجاه؟!

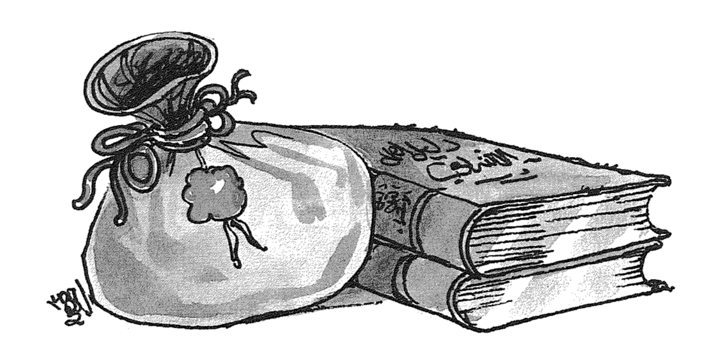
على أن ذلك لم يقف عقبة أمام البعض الذين يحاولون إيجاد الثغرات والمسوغات التي تجعلهم في حل أمام الرقابة في حال طبقوا البرامج التدريبية التي تعلموها.

الرقابة التي ترى أن المشرف (أو المشرفة) عليه أن يلتزم بالتوجيهات والتعليمات مهما كانت ما لم يأت ما ينسخها بتعميم.

وحال التدريب بهذا الشكل يذكرني بلغز «ابن عجلان» لـ«وضحاء» حينما أعطاها كيسًا من المال واشترط عليها أن تنفق منه وهو «مسكّر» ومختوم!

فالتدريب بلاشك كنز، ولكنه بالتأكيد ليس لغزًا يحتم على المتدربة أو المتدرب أن يستنزف الوقت والجهد ليوجد الثغرات والمسوغات حتى يطبق ما تدرب عليه.

لقد كان التدريب بحق فرصة رائعة للتعلم عن استراتيجيات الإشراف وطرق التفكير، كما كان فرصة للالتقاء بالقيادات من مختلف المناطق. ولكون الفئة المستهدفة بالتدريب هي «مساعدات مراكز ومكاتب الإشراف التربوي»، حيث تشابهت



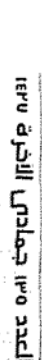
الهموم والصعوبات ووجدتني وأنا القادمة من مدن الصحراء ألتقي زميلاتي في مدن الساحل لنتحدث ونتناقش في هموم مشتركة تواجه طبيعة عملنا. فلقد اتفقنا دون تخطيط أو بنود مكتوبة على أن الإشراف التربوي ظل بمعزل عن التوصيف الحقيقي، حيث مارس الدور الرقابي أكثر من الدور الفني المهني! وظلت التعاميم واللوائح تكبل المشرفات التربويات وتحد من حماسهن. وبمرور الوقت ألزمت هذه التعاميم واللوائح المشرفات التربويات الكراسي أو ساهمت في تسربهن من الإشراف التربوي!

لقد أجمعت الأخوات على أن الإشراف التربوي بشكله ومضمونه الحالي لا يؤمن الرضا الوظيفي للمشرفات وخاصة المتميزات اللاتي تعودن العمل الجاد والمثمر. على أن أخطر ما يواجهه الإشراف التربوي في نظرنا هو إجبار المشرفات التربويات على البقاء في الإشراف التربوي دون رغبتهن!

لذا رأى بعضنا أن التدوير في وظائف المشرفات التربويات مهم جدًا فمعه تتجدد الدماء والطاقات، ويضاف للإشراف التربوي طاقات جديدة قادرة على الإبداع والتميز.

ومما تعلمنا في البرنامج أن السيرة الذاتية للشخص الناجح لابد أن تتغير على الأقل مرة كل عام بإضافة إنجاز. ولو طبقنا ذلك على الإشراف التربوي بمجمله، وقلنا ماذا تتضمن السيرة الذاتية للإشراف التربوي بالمملكة؟ كم كتابًا في التربية والاستراتيجيات (وليس الإحصاء) تولى الإشراف التربوي طباعته؟ كم عدد المشرفات التربويات التي تم إيفادهن للحصول على الماجستير والدكتوراه؟ كم مرة تم تجديد دليل العمل في الإشراف التربوي منذ تأليفه ١٤١٩هـ؟ كم دورة تدريبية نفذها الإشراف التربوي للمشرفات التربويات ولمديرات المراكز والمكاتب على أيدي الخبيرات والمختصات، وليس على أيدي بعضهن بعضًا؟ كم بحثًا إجرائيًا واستطلاع رأي تم للمشرفات التربويات يخص طبيعة عمل المشرفة الفني؟

لقد بات من الضروري أن تتحسن السيرة الذاتية للإشراف التربوي كيما تتحسن السيرة الذاتية للمشرفات التربويات والقيادات التربوية. ■



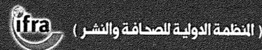
بكفاءات محلية متميزة ... وتقنيات عالمية هي الأحدث ..

اليوم

تفوز بجائزة

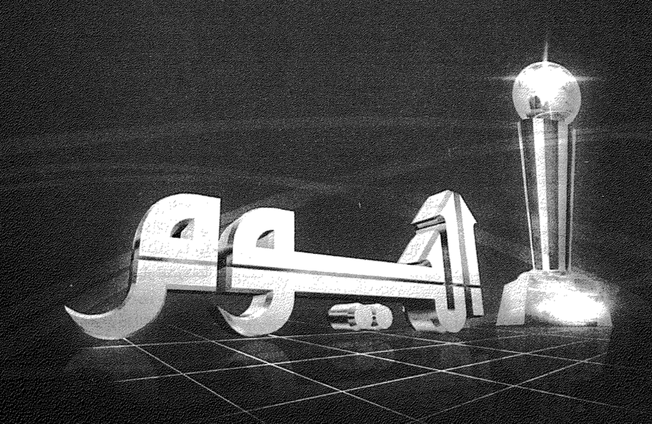
أفضل طباعة في آسيا

والمنوحة من



تأكيداً لالتزام دار اليوم بأعلى معايير الجودة

التي تحقق إيصال الرسالة الإعلامية والإعلانية بتميز



لاوقت «للتصحر»!

وداعًا أيتها «المعرفة»



زياد الدريس*
ziadd101@hotmail.com



في ١٤١٧/١/١هـ أصبحت مسؤولاً عن تحرير مجلة المعرفة.

وبعد ستة أشهر (١٤١٧/٧/١هـ) صدر العدد الأول من «المعرفة» (بعد توقف ٣٤ عامًا!).

وفي ١٤٢٧/٥/٧هـ أغادر مجلة المعرفة بعد عشر سنوات من «العشرة» التي لا تنسى، أغادرها إلى مكان آخر، وتغادرني إلى رجل آخر!

لن أفتعل الحزن.. لكني أيضًا لن أفتعل اللامبالاة، فقد كدت أبكي عندما صدرت ورقة (طلاقي) من المعرفة، ليس تشبثًا بها فأنا الذي كنت ألحّ على معالي الوزير أن يعفيني من الاستمرار فيها بعد أن شُغلت بعيدًا عنها. واسألوا الوزير!!

لكني لم أكن أعلم أني أعشقها، وأني أنجبت منها ١٢٠ مولودًا، منهم الجميل ومنهم دون ذلك!

كنت أتساءل لماذا كانت زوجتي العزيزة تغار من مكوثي في «المعرفة» وقتًا طويلاً، واهتمامي بها كثيرًا، وحديثي عنها مساءً، واتصالي بها في السفر وفي الإجازات وفي الأعياد؟.. الآن تفهمت مشاعرها بعد أن تفحصت مشاعري!

أغادر «المعرفة» وأنا أتذكر بكل الوفاء أساتذتي وزملائي الذين عملت معهم وعملوا معي طوال السنوات العشر. أشكرهم على إحسانهم.. وأستسمحهم عن سيئاتي.

أشكر (فريق المعرفة) فردًا فردًا.. سلطان المهنا، خالد الباتلي، فاطمة العتيبي، عبدالوهاب المكينزي، ينال إسحق، بندر الرشود، عبدالعزيز العتيق، جمعان الدوسري، نديم حافظ، سروار صديق، كما لا أنسى شكر بعض الذين مروا على «المعرفة» يومًا ما وأعطوها (وبودي أن أشكرهم كلهم لولا ضيق المساحة): وليد الطويرقي، سلطان باهبري، محمد العمر، مجدي عبدالحميد، عبدالله الحسني، محمد اليامي، رجاء العتيبي، محمد السعيد، أحمد الخلف، محمد الجهني، إبراهيم مضواح، حامد الحويماني، حمد الحوشان، سعيد العمودي، عمار بكار، أحمد اللهيب، خالد الحسينان.

وأشكر زوجتي إذ سمحت لي بأن أعشق «أخرى» سواها!

وأدين بفضل خاص. بعد فضل الله. إلى معالي الدكتور محمد الرشيد الذي جاء بي إلى «المعرفة»، وإلى معالي الدكتور عبدالله العبيد الذي أخرجني منها قبل أن أموت فيها أو تموت بين يدي!

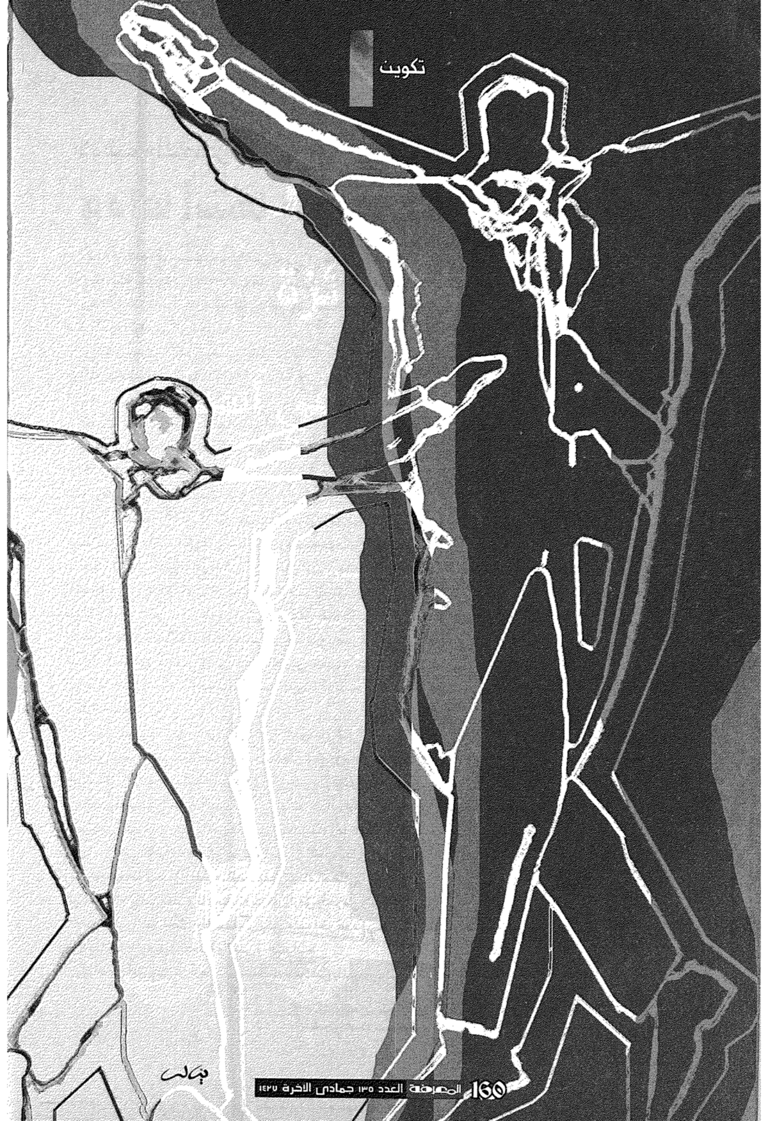
وأتمنى لرئيسها الجديد الصديق د. عبدالعزيز الجار الله كل التوفيق وكل النجاح، وأقول له ـ وتخنقني العبرة ـ: رفقًا بالمعرفة، فهي ليست مشروعًا سياسيًا ولا إيديولوجياً ولا تجاريًا، ولا محلياً، بل هي مشروع «معرفي» عربي، آمل أن تتحقق على يديك المنى التي كنت أحلم بها في (مشروع المعرفة الشامل: المجلة ـ الصحيفة ـ القناة الفضائية ـ الإذاعة ـ المجلة الإلكترونية).

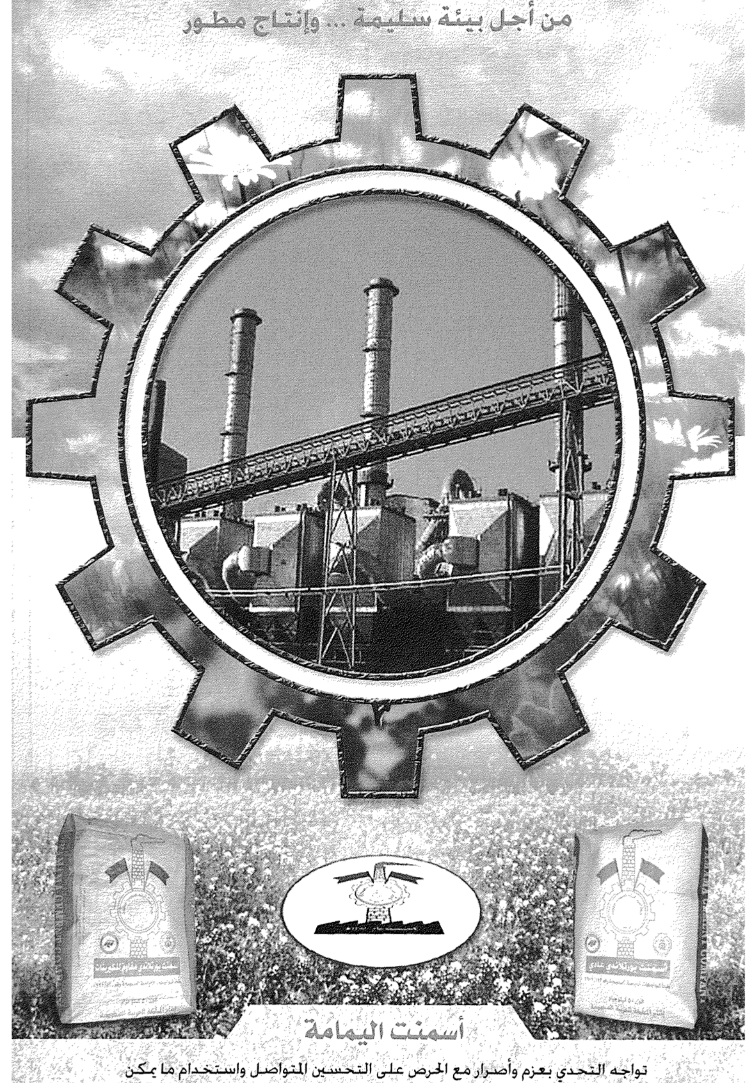
أقول هذا لأخي أبي معتز وأنا واثق أنه سيكون أرفق وأحرص وأنفع للمعرفة مني.

وبعد.. فمن المصادفات «المخيفة» أن يكون ملف آخر عدد لي في «المعرفة» عن (الصحراء) التي هي دومًا رمز الرحيل والوحشة والأسى و«السراب»!

ولذا فإني آمل ـ قبل أن أرحل ـ ألا «تتصحر» علاقتي بالمعرفة.. الممطرة دومًا بإذن الله.■

* رئيس تحرير مجلة المعرفة (سابقًا).
المندوب الدائم للمملكة لدى اليونسكو (باريس) حاليًا.




من أجل بيئة سليمة ... وإنتاج مطور
أسمنت اليمامة
تواجه التحدي بعزم وأصرار مع الحرص على التحسين المتواصل واستخدام ما يمكن الحصول عليه من تقنيات التحكم في الانبعاثات للمحافظة على البيئة.

KETAB

أشر بالقلم ليقرأ

علم أطفالك بطريقة جديدة

- يجعل من التعلم متعة .
- لايكتفي بأعطاء المعلومة بل يجعل عملية التعليم ترتبط بالمتعة والتشويق .

هذه الفكرة التي لن تغادر أذهان أطفالكم طول العمر .

- خير البداية لتعلم القراءة .
- يجعل من القراءة تفاعلا ومن التعليم إثارة .
- ليس مجرد كتاب بل هو صوت وصورة وسؤال وإجابة لتعليم أطفالنا .

KETAB First Big Book

كتاب دروسي العربية الأولى

الفاتحة وجزء عم

الحمامة المطوقة

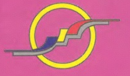
الغراب الملون

4-12 YEARS

KETAB will start reading.

الكتب المتوفرة

- الفاتحة وجزء عم قراءة وحفظ وتعليم التجويد
- الأول بالعربية لتعليم الحروف والأرقام والأشكال
- الأول بالإنجليزية لتعليم الحروف والأرقام والأشكال
- قصة الحمامة المطوقة - قصة الباز والصياد
- قصة الغراب العطشان والغراب الملون
- القاموس المصور - المحادثة الإنجلزية



منطق للكمبيوتر والاتصالات المحدودة

عبدالله فؤاد AF ABDULLA FOUAD

المركز الرئيسي: ص.ب ٢٥٧ الدمام ٣١٤١١ فاكس ٨٣١١٥١٢

الفروع - الخبر: مجمع فؤاد سنتر ٨٩٥٣٢٠٨ - الدمام: مركز الدانة ٨٣٤٦٥٨٥ - الواحة ٨٢٦٩١٤٥ - الرياض ٤٧٦٧٧٧٧ - المعرض ٤٧٨١٧١٦ - جدة ٦٣٩٤٤٢٢ - المعرض ٦٦٠٨٦٧٢

المنطقة الشرقية:
مكتبة جرير 8943311
مكتبة العبيكان 8091399
مكتبة المتنبي 8411395
المكتبة الوطنية الجديدة 8640040
الأحساء:
مكتبة الإحساء 5311501
مكتبة العبيكان 5864666
مكتبة المنار 5928388
مكتبة الضامر 5825113
مكتبة العبيكان - حفر الباطن 7211118
الخفجي:
الأسواق العالمية 7662800
مكتبة المعرفة (حائل) 5432469
دار الأندلس (حائل) 5333341
القطيف: مؤسسة العلقم 8540174

المنطقة الوسطى:
مكتبة جرير (العليا) 4626000
مكتبة جرير (الملز) 4773140
مكتبة العبيكان 4654424
اكسترا 4196677
مكتبة الشقري 4654424
مكتبة أبو معطي 4119657
مكتبة المؤيد 4020396
ألكترو 2053444
مكتبة الخريجي 4646258
رمث 4093333
هايبر بندة 2298255
معرض دبي 4082795
شركة المصباح 2202958
الكمبيوتر العربي 4263319
مخزن الكمبيوتر 2290075

الخرج:
مكتبة الاشراق 5481989
بريدة:
مكتبة العليقي 2328061
الرس:
مركز القرطاسية 3337517
حائل:
الأدوات المدرسية 5325550
عرعر:
معرض الكروان 6626809
الزلفي:
الشبكة الفضية 4223028
عنيزة:
القرطاسية 3632228
المنطقة الغربية: جدة
مكتبة مرزا 6726020
مكتبة المأمون 6446614

مكتبة تهامة 6601325
مكتبة المكتبة 6713143
مكتبة جرير 6827666
شركة أحمد عبدالواحد 6546658
مؤسسة بافرط للتجارة 6671734
عالم الإلكترونيات 6606405
مكة المكرمة:
محلات الباروم 5741066
مكتبات مرزا 5587235
مكتبة تهامة 5426634
المدينة المنورة:
مكتبة العبيكان 8330620
مكتبة دار الزمان 8366666
شركة عالم الإلكترونيات 8255966
مؤسسة بافرط للتجارة 8236442
الطائف:
المكتبة العربية 7360400

مكتبة المصيف 7368840
مكتبة الدار السعودي 7327642
ينبع:
مكتبة باحمدون 3902118
مؤسسة القحطاني 3903773
أبها: مكتبة تهامة 2248504
مكتبة العبيكان 2275050
خميس مشيط:
بن خصوصة للكمبيوتر 2232176
المنهل للإلكترونيات 0505665121
بلجرشي: مكتبة المنهل 7221048
تبوك: مكتبة النجمة 4236411
جيزان: مؤسسة السلطان 3225000
نجران: مركز الفيصلية 5224570
موزعون الجملة:
متجر الشاطري 6481157
مؤسسة السيوفي 6483527

E-mail: sales@mantech-sa.com